سحاباً فسقناه"
أو انصراف المتكلم من التكلم إلى الإخبار كقوله تعالى: "إن نشأ نذهبكم ونأت بخلق
جديد وما ذلك على الله بعزيز" وقد جمع امرؤ القيس الالتفاتات الثلاثة في ثلاث أبيات
متواليات، وهي قوله:

تطاول ليلك بالإثمد ونام الخلى ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني وخبرته عن أبي الأسود

يخاطب في البيت الأول، وانصرف إلى الأخبار في البيت الثاني وانصرف عن الأخبار إلى
التكلم في البيت الثالث على الترتيب.
وأما التمام وهو الذي سماه الحاتمي التميم وسماه ابن المعتز اعتراض كلام في كلام لم يتم
معناه ثم يعود المتكلم فيتممه وشرح حده بأنه الكلمة التي إذا طرحت من الكلام نقص
حسن معناه ومبالغته مع أن لفظه يوهم بأنه تام وهو على ضربين:ضرب في المعاني ضرب في
الألفاظ فالذي في المعاني هو تميم المعنى والذي في الألفاظ هو تميم الأوزان، والأول هو
الذي قدم حده ومثاله قوله تعالى: "ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه
حياة طيبة" فقوله تعالى: "ومن ذكر أو أنثى" "تميم وقوله" وهو مؤمن" تميم ثان في غاية
البلاغة، ومن هذا القسم قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من عبد مسلم يصلي لله كل
يوم اثنتي عشرة ركعة من غير الفريضة ابتنى الله له بيتاً في الجنة" فوقع التمييم في هذا
الحديث في ثلاثة مواضع قوله عليه السلام:مسلم، ولله ومن غير الفريضة ومن أناشيد قدامة
على هذا القسم قول الشاعر:

أناس إذا لم يقبل الحق منهم ويعطوه عادوا بالسيوف القةاضب

وأما الذي في الألفاظ فهو الذي يؤتى به لإقامة الوزن بحيث لو طرحت الكلمة استقل معنى
البيت بدونها، وهو على ضربين: أحدهما مجيء الكلمة لا تفيد غير إقامة الوزن فقط،
والثاني مجيئها تفيد مع إقامة الوزن نوعاً من الحسن، فالأول من العيوب والثاني من المحاسن،
قال: والكلام هنا في الثاني، ومثاله قول المتنبي:

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتي لظننت فيه جهنما

فإنه جاء بقوله يا جنتي لإقامة الوزن، وقصد بها دون غيرها مما يسد مسدها أن يكون
بينها وبين قافية البيت مطابقة لا تحصل بغيرها.
وأما الاستطراد - وهذه التسمية ذكر الحاتمي في حلية المحاضرة أنه نقلها عن البحتري،
وقيل: أن البحتري نقلها عن أبي تمام، وسماه ابن المعتر الخروج من معنى إلى معنى، وفسره
بأن قال: هو أن يكون المتكلم في معنى فيخرج منه بطريق التشبيه أو الشرط أو الإخبار أو
غير ذلك إلى معنى آخر يتضمن مدحاً أو قدحاً أو وصفاً وغالب وقوعه في الهجاء، ولا بد
من ذكر المستطرد به باسمه بشرط أن لا يكون تقدم له ذكر.
فمن أول ما ورد في ذلك من النظم قول السموءل بن عادياء:

وإنا لقوم ما نرى القتل سبةً إذا ما رأته عامر وسلول

ومنه قول حسان:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني فنجوت منجاً الحارث بن هاشم
ترك الأحبة لم يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

وقول أبي تمام في وصف حافر الفرس بالصلابة:

أيقنت إن لم تثبت أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عثمان

ومن أحسن ما قيل في ذلك قول ابن الزمكدم أربعة استطرادات متوالية:

وليل كوجه البرقعيدي ظلمةً وبرد أغانيه وطول قرونه
سريت ونومي فيه نوم مشرد كعقل سليمان بن فهد ودينه
على أولق فيه التفات كأنه أبو صالح في خبطه وجنونه
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه سنا وجه قرواش وضوء جبينه

وقول البحتري في الفرس أيضاً:

ما إن يعاف قذىً ولو أوردته يوماً خلائق حمدويه الأحول

ومما جمع المدح والهجاء قول بكر بن النطاح:

فتى شقيت أمواله بنواله كما شقيت بكر بأرماح تغلب

ومما جاء به على وجه المجون قول بعضهم:

اكشفي وجهك الذي أوحلتني فيه من قبل كشفه عيناك
غلطي في هواك يشبه عندي غلطي في أبي علي بن زاكي

ومما جاء في النسيب على وجه التشبيه قول امرئ القيس:

عوجاً على الطلل المحيا لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حمام

وأما تأكيد المدح بما يشبه الذم - فهو ضربان: أفضلهما أن يستثنى من صفة ذم منفية عن
الشئ صفة مدح بتقدير دخولها فيها، نحو قوله تعالى:
"لايسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً" فالتأكيد فيه من جهة أنه كدعوى

الشيء ببينة، وأن الأصل في الاستثناء الاتصال، فذكر ذاته قبل ذكر ما بعدها يوم إخراج
الشيء مما قبلها، فإذا وليها صفة مدح جاء التأكيد.
والثاني: أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى لها،
كقوله صلى الله عليه وسلم: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش" وأصل الاستثناء في هذا
الضرب أيضاً أن يكون منقطعاً لكنه باق على حاله لم يقدر.
متصلاً فلا يفيد التأكيد إلا من
الوجه الثاني من الوجهين المذكورين ولهذا كان الأول أفضل.
ومن أمثلة الأول قول النابغة الذبياني:
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
ومن أحسن ما قيل في ذلك قول حاتم الطائي:
ولا تشتكيني جارتي غير أنني إذا غاب عنها بعلها لا أزورها
ومن الثاني قول النابغة الجعدي:
فتى كلمت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا
ومن أحسن ما ورد في هذا الباب قول بعضهم:
ولا عيب فينا غير أن سماحنا اضرينا والبأس من كل جانب
فأفنى الردى أعمارنا غير ظالم وأفنى الندى أموالنا غير عاتب
وأما تأكيد الذم بما يشبه المدح - فهو ضربان:
أحدهما أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم بتقدير دخولها فيها كقولك:
فلان لا خير فيه إلا أنه يسئ إلى من أحسن إليه.
والثاني: أن تثبت للشيء صفة ذم وتعقب بأداة استثناء تليه صفة ذم أخرى كقولك: فلان
فاسق إلا أنه جاهل وتحقيق القول فيها على قياس ما تقدم.
وأما تجاهل العارف - فهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه ليخرج كلامه مخرج
المدح أو الذم، أو ليدل على شدة التدله في الحب، أو لقصد التعجب أو التوبيخ أو التقرير،
وقال السكاكي: هو سوق المعلوم مساق غيره لنكتة كالتوبيخ كما في قول الخارجية وهي
ليلى بنت طريف:
أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف
والمبالغة في المدح، كقول البحتري:
ألمع برق سرى أم ضوء مصباح أم ابتسامتها بالمنظر الضاحي
أو الذم كما قال زهير:
وما أدري ولست إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
أو التدله في الحب، كقوله:
بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاي منكن أم ليلى من البشر

وقول البحتري:
بدا فراع فؤادي حسن صورته فقلت هل ملك ذا الشخص أم ملك
وأما الهزل الذي يراد به الجد - فهو أن يقصد المتكلم ذم إنسان أو مدحه فيخرج ذلك
مخرج المجون، كقول الشاعر:
إذا ما تميمي أتاك مفاخراً فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب
وأما الكنايات - فهي أن يعبر المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن وعن الفاحش
بالطاهر وقد تقدم الكلام على ذلك في باب الكناية والتعرض وهو الباب الرابع من القسم
الثاني من هذا الفن، وهو في السفر الثالث من كتابنا هذا
وأما المبالغة - وتسمى التبليغ والإفراط في الصفة - فقد حدها قدامة بأن قال: هي أن
يذكر المتكلم حالاً من الأحوال لو وقف عندها لأجزأت فلا يقف حتى يزيد في معنى ما
ذكره ما يكون أبلغ في معنى قصده، كقول عمير بن كريم التغلبي:
ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا
ومن أمثلة المبالغة المقبولة قول امرئ القيس يصف فرساً:
فعادى عداءً بين ثور ونعجة دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل
يقول: إنه أدرك ثوراً وبقرة في مضمار واحد ولم يعرق.
وقول المتنبي:
وأصرع أي الوحش قفيته به وأنزل عنه مثله حين أركب
ولا يعاب في المبالغة إلا ما خرج عن حد الإمكان كقوله:
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
وأما إذا كان كقول قيس بن الخطيم:
طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها
ملكت بها كفي فأنهرت فتقها يرى قائماً من دونها ما وراءها
فإن ذلك من جيد المبالغة إذا لم يكن قد خرج مخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية في
وصف الطعنة، ومن أحسن ذلك وأبلغه قول أحد شعراء الحماسة:
رهنت يدي بالعجز عن شكر بره وما بعد شكري للشكور مزيد
ولو كان مما يستطاع استطعته ولكن ما لا يستطاع شديد.
وأما عتاب المرء نفسه - فهو من أفراد ابن المعتز ولم ينشد عليه سوى بيتين ذكر أن
الآمدي أنشدهما عن الجاحظ وهما:
عصاني قومي في الرشاد الذي به أمرت ومن يعص المجرب يندم

فصبراً بني بكر على الموت إنني أرى عارضاً ينهل بالموت والدم
قال: ولا يصلح أن يكون شاهداً لهذا الباب إلا قول أحد شعراء الحماسة:
أقول لنفسي في الخلاء ألومها لك الويل ما هذا التجلد والصبر
وقول الآخر:
فقدتك من نفس شعاع فإنني نهيتك عن هذا وأنت جميع
وما ناسب ذلك من الأمثلة:
وأما حسن التضمين - فهو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية أو حديث أو مثل سائر
أو بيت شعر:
ومن إنشادات ابن المعتز عليه:
عوذ لما بت ضيفاً له أقراصه مني بياسين
فبت والأرض فراشي وقد غنت قفا نبك مصاريني
فضمن بيته الأول كلمة من السورة بتوطئة حسنة، وبيته الثاني مطلع قصيدة امرئ القيس:
ومما ضمن معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم قول الآخر:
وأخٍ مسه نزولي بقرح مثلما مسني من الجوع قرح
بتُ ضيفاً له كما حكم الده ر وفي حكمه على الحر قبح
قال لي مذ نزلت وهو من السك رة بالهم طافح ليس يصحو
لم تغربت؟ قلت: قال رسول الل ه والقول منه نصح ونجح:
"سافروا تغنموا" فقال: وقد قا ل تمام الحديث: "صوموا تصحوا"
ومن تضمين الشعر قول بعضهم:
وقفنا بأنصار حكتنا لواغب "على مثلها من أربع وملاعب"
وهو مطلع قصيدة لأبي تمام:
ومنه قول الغزي"
طول حياة ما لها طائل نغص عندي كل ما يشتهي
أصبحت مثل الطفل في ضعفه تشابه المبدأ والمنتهى
فلا تلم سمعي إذا خانني "إن الثمانين وبلغتها"
المراد من التضمين ها هنا تمام البيت: "قد أحوجت سمعي إلى ترجمان"
وإنما تركه لأن أول البيت يدل عليه لاشتهاره وهذا قد أكثر المتأخرون من استعماله في
أشعارهم وضمنوا البيت الكامل بعد التوطئة له:
وأما التلميح - وهو من التضمين، وإنما بعضهم أفرده - فهو أن يشير في فحوى الكلام إلى
مثل سائر أو بيت مشهور، أو قضية معروفة من غير أن يذكره كقول الشاعر:
المستغيث بعمرو عند كربته كالمستغيث من الرمضاء بالنار

أشار إلى قضية كليب حين استغاث بعمرو بن الحارث، ومنهم من يسمي ذلك اقتباساً
وإيراد المثل كما هو تضميناً.
وأما إرسال المثل - فهو كقول أبي فراس:
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب العلياء لم يغله المهر
وكقول المتنبي:
تبكي عليهن البطاريق في الدجى وهن لدينا ملقيات كواسد
بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد
وأما إرسال مثلين - فهو الجمع بين مثلين كقول لبيد:
ألا كل شئ ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وأبيات زهير بن أبي سلمة التي فيها ومن ومن، وقد تقدم ذكر ذلك مستوفي في باب
الأمثال، وهو الباب الأول من القسم الثاني من هذا الفن، وهو في السفر الثالث:
وأما الكلام الجامع - فهو أن يكون البيت كله جارياً مجرى مثل واحد كقول زهير:
ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وكقول أبي فراس:
إذا كان غير الله في عدة الفتى ائته الرزايا من وجوه الفوائد
وكقول المتنبي:
وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
وقوله:
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له من صداقته بد
وقوله:
ومن البلية عذل من لا يرعوى عن جهله وخطاب من لا يفهم
وقوله:
إنا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال.
وأما اللف والنشر - فهو أن يذكر اثنين فصاعداً ثم يأتي بتفسير ذلك جملة مع رعاية
الترتيب ثقة بأن السامع يرد إلى كل واحد منها ما له، كقوله تعالى: "ومن رحمته جعل لكم
الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله"
ومن النظم قول الشاعر:
ألست أنت الذي من ورد نعمته وورد راحته أجنى وأغترف
وقد لا يراعى فيه الترتيب ثقة بأن السامع يرد كل شئ إلى موضعه سواء تقدم أو تأخر،

كقول الشاعر:
كيف أسلو وأنت حقف وغصن وغزال الحظا وقدا وردفا
وأما التفسير - وهو قريب منه - فهو أن يذكر لفظاً ويتوهم أنه يحتاج إلى بيانه فيعيده مع
التفسير، كقول أبي مسهر:
غيثٌ وليثٌ "فغيث" حين تسأله عرفا وليث لدى الهيجاء ضرغام
ومنه قول الشاعر:
يحيى ويردى بجداوه وصارمه يحيى العفاة ويردى كل من حسدا
ومن ذلك أن يذكر معاني ويأتي بأحوالها من غير أن يزيد أو ينقص كقول الفرزدق:
لقد جئت قوماً لو لجأت إليهمو طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم
لألفيت فيهم معطياً ومطاعناً وراءك شزراً بالوشيج المقوم
لكنه لم يراع شرط اللف والنشر:
قول آخر:
فوا حسرتا حتى متى القلب موجع بفقد حبيب أو تعذر إفضال
فراق حبيب مثله يورث الأسى وخلة حر لا يقوم بها مالي
ومنه قول ابن شرف:
سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ملء المسامع والأفواه والمقل
ومن أحسن ما في هذا الباب قول ابن الرومي:
آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح تجلو الدجى والأخريات رجوم
وفساد ذلك أن يأتي بإزاء الشيء بما لا يكون مقابلاً له كقول الشاعر:
فيأيها الحيران في ظلم الدجى ومن خاف أن يلقاه بغى من العدا
تعال إليه تلق من نور وجهه ضياء ومن كفيه بحراً من الندى
فأتى بالندى بإزاء بغى العدا وكان يجب أن يأتي بإزائه بالنصر أو العصمة أو الوزر وما
جانسه أو يذكر في موضع البغى الفقر والعدم وما جانس ذلك.
وأما التعديد - ويسمى الأعداد - فهو إيقاع أسماء مفردة على سياق واحد، فإن روعي
في ذلك ازدواج أو جناس أو تطبيق أو نحو ذلك كان غاية في الحسن، كقولهم: وضع في يده
زمام الحل والعقد، والقبول والرد، والأمر والنهي، والبسط والقبض، والإبرام والنقض،
والإعطاء والمنع، ومن النظم قول المتنبي:
الخيل والليل والبيداء تعرفني والضرب والطعن والقرطاس والقلم.

وأما تنسيق الصفات - فهو أنم يذكر الشيء بصفات متوالية، كقوله عز وجل: "هو الله
الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر" وقوله تعالى:
"إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً" وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم
بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً، المواطئون أكنافاً، الذين
يألفون ويؤلفون"؛
ومن النطم قول أبي طالب في النبي صلى الله عليه وسلم:
وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامل
وقول المتنبي:
دان بعيدٌ محبٌ مبغضٌ بهجٌ أغرٌ حلوٌ ممرٌ لينٌ شرس
وأما الإيهام - ويقال له التورية والتخييل - فهو أن يذكر ألفاظاً لها معا قريبة وبعيدة، فإذا
سمعها الإنسان سبق إلى فهمه القريب، ومراد المتكلم البعيد مثاله قول عمر بن أبي ربيعة:
أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يماني
فذكر الثريا وسهيلاً ليوهم السامع أنه يريد النجمين، ويقول: كيف يجتمعان والثريا من منازل
القمر الشامية، وسهيل من النجوم اليمانية؟ ومراده الثريا التي كان يتغزل بها لما زوجت
بسهيل، ومن ذلك قول المعري:
إذا صدق الجد افترى العم للفتى مكارم لا تخفى وإن كذب الخال
فإن وهم السامع يذهب إلى الأقارب، ومراده بالجد: الخط، وبالعم: الجماعة من الناس
وبالخال: المخيلة، ومن ذلك قول الحريري في وصف الإبرة والميل في المقامة الثامنة:
وقوله أيضاً:
يا قوم كم من عاتق عانس ممدوحة الأوصاف في الأندية
قتلتها لا أتقي وارثاً يطلب مني قوداً أو ديه
يريد بالعاتق العانس: الخمر، وبقتلها: مزجها، كما قال حسان:
إن التي عاطيتني فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل
وأمثال ذلك كثيرة:
وعند علماء البيان: التخييل تصوير حقيقة الشيء للتعظيم، كقوله تعالى: "والأرض جميعاً
قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه" والغرض منه تصوير عظمته والتوقيف على

كنه حلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز، وكذلك قوله صلى
الله عليه وسلم: "إنما نحن حفنة من حفنات ربنا" قال الزمخشري" ولا يرى باب في علم
البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب.
وأما حسن الابتداءات - قال: هذه تسمية ابن المعتز، وأراد بها ابتداءات القصائد، وفرع
المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال، وهو أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه
ببيت أو قرينة تدل على مراده في القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده، والكاتب أشد
ضرورة إلى ذلك من غيره ليبتني كلامه على نسق واحد دل عليه من أول علم بها مقصده،
إما في خطبة تقليد، أو دعاء كتاب، كما قيل لكاتب: اكتب إلى الأمير بأن بقرة ولدت
حيواناً على شكل الإنسان فكتب: أما بعد حمد الله خالق الإنسان في بطون الأنعام.
وكقول أبي الطيب في الصلح الذي وقع بين كافور وبين ابن مولاه:

حسم الصلح ما اشتهته الأعادي وأذاعته ألسن الحساد

وأمثال ذلك كثيرة:
قال: وينبغي أن لا يبتدئ بشيء يتطير منه، كقول ذي الرمة: "ما بال عينك منها الماء ينسكب
وقول البحتري:
"لك الويل من ليل تقاصره آخره
وكقول المتنبي:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وكقوله:

ملث القطر أعطشها ربوعا وإلا فاسقها السم النقيعا

قال: وينبغي أن يراعى في الابتداءات ما يقرب من المعنى إذا لم تتأت له براعة الاستهلال
وتسهيل اللفظ وعذوبته وسلاسة ألفاظه، وقيل: إن أحسن ابتداء ابتدأت به العرب قول
النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطئ الكواكب

ومن أحسن ما ابتدأ به مولد قول إسحاق بن إبراهيم الموصلي

هل إلى أن تنام عيني سبيل إن عهدي بالنوم عهد طويل

ويحسن أن يبتدئ في المديح بمثل قول أبزون الغماني:

على منبر العلياء جدك يخطب وللبلدة العذراء سيفك يخطب

وقول المتنبي:

عدوك مذموم بكل لسان وإن كان من أعدائك القمران

وقول التيفاشي:
ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي
وفي التشبيب كقول أبي تمام:
على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب
وفي النسيب كقول المتنبي:
أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي
وفي المراثي كقول أبي تمام
كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر وليس لعين لم يفض ماؤها عذر
وأما براعة التخليص - فهو أن يكون التشبيب أو النسيب ممزوجاً بما بعده من مدح
وغيره غير منفصل عنه، كقول مسلم بن الوليد:
أجدك هل تدرين أن رب ليلةً كأن دجاها من قرونك تنشر
نصبت لها حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين يذكر جعفر
وكقول المتنبي:
نودعهم والبين فينا كأنه قا ابن أبي الهيجاء في قلب فيلق
وأما براعة الطلب - قال: وهو أن تكون ألفاظ الطلب مقترنة بتعظيم الممدوح كقول أمية
بن أبي الصلت:
أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء
وكقول المتنبي:
وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب
وأما براعة المقطع - فهو أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه المترسل أو الخطيب أو
الشاعر مستعذنا حسنا، لتبقى لذته في الأسماع، كقول أبي تمام:
أبقت بني الأصفر المصفر كاسمهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب
وكقول المتنبي:
وأعطيت الذي لم يعط خلق عليك صلاة ربك والسلام
وكقول الغزي:
بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شامل.
وأما السؤال والجواب - فهو كقول أبي فراس:
لك جسمي تعله فدمي لم تطله؟
قال إن كنت مالكاً فلي الأمر كله
وأمثال ذلك. وقد أوردنا منه في باب الغزل ما فيه كفاية.
وأما صحة الأقسام - فهو عبارة عن استيفاء أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا

يغادر منه شيئاً.
ومثال ذلك قوله تعالى: "هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً" وليس في رؤية البرق إلا
الخوف من الصواعق، والطمع في المطر،
وقوله تعالى: "الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم" فلم يبق قسماً من أقسام
الهيئات حتى أتى به.
وقوله تعالى: "يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء ذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من
يشاء عقيماً" ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ليس لك من مالك إلا ما أكلت
فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ولا رابع لهذه الأقسام.
ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال: رحم الله من تصدق من فضل، أو واسى
من كفاف، أو آثر من قوت، فقال الحسن: ما ترك الأعرابي منكم أحداً حتى عمه
بالمسألة.
ومن أمثلة هذا الباب في الشعر قول بشار:
فراح فريق في الإسار ومثله قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
وأصله قول عمرو بن الأهتم:
إشربا ما شربتما فهذيل من قتيل وهارب وأسير
ومن جيد صحة الأقسام قول الحماسي:
وهبها كشيء لم يكن أو كنازح به الدار أو من غيبته المقابر
فاستوفى جميع أقسام المعدوم:
وقول أبي تمام في الأفشين لما احترق بالنار:
صلى لها حياً وكان وقودها ميتاً ويدخلها مع الفجار
ومن قديم ما في ذلك من الشعر قول زهير:
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمى
ومن النادر في صحة الأقسام قول عمر بن أبي ربيعة:
تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول ولا أنت مقصر
ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ولا بعدها يسلي ولا أنت تصبر
وأما التوشيح - فهو أن يكون معنى الكلام يدل على لفظ آخره فيتنزل المعنى منزلة
الوشاح، ويتنزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح.
وقال قدامة: هو أن يكون في أول البيت معنى إذا علم علمت منه قافية البيت بشرط أن
يكون المعنى المقدم بلفظه من جنس معنى القافية كقول الراعي النميري:

فإن وزن الحصى فوزنت قومي وجدت حصى ضريبتهم رزينا
فإن السامع إذا فهم أن الشاعر أراد المفاخرة برزانة الحصى، وعرف القافية والروي، علم
آخر البيت، ومن أمثلته ما حكى عن عمر بن أبي ربيعة أنه أنشد عبد الله ابن عباس
رضي الله عنهما:
"تشط غدا دار أحبابنا
فقال له عبد الله:
"وللدار بعد غد أبعد"
فقال له عمر: هكذا والله قلت، فقال له عبد الله: وهكذا يكون.
وأما الإيغال - فمعناه أن المتكلم أو الشاعر إذا انتهى إلى آخر القرينة أو البيت استخرج
سجعة أو قافية تفيد معنى زائداً على معنى الكلام، وأصله من أوغل في السير إذا بلغ
غاية قصده بسرعة.
وفسره قدامة بأن قال: هو أن يستكمل الشاعر معنى بيته بتمامة قبل أن يأتي بقافيته، فإذا
أراد الإتيان بها أفاد معنى زائداً على معنى البيت، كقول ذي الرمة:
قف العيس في آثار مية واسأل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل
فتمم كلامه قبل القافية، فلما احتاج إليها أفاد بها معنى زائداً، وكذلك صنع في البيت
الثاني فقال:
أظن الذي يجدي عليك سؤالها دموعاً كتبذير الجمان المفصل
فإنه تمم كلامه بقوله: كتبذير الجمان، واحتاج إلى القافية فأتى بها تفيد معنى زائداً لو لم
يؤت بها لم يحصل.
وحكى عن الأصمعي أنه سئل عن أشعر الناس فقال: الذي يأتي إلى المعنى الخسيس
فيجعله بلفظه كثيراً وينقضي كلامه قبل القافية فإن احتاج إليها أفاد بها معنى، فقيل له:
نحو من؟ فقال: نحو الفاتح لأبواب المعاني امرئ القيس حيث قال:
كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب
ونحو زهير حيث يقول:
كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم
ومن أبلغ ما وقع في هذا الباب قول الخنساء:
وإن صخراً لتأتم العفاة به كأنه علم في رأسه نار
ومنه قول ابن المعتز لابن طباطبا العلوي:

فأنتم بنوا بنته دوننا ونحن بنوا عمه المسلم
ومن أمثلة ذلك من شعر المتأخرين قول الباخرزي:
أنا في فؤادك فارم طرفك نحوه ترني فقلت لها وأين فؤادي
وقول آخر:
تعجبت من ضني جسمي فقلت لها على هواك فقالت عندي الخبر.
وأما الإشارة - فهي أن يشتمل اللفظ القليل على معان كثيرة بإيماء إليها وذكر لمحة تدل
عليها، كقوله تعالى: "فأوحى إلى عبده ما أوحى" "فغشيهم من اليم ما غشيهم".
وكقول امرئ القيس:
فإن تهلك شنوءة أو تبدل فسيرى إن في غسان خالا
بعزهمو عززت وإن يذلوا فذلهمو أنا لك ما أنا لا
وكقوله أيضاً:
فظل لنا يوم لذيذ بنعمة فقل في نعيم نحسه متغب
وأما التذليل - وهو ضد الإشارة - فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد حتى
يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكد عند من فهمه، كقوله:
إذا ما عقدنا له ذمة شددنا العناج وعقد الكرب
وقول آخر:
ودعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل
ويقرب منه التكرار، كقول عبيد:
هل لا سألت جموع كن دة يوم ولوا أين أينا؟
وكقول آخر:
وكانت فزارة تصلي بنا فأولى فزارة أولى فزارا
وأما الترديد - فهو أن تعلق لفظة في البيت بمعنى، ثم تردها فيه بعينها وتعلقها بمعنى
آخر.
كما قال زهير:
من يلق يوماً على علاته هرماً يلقى السماحة منه والندى خلقاً
وكقول آخر:
وأحفظ مالي في الحقوق وإنه لجم وإن الدهر جم عجائبه
وكقول أبي نواس:
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء
وأما التفريف - فهو مشتق من الثوب المفوف، وهو الذي فيه خطوط، وهو في الصناعة
عبارة عن إتيان المتكلم بمعان شتى من المدح أو الغزل أو غير ذلك من الأغراض، كل فن
في سجعة منفصلة عن أختها مع تساوي الجمل في الوزينة، وتكوت في الجمل الويلة

والمتوسطة والقصيرة؛ فمثال ما جاء منه في الجمل الطويلة قول النابغة الذبياني:
فلله عيناً من رأى أهل قبة أضر لمن عادى وأكثر نافعا
وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا
ومثال ما جاء منه بالجمل المتوسطة قول أبي الوليد بن زيدون:
ته أحتمل واستطل أصبر، وعز أهن وول أقبل وقل أسمع، ومر أطع
ومثال ما جاء منه بالجمل القصيرة قول المتنبي:
أقل أنل أقطع احمل عل سل أعد زد هش بش تفضل أدن سر صل.
وأما التسهيم - فهو مأخوذ من البرد المسهم، وهو المخطط الذي لا يتفاوت ولا يختلف،
ومنهم من يجعل التسهيم والتوشيح شيئاً واحداً، ويشرك بينهما بالتسوية والفرق بينهما أن
التوشيح لا يدلك أوله إلا على القافية فحسب، والتسهيم تارة يدل على عجز البيت، وتارة
على ما دون العجز.
وتعريفه أن يتقدم من الكلام ما يدل على ما يتأخر، تارة بالمعنى، وتارة باللفظ، كأبيات
جنوب أخت عمرو ذي الكلب، فإن الحذاق بمعنى الشعر وتأليفه يعلمون أن معنى قولها:
"فأقسم يا عمرو لو نبهاك"
يقتضي أن يكون تمامه:
"إذن نبها منك داءً عضالا"
دون غيرك من القوافي، كما لو قالت مكان "داء عضالا" ليثا غضوباً، أو أفعى قتولا أو
أسماء وحياً، أو ما يناسب ذلك، لأن ذلك الداء العضال أبلغ من جميع هذه الأشياء
وأشد، إذ كل منها يمكن مغالبته أو التوقي منه، والداء العضال لا دواء له، فهذا مما يعرف
بالمعنى.
وأما يدل فيه الأول على الثاني دلالة لفظية فهو قولها بعده:
إذن نبها ليث عريشة مفتياً مفيداً نفوساً ومالا
فإن الحاذق بصناعة الكلام إذا سمع قولها: "مفتياً مفيداً" تحقق أن هذا اللفظ يقتضي أن
يكون تمامه "نفوسنا ومالا" وكذلك قولها:
"فكنت النهار به شمسه"
يقتضي أن يكون "بعده"
"وكنت دجى الليل فيه الهلالا"
ومن ذلك قول البحتري:
"وإذا حاربوا أذلوا عزيزاً"
يحكم السامع بأن تمامه:

"وإذا سالموا أعزوا ذليلاً"
وكذلك قوله:
أحلت دمي من غير جرم وحرمت بلا سبب يوم اللقاء كلامي
"فليس الذي حللته بمحلل"
يعرف السامع أن تمامه:
"وليس الذي حرمته بحرام"
وأما الاستخدام - فهو أن يأتي المتكلم بلفظة لها معنيان، ثم يأتي بلفظتين يستخدم كل
لفظة منهما في معنى من معني تلك اللفظة المتقدمة، وربما ألتبس الاستخدام بالتورية من كون
كل واحد البابين مفتقراً إلى لفظة لها معنيان والفرق بينهما أن التورية استعمال أحد المعنيين
من اللفظة، وإهمال الآخر، والاستخدام استعمالهما معاً، ومن أمثلته قول البحتري:
فسقى الغضي والساكنيه وإن همو شبوه بين جوانح وقلوب
فإن لفظة الغضي محتملة للموضع والشجر، والسقيا صالحة لهما، فلما قال: "والساكينه"
استعمل أحد معنيي اللفظ، وهو دلالته بالقرينة على الموضع ولما قال: "شبوه" استعمل
المعنى الآخر، وهو دلالته بالقرينة على الشجرة ومن ذلك قول الشاعر:
إذا زل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
أراد بالسماء الغيث وبضميره النبت
وأما العكس والتبديل - فهو أن يقدم في الكلام أحد جزئيه ثم يؤخر ويقع على وجوه:
منها أن يقع بين طرفي الجملة، كقول بعضهم: عادات السادات، سادات العادات،
ومنها أن يقع بين متعلقي فعلين في جملتين، كقوله تعالى:
"يخرج الحي من الميت ويخرج الميت
من الحي" ومنه بيت الحماسة:
فرد شعورهن السود بيضاً ورد وجوههن البيض سودا.
ومنها أن يقع بين كلمتين في
طرفي جملتين، كقوله تعالى: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن"
وقوله تعالى: "لا هن حل لكم
ولا هم يحلون لهن"
وقول أبي الطيب:
ولا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده.
وأما الرجوع - فهو أن يعود المتكلم على كلامه السابق بالنقض لنكتة كقول زهير:
قف بالديار التي لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم

كأنه لما وقف على الديار عرته روعة ذمل بها عن رؤية ما حصل لها من التغير فقال: "لم
يعفها القدم" ثم ثاب إليه عقله وتحقق ما هي عليه من الدروس، فقال: بلى عفت وغيرها
الأرواح والديم.
ومنه بيت الحماسة:
أليس قليلاً نظرة إن نظرتها إليك وكلاً ليس منك قليل.
وأما التغاير - فهو أن يغاير المتكلم الناس فيما عادتهم أن يمدحوه فيذمه أو يذموه
فيمدحه.
فمن ذلك قول أبي تمام يغاير جميع الناس في تفصيل التكرم على الكرم:
قد بلونا أبا سعيد حديثاً وبلونا أبا سعيد قديما
فوردناه سائحاً وقليباً ورعيناه بأرضاً وجميما
فعلمنا أن ليس إلا بشق النفس صار الكريم "يدعى" كريما
وهو مغاير لقوله على العادة المألوفة:
لا يتعب النائل المبذول همته وكيف يتعب عين الناظر النظر
ومنه قول ابن الرومي في تفصيل القلم على السيف.
إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شئ يعادله ما زال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بريت أن السيوف لها مذ أرهقت خدم
وغايره المتنبي على الطريق المألوف فقال:
حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بها أبدأ قبل الكتاب بنا فإنما نحن للأسياف كالخدم
وأما الطاعة والعصيان - فإنه قال: هذا النوع استنبطه أبو العلاء المعري عند نظره في
شعر أبي الطيب، وسماه بهذه التسمية، وقال: هو أن يريد المتكلم معنى من المعاي التي
لبديع فيستعصي عليه لتعذر دخوله في الوزن الذي هو آخذ فيه فيأتي موضعه بكلام غيره
يتضمن معنى كلامه، ويقوم به وزنه، ويحصل به معنى من البديع غير الذي قصده، كقول
المتنبي:
يرد يدا عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد
فإنه أراد أن يقول: يرد عن ثوبها وهو مستيقظ، حتى إذا قال: ويعصى الهوى في طيفها وهو راقد
يكون في البيت مطابقة، فلم يطعه الوزن، فأتى بقادر في موضع مستيقظ لتضمنه معناه،

فإن القادر لا يكون إلا مستيقظاً وزيادة، فقد عصاه في البيت الطباق وأطاعه الجناس بين
قادر وراقد، وهو جناس العكس.
وأنكر ابن أبي الإصبع أن يكون هذا الشاهد من باب الطاعة والعصيان، لأنه كان يمكنه
أن يقول عوض قادر: ساهر، وإنما المتنبي قصد أن يكون في بيته طباق معنوي، لأن لقادر
ساهر وزيادة، إذ ليس كل ساهر قادراً، وأن يكون فيه جناس العكس.
وقال: إن شاهد الطاعة والعصيان عنده أن تعصيه إقامة الوزن مع إظهار مراده، فتطيعه
لفظة من البديع يتمم بها المعنى وتزيده حسناً، كقول عوف بن محلم:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فإنه أراد أن يقول: إن الثمانين قد أحوجت سمعي إلى ترجمان فعصاه الوزن وأطاعه لفظة
من البديع وهي التتميم، فزادته حسناً وكملت مراده وكل التتميم من هذا النوع.
وأما التسميط - فهو أن يجعل المتكلم مقاطيع أجزاء البيت أو القرينة على سجع يخالف
قافية البيت أو آخر القرينة، كقول مروان بن أبي حفصة:

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

فإن أجزاء البيت مسجعة على خلاف قافيته فتكون القافية بمنزلة السمط، والأجزاء
المسجعة بمنزلة حب العقد.
وأما التشطير - فهو أن يقسم الشاعر بيته شطرين، ثم يصرع كل شطر من الشطرين ولكنه
يأتي بكل شطر من بيته مخالفاً لقافية الآخر، كقول مسلم ابن الوليد:

موف على مهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل

وكقول أبي تمام:

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب

وأما التطريز - فهو أن يبتدئ الشاعر بذكر جمل من الذوات غير مفصلة ثم يخبر عنها
بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب تعداد جمل تلك الذوات تعداد تكرار واتحاد، لا
تعداد تغاير، كقول ابن الرومي:

أموركمو بني خاقان عندي عجاب في عجاب في عجاب
قرون في رءوس في وجوه صلاب في صلاب في صلاب

وكقوله:

وتسقيني وتشرب من رحيق خليق أن يشبه بالخلوق

كأن الكأس في يدها وفيها عقيق في عقيق في عقيق
وأما التوشيع - فهو مشتق من الوشيعة، وهي الطريقة في البرد، وكأن الشاعر أهمل البيت
كله إلا آخره، فأتى فيه بطريقة تعد من المحاسن، وهو عند أهل هذه الصناعة أن يأتي
المتكلم أو الشاعر باسم مثنى في حشو العجز، ثم يأتي بعده باسمين مفردين هما عين ذلك
المثنى، يكون الآخر منهما قافية بيته، أو سجعة كلامه كأنهما تفسير لما ثناه، كقول النبي
صلى الله عليه وسلم "يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل"
ومن أمثلة ذلك في النظم قول الشاعر:
أمسى وأصبح من تذكاركم وصبا يرثى لي المشفقان الأهل والولد
قد خدد الدمع خدي من تذكركم واعتادني المضنيان الوجد والكمد
وغاب عن مقلتي نومي لغيبتكم وخانني المسعدان الصبر والجلد
لم يبق غير خفي الروح في جسدي فدىً لك الباقيان الروح والجسد.
قال ابن أبي الإصبغ: وما بما قلته في هذا الباب من بأس، وهو:
بي محنتان ملام في هوى بهما رثى لي الفاسقان الحب والحجر
لولا الشفيقان من أمنية وأساً أودى بي المرديان الشوق والفكر
قال: ويحسن أن يسمى ما في بيته مطرف التوشيع، إذ وقع المثنى في أول كل بيت وآخره.
وأما الإغراق - وهو فوق المبالغة ودون الغلو ومن أمثلته قول ابن المعتز:
صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل
فموضع الإغراق من البيت قوله: ظالمين، يعني أنها استقرعت جهدها في العدو فما
ضربناها إلا ظلماً فمن أجل ذلك خرجت من الوحشية إلى الطيرية، ولو لم يقل: ظالمين لما
حسن قوله: فطارت ولكنه بذكر الظلم صارت الاستعارة كأنها حقيقة وقد عد من
الإغراق لا المبالغة قول امرئ القيس:
تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالي
وأما الغلو - فمنهم من يجعله هو والإراق شيئاً واحداً ومن شواهده قول مهلهل:
فولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور
ومثله قول المتنبي في وصف الأسد:

وردٌ إذا ورد البحيرة شارباً بلغ الفرات زئيره والنيلا
قالوا: ومن أمثلة الغلو قول النمر بن تولب في صفة السيف:
تظل تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادي
وأما القسم - فهو أن يريد الشاعر الحلف على شئ فيأتي في الحلف بما يكون مدحاً له
وما يكسبه فخراً، أو يكون هجاءً لغيره، أو وعيداً، أو جارياً مجرى التغزل والترقق.
فمثال الأول قول مالك بن الأشتر النخعي: "بقيت وفري وانحرفت عن العلا"
وقد تقدم الاستشهاد بهما في النظم فنها تضمنت فخراً له، ووعيداً لغيره، وكقول أبي علي البصير يعرض بعلي بن الجهم.
أكذبت أحسن ما يظن مؤملي وعدمت ما شادته لي أسلافي
وعدمت عاداتي التي عودتها قدماً من الإخلاف والإتلاف
وغضضت من ناري ليخفى ضوءها وقريت عذراً كاذباً أضيافي
إن لم أشن على علي غارةً تضحى قذى في أعين الأشراف
وقد يقسم الشاعر بما يزيد الممدوح مدحاً كقول القائل:
إن كان لي أمل سواك أعده فكفرت نعمتك التي لا تكفر
ومما جاء من القسم في النسيب قول الشاعر:
فإن لم تكن عندي كعيني ومسمعي فلا نظرت عيني ولا أسمعت أذني
ومما جاء في الغزل قول الآخر:
لا والذي سل من جفنيه سيف الردى قدت له من عذاريه حمائله
ما صارمت مقلتي دمعاً ولا وصلت غمضاً ولا سالمت قلبي بلابله
وأما الاستدراك - فهو على قسمين: قسم يتقدم الاستدراك فيه تقرير لما أخبر به المتكلم
وتوكيد، وقسم لا يتقدمه ذلك، فمن أمثلة الأول قول القائل:
وإخوان تخدتهمو دروعاً فكانوها ولكن للأعادي
وخلتهمو سهاماً صائبات فكانوها ولكن في فؤادي
وقالوا قد صفت منا قلوبٌ لقد صدقوا ولكن من ودادي
وقول الأرجاني:
غالطتني إذ كست جسمي ضنىً كسوة أعرت من الجلد العظاما
ثم قالت أنت عندي في الهوى مثل عيني صدقت لكن سقاما
وأما القسم الثاني الذي لا يتقدم الاستدراك فيه تقرير ولا توكيد فكقول زهير:
أخو ثقة لا يهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

وأما المؤتلفة والمختلفة - فهو أن يريد الشاعر التسوية بين ممدوحين فيأتي بمعان مؤتلفة في
مدحها، ويروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر بزيادة لا ينقص بها الآخر، فيأتي لأجل
الترجيح بمعان تخالف التسوية، كقول الخنساء في أخيعا وأبيها - وراعت حق الوالد بما لم
ينقص الولد.

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاقبان ملاءة الحضر
وهما وقد برزا كأنهما صقران قد حطا لي وكر
حتى إذا نزت القلوب وقد لزت هناك العذر بالعذر
وعلا هتاف الناس: أيهما قال المجيب هناك: لا أدري
برقت صحيفة وجه والده ومضى غلوائه يجري
أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر

وأول من سبق إلى هذا المعنى زهير حيث قال:

هو الجواد فإن يلحق بشأوهما على تكاليفه فمثله لحقا
أو يسبقاه على ما كان من مهل فمثل ما قدما من صالح سبقا

وتداوله الناس، فقال أبو نواس:

ثم جرى الفضل فانثنى قدما دون مداه بغير ترهيق
فقيل راشاً سهماً تراد به الغ اية والنضل سابق الفوق

وأما التفريق المفرد - فهو كقول الشاعر:

ما نوال الغمام يوم ربيع كنوال الأمير يوم سخاء
فنوال الأمير بدرة عين ونوال المام قطرة ماء

وأما الجمع مع التفريق - فهو أن يشبه شيئين بشيء ثم يفرق بين وجهي الاشتباه كقول
الشاعر:

فوجهك كالنار في ضوئها وقلبي كالنار في حرها

وأما التقسيم المفرد - فهو أن يذكر قسمة ذات جزأين أو أكثر، ثم يضم إلى كل واحد من
الأقسام ما يليق به، كقول ربيعة الرقي:

يزيد سليم سالم المال والفتى فتى الأزد للأموال غير مسالم
لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع دراهم
فلا يحسب التمتام أنى هجوته ولكنني فضلت أهل المكارم

وكقول ابن حيوس:

ثمانية لم تفترق إذ جمعتها فلا افترقت ماذب عن ناظر شفر
يقنيك والتقوى وجودك والغنى ولفظك والمعنى وسيفك والنصر

وقول آخر:

لملتمسي الحاجات جمع ببابه فهذا له فن وهذا له فن

فللخامل العليا، وللمعدم الغنى وللمذيب الرحمى وللخائف الأمن
ويجوز أن يعد هذا من الجمع مع التقسيم:
وأما الجمع مع التقسيم - فهو أن يجمع أموراً كثيرة تحت حكم ثم يقسم بعد ذلك، أو
يقسم ثم يجمع، مثال الأول قول المتنبي:
حتى أقام على أرباض خرشنة تشقى به الروم والصلبان والبيع
للسبي ما نكحوا، والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا، والنار ما زرعوا
فجمع في البيت الأول أرض العدو وما فيها من معنى الشقاوة، وذكر التقسيم في البيت
الثاني:
ومثال الثاني قول حسان:
قوم ذا حاربوا ضروا عدوهمو أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الحوادث فاعلم شرها البدع
وأما التزاوج - فهو أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء كقول البحتري:
ذا ما نهى الناهي ولج أبي الهوى أصاخت إلى الواشي فلج بها الهجر
وأما السلب والإيجاب - فهو أن يوقع الكلام على نفي شئ وثباته في بيت واحد كقوله:
وننكر ن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول
وكقول الشماخ:
هضيم الحشى لا يملأ الكف خصرها ويملأ منها كل حجل ودملج
وأما الاطراد - فهو أن يطرد الشاعر أسماء متتالية يزيد الممدوح بها تعريفاً لأنها لا تكون
إلا أسماء آبائه تأتي منسوقة غير منقطعة من غير ظهور كلفة على النظم كأطراد الماء
وانسجامه، وذلك كقول الأعشى:
أقيس بن مسعود بن خالد وأنت الذي ترجو حباءك وائل
وكقول دريد:
قتلنا بعبد الله خير لداته ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب
وهذا أحسن من الأول لأطراد الأسماء في عجز البيت.
وقال ابن الإصبغ: وقد أربى على هؤلاء بعض القائلين حيث قال:
من يكن رام حاجة بعدت عن ه وأعيت عليه كل العياء
فلها أحمد المرجى ابن يحيى ب ن معاذ بن مسلم بن رجاء
لو لم يقع فيه الفصل بين الأسماء بلفظة المرجى

ومنه ما كتب الشيخ مجد الدين بن الظهير الحنفي على إجازة
أجاز ما قد سألوا بشرط أهل السند
محمد بن أحمد ب ن عمر بن أحمد
فلم يفصل بين الأسماء في البيت بلفظة أجنبية.
وأما التجريد-فهو أن ينتزع الشاعر أو المتكلم من أمر ذي صفة
أمراً آخراً مثله في تلك
الصفة مبالغة في كمالها فيه؛ وهو أقسام: منها نحو قولهم: لي
"من" فلان صديق حميم أي
بلغ من الصداقة حداً صح معه أن يستخلص منه صديق آخر؛
ومنها نحو قولهم: لئن سألت لتسألن به البحر، ومنه قول
الشاعر:
وشوهاء تعدو بي إلى صارخ الوغى بمستلئم مثل الفنيق
المرحل
أي تعدو بي ومعي من استعدادي للحرب لابس لأمة؛
ومنها نحو قوله تعالى: "لهم فيها دار الخلد" لأن جهنم- أعاذنا
الله منها هي دار الخلد،
لكن اتنزع منها مثلها وجعل فيها معداً للفار تهويلاً لأمرها ومنها
قول الحماسي:
فلئن بقيت لأرحلن بغزوة نحو الغنائم أو يموت كريم
وعليه قراءة من قرأ: "فإذا انشقت السماء فكانت وردة
كالدهان" بالرفع، بمعنى
فحصلت سماء وردة، وقيل تقدير الأول أو يموت منى الكريم،
والثاني: فكانت منها وردة
كالدهان، وفيه نظر؛
ومنها نحو قوله:
يا خير من يركب المطى ولا يشرب كأساً بكف من بخلا
ونحو قول الآخر:
إن تلقني ترى غيري يناظره تنس السلاح وتعرف جبهة
الأسد
ومنها مخاطبة الإنسان غيره وهو يريد نفسه، كقول الأعشى:
ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
وقول المتنبي:
لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد
الحال
ومنه قول الحيص بيص:
إلام يراك المجد في زي شاعر وقد نحلت شوقاً فروع
المنابر
كتمت بصيت الشعر علماً وحكمة ببعضهما ينقاد صعب
المفاخر
اما وأبيك الخير إنك فارس ال الكلام ومحيي الدراسات
الغوابر

وأما التكميل - فهو أن يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنىً من مدح أو غيره من فنون الكلم
وأغراضه، ثم يرى مدحه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غير كامل، كمن أراج مدح
إنسان بالشجاعة، ثم رأى الاقتصار عليها دون مدحه بالكرم مثلاً غير كامل أو بالبأس
دون الحلم، ومثال ذلك قول كعب بن سعد الغنوي:
حليمٌ إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب
قوله: "إذا ما الحلم زين أهله" احتراس لولاه لكان المدح مدخولاً، إذ بعض التغاضي قد
يكون عن عجز وإنما يزين الحلم أهله إذا كان قدرة، ثم رأى أن يكون مدحه بالحلم وحده
غير كامل، لأنه إذا لم يعرف منه إلا الحلم طمع فيه عدوه فقال: "في عين العدو مهيب"، ومنه
قول السموءل بن عادياء:
وما مات منا سيد في فراشه ولا طل منا حيث كان قتيل
لأن صدر البيت وإن تضمن وصفهم بالإقدام والصبر وربما أوهم العجز
لأن قتل الجميع يدل على الوهن والقلة فكمله بأخذهم للثأر، وكمل حسنه بقوله:
"حيث كان" فإنه أبلغ في الشجاعة؛ ومن ذلك في النسيب قول كثير:
لو أن عزة حاكمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
لأن قوله: "عند موفق" تكميل للمعنى، إذ ليس كل من يحاكم إليه موفقاً؛ ومنه قول المتنبي:
أشد من الرياح الهوج بطشاً وأسرع في الندى منها هبوبا
وأما المناسبة - فهي على ضربين: مناسبةٍ في المعنى، ومناسبةٍ في الألفاظ فالمعنوية أن
يبتدئ المتكلم بمعنىً، ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنىً دون لفظ، كقوله تعالى: "أو لم يهد لهم
كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون أو لم
يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا
يبصرون" فقال تعالى في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعيةٌ: "أو لم يهد لهم، وقال بعد ذكر
الموعظة: أفلا يسمعون" وقال في صدر الآية التي موعظتها مرئيةٌ: "أو لم يروا" وقال بعد
الموعظة:
"أفلا يبصرون".
ومن أمثلة المناسبة المعنوية قول المتنبي:

على سابح موج المنايا بنحره غداة كأن النبل في صدره وبل
فإن بين لفظة السباحة ولفظتي الموج والوبل تناسباً صار البيت به متلاحماً؛ وقول ابن رشيق:
أصحّ وأقوى ما رويناه في الندى من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيي عن البحر عن جود الأمير تميم
فإنه وفي المناسبة حقها في صحة العنعنة برواية السيول عن الحيي عن البحر، وجعل الغاية
فيها جود الممدوح.
والمناسبة اللفظية: توخي الإتيان بكلمات متزنات، وهي على ضربين: تامة وغير تامة.
فالتامة: أن تكون الكلمات مع الاتزان مقفاة، فمن شواهد التامة قوله تعالى:
"ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون"
ومن الحديث النبوي - صلاة الله وسلامه على قائله - قول النبي صلى الله عليه وسلم
للحسن والحسين - رضي الله عنهما - : "أعذيكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان
وهامة، ومن كل عين لامه" ولم يقل: "ملمة" وهي القياس لمكان المناسبة اللفظية التامة؛
ومن شواهد الناقصة قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني
مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤن أكنافاً"
ومما جمع بين المناسبتين قوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها
قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غايتي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها
عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهم إني أسألك
العون في القضاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء"
فناسب صلى الله عليه وسلم بي قلبي وأمري، وغايتي وشاهدي مناسبة غير تامة، لأنها
في الزنة دون التفقية، وناسب بين القضاء والشهداء والسعداء والأعداء مناسبة تامة في الزنة
والتفقية؛ ومن أمثلة المناسبتين قول أبي تمام:
مها الوحش إلا أن هاتا أوانسٌ قنا الخط إلا أن تلك ذوابل
فناسب بين مها وقا مناسبة تامة، وناسب بين الوحش والخط، وأوانس وذوابل مناسبة
غير تامة.

وأما التفريع - فهو أن يصدر المتكلم أو الشاعر كلامه باسم منفىً بينما" خاصة، ثم
يصف الاسم المنفي بمعظم أوصافه اللائقة به في الحسن أو القبح، ثم يجعله أصلاً يفرع منه
جملةً من جار ومجرور متعلقة به تعلق مدحٍ أو هجاء أو فخرٍ أو نسيب أو غير ذلك، يفهم
من ذلك مساواة المذكور بالاسم المنفي الموصوف كقول الأعشى:

ما روضةٌ من رياض الحزن معشبةٌ خضراء جاد عليها مسبلٌ هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرقٌ مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها طيب رائحةً ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

وقول عاتكة المرية:

وما طعم ماء أي ماء تقوله تحدر من غرٍ طوال الذوائب
بمنعرج من بطن وادٍ تقابلت عليه رياح الصيف من كل جانب
نفت جرية الماء القذى عن متونه فليس به عيب تراه لعائب
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه تقى الله واستحياء بعض العواقب

وقد وقع الأصل والفرع لأبي تمام في بيت واحدٍ، وهو:

ما ربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى رباً من ربعها الخرب
ولا الخدود وإن أدمين من خجل أشهى إلى ناظري من خدها الترب

ومما ورد في النثر رسالة ابن القمي التي كتبها إلى سبأ بن أحمد صاحب صنعاء:

وأما حال عبده بعد فراقه في الجلد، فما أم تسعة من الولد؛ ذكور، كأنهم عقبان وكور؛
اخترم منهم ثمانية، فهي على التاسع حانية، فنادى النذير في البادية، بالعادية يا للعاديه؛ فلما
سمعت الداعي، ورأت الخيل سواعي؛ أقبلت تنادي ولدها: ألأناة الأناة، وهو يناديها: القناة
القناة.

بطلٌ كأن ثيابه في سرحةٍ يحذى نعال السبت ليس بتوأم

فلما رمقته يختال في غضون الزرد الموضون أنشأت تقول:

أسد أضبط يمشي بين طرفاء وغيل
لبسه من نسج داو د كضحضاح المسيل

عرض له في البادية أسدٌ هصور، كأن ذراعه مسدٌ معصور
فتطاعنا وتواقفت خيلاهما وكلاهما بطل اللقاء مقنع

فلما سمعت الرعيل، برزت من الصرم بصبر قد عيل؛ فسألت عن الواحد فقيل: لحده
اللاحد.

فكرت تبتغيه فصادفته على دمه ومصرعه السباعا

عبثن به فلم يتركن إلا أديما قد تمزق أو كراعا
بأشد من عبده تأسفاً، ولا أعظم كمداً وتلهفاً.
قال: وذكر ابن أبي الإصبع في التفريع قسما ذكره في صدر الباب، وقال:
إنه هو الذي استخرجه، وهو أن يبتدئ الشاعر بلفظة هي إما اسم أو صفة، ثم يكررها
في البيت مضافة إلى أسماء وصفات تتفرع عليها جملةٌ من المعاني في المدح وغيره، كقول
المتنبي:
أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي أنا ابن السروج أنا ابن الرعان
طويل النجاد طويل العماد طويل القناة طويل السنان
حديد اللحاظ حديد الحفاظ حديد الحسام حديد الجنان
وأما نفي الشيء بإيجابه - فهو أن يثبت المتكلم شيئاً في ظاهر كلامه وينفي ما هو من
سببه مجازاً، والمنفي في باطن الكلام حقيقة هو الذي أثبته كقول امرئ القيس:
على لاحب لا يهتدي بمناره إذا سافه العود النباطي جرجرا
فظاهر هذا الكلام يقتضي إثبات منار لهذه الطريق، ونفي الهداية به مجازاً وباطنه في
الحقيقة يقتضي نفي المنار جملة، والمعنى أن هذه الطريق لو كان لها منار ما اهتدى به،
فكيف ولا منار لها، كما تقول لمن تريد أن تسلبه الخير: ما أقل خيرك! فظاهر كلامك يدل
على إثبات خير قليل، وباطنه نفى الخير كثيره وقليله. وقول الزبير بن عبد المطلب يمدح
عميلة بن عبد الدار - وكان نديماً له -:
صحبت بهم طلقاً يراح إلى الندى إذا ما انتشى لم تحتضره مفاقره
ضعيف بحث الكأس قبض بنانه كليل على وجه النديم أظافره
فظاهر هذا أن للمدوح مفاقر لم تحتضره إذا انتشى، وأن له أظافر يخمش بها وجه نديمه
خمشاً ضعيفاً، وباطن الكلام في الحقيقة نفى المفاقر جملة، والأظافر بتة.
وأما الايداع - قال: وأكثر الناس يجعلونه من باب التضمين، وهو منه إلا أنه مخصوص
بالنثر، وبأن يكون المودع نصف بيت، إما صدراً أو عجزاً .
فمنه قول علي رضي الله عنه في جواب كتاب لمعاوية:
ثم زعمت أني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت، فإن يكن ذلك كلك فلم تكن

الجناية عليك، حتى تكون المعذرة إليك "وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها"
وأما الإدماج - فهو أن يدمج المتكلم غرضاً له في جملة معنىً من المعاني قد نحاه ليوهم
السامع أنه لم يقصده، وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي قصده، كقول عبيد الله بن الله
عبد الله لعبيد الله بن سليمان بن وهب حين وزر للمعتضد - وكان ابن عبيد الله قد
اختلت حاله - فكتب إلى ابن سليمان:
أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا إن المهم المقدم
فأدمج شكوى الزمان في ضمن التهنئة، وتلطف في المسألة مع صيانة نفسه عن التصريح
بالسؤال.
وأما سلامة الاختراع - فهو أن يخترع الشاعر معنىً لم يسبق إليه ولم يتبعه أحد فيه، كقول
عنترة في الذباب:
هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم
وكقول عدي بن الرقاع في تشبيه ولد الظبية:
تزجي أغن كأن إبرة روقه قلمٌ أصاب من الدواة مدادها.
وكقول النابغة في وصف النسور:
تراهن خلف القوم زوراً عيونها جلوس الشيوخ في مسوك الأرانب
وكقول أبي تمام:
لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حربٌ للمكان العالي
وقوله:
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً إن السماء ترجى حين تحتجب
وقول ابن حجاج:
وإني والمولى الذي أنا عبده طريفان في أمر له طرفان
بعيداً تراني منه أقرب ما ترى كأني يوم العيد في رمضان
وأما حسن الاتباع - فهو أن يأتي المتكلم إلى معنىً قد اخترعه غيره فيتبعه فيه اتباعاً
يوجب له استحقاقه، إما باختصار لفظه، أو قصر وزنه أو عذوبة نظمه، أو سهولة سبكه،
أو إيضاح معناه، أو تتميم نقصه، أو تحليته بما توجبه الصناعة، أو بغير ذلك من وجوه
الاستحقاقات؛
كقول شاعر جاهلي في صفة جمل:
وعودٍ قليل الذنب عاودت ضربه إذا هاج شوقي من معاهدها ذكر

وقلت له ذلفاء ويحك سببت لك الضرب فاصبر إن عادتك الصبر
فأحسن ابن المعتز اتباعه حيث قال يصف خيله:
وخيلٍ طواها القود حتى كأنها أنا بيب سمرٌ من قنا الخط ذبل
صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجل
وابتع أبو نواس جريراً في قوله:
إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهمو غضابا
فقال أبو نواس - ونقل المعنى من الفخر إلى المدح - :
وليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم في واحد
وقول النميري في أخت الحجاج:
فهن اللواتي إن برزن قتلنني وإن غبن قطعن الحشى حسرات
فاتبعه ابن الرومي فقال:
ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم
وأما الذم في معرض المدح - فهو أن يقصد المتكلم ذم إنسان فيأتي بألفاظ موجهة،
ظاهرها المدح، وباطنها القدح، فيوهم أنه يمدحه وهو يهجوه كقول بعضهم في الشريف بن
الشجري:
يا سيدي والذي يعيذك من نظم يضن يصدا به الفكر
ما فيك من جدك النبي سوى أنك لا ينبغي لك الشعر
وأما العنوان - فهو أن يأخذ المتكلم في غرض له من وصف أو فخر أو مدح أو هجاء أو
غير ذلك، ثم يأتي لقصد تكميله بألفاظ تكون عنواناً لأخبار متقدمة، وقصص سالفة؛ كقول
أبي نواس:
يا هاشم بن حديج ليس فخركمو بقتل صهر رسول الله بالسدد
أدرجتمو في إهاب العير جثته لبئس ما قدمت أيديكمو لغد
إن تقتلوا ابن أبي كر فقد قتلت حجراً بدارة ملحوب بنو أسد
ويوم قلتم لعمرو وهو يقتلكم قتل الكلاب لقد أبرحت من ولد
ورب كندية قالت لجارتها والدمع ينهل من مثنى ومن وحد
ألهى امرأ القيس تشبيبٌ بغانية عن ثأره وصفات النؤى والوتد
فقد أتى أبو نواس في هذه الأبيات بعدة عنوانات: منها قصة قتل محمد بن أبي بكر، وقتل
حجر أبي امرئ القيس، وقتل عمرو بن هندٍ كندة في ضمن هجو من أراد هجوه، وعير
المهجو بما أشر إليه من الأخبار الدالة على هجاء قبيلته؛

ومثل ذلك قول أبي تمام في استعطاف مالك بن طوق على قدمه:

رفدوك في يوم الكلاب وشققوا فيه المزاد بجحفل غلاب
وهمو بعين أباغ راشوا للعدا سهميك عند الحارث الحرّاب
وليالي الثرثار والحشاك قد جلبوا الجياد لواحق الأقراب
فمضت كهولهمو ودبر أمرهم أحداثهم تدبير غير صواب

وقال بعد ذلك:

لك في رسول الله أعظم أسوة وأجلها في سنة وكتاب
أعطى المؤلفة القلوب رضاهمو كملاً ورد أخائذ الأحزاب
والجعفريون استقلت ظعنهم عن قومهم وهمو نجوم كلاب
حتى إذا أخذ الفراق بقسطه منهم وشط بهم عن الأحباب
ورأوا بلاد الله قد لفظتهمو أكنافها رجعوا إلى جواب
فأتوا كريم الخيم مثلك صافحاً عن ذكر أحقاد وذكر ضباب

فانظر إلى ما أتى به أبو تمام في هذه الأبيات من العنوانات من السيرة النبوية وأيام العرب،
وأخبار بني جعفر بن كلاب، ورجوعهم إلى ابن عمهم جواب؛ وكقوله أيضاً لأحمد بن أبي
داؤد:

تثبت إن قولاً كان زوراً أتى النعمان قبلك عن زياد
وأرث بين حي بني جلاح لظى حرب بني مصاد
وغادر في صدور الدهر قتلى بني بدر على ذات الإصاد

فأتى بعنوان يشير به إلى قصة النابغة حين وشى به إلى النعمان، فجر ذلك من الحروب ما
تضمنت أبياته.

وأما الإيضاح - وهو أن يذكر المتكلم كلاماً في ظاهره لبسٌ، ثم يوضحه في بقية كلامه،
كقول الشاعر:

يذكرنيك الخير والشر كله وقيل الخنا والعلم والحلم والجهل

فإن الشاعر لو اقتصر على هذا البيت لأشكل مراده على السامع بجمعه بين ألفاظ المدح
والهجاء، فلما قال بعد:

فألقاك عن مكروهها متنزهاً وألقاك في محبوبها ولك الفضل

أوضح المعنى المراد، وأزال اللبس، ورفع الإشكال والشك.

وأما التشكيك - فهو أن يأتي المتكلم في كلامه بلفظةٍ تشكك المخاطب هل هي فضلةٌ أو
أصلية لا غنى للكلام عنها؟ مثل قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ" فإن
لفظة تشكك السامع هل هي فضلةٌ أو أصلية؟ فالضعيف النظر يظنها فضلةً لأن لفظة

تداينتم تغني عنها، والناظر في علم البيان يعلم أنها أصلية لأن لفظة الدين لها محامل، تقول:
داينت فلاناً المودة، يعني جازيته، ومنه:
"كما تدين تدان" ومنه قول رؤبة:
داينت أروى والديون تقضى فمطلت بعضاً وأدت بعضاً
وكل هذا هو الدين المجازي الذي لا يكتب ولا يشهد عليه، ولما كان المراد من الآية تمييز
الدين المالي الذي يكتب ويشهد عليه، وتيسير أحكامه، أوجبت البلاغة أن يقول: "بدين"
ليعلم حكمه.
وأما القول بالموجب - فهو ضربان:
أحدهما أن تقع صفةٌ في كلام مدعٍ شيئاً يعني به نفسه، فثبتت تلك الصفة لغيره من غير
تصريح بثبوتها له، ولا نفيها عنه، كقوله تعالى: "يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز
منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين" فإنهم كنوا بالأعز عن فريقهم، وبالأذل عن فريق
المؤمنين، فأثبت الله عز وجل صفة العزة لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعرض لثبوت حكم
الإخراج بصفة العزة ولا لنفيه.
والثاني حمل كلام المتكلم مع تقريره على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه كقول
الشاعر:
قلت: ثقلت إذ أتيت مراراً قال: ثقلت كاهلي بالأيادي
قلت: طولت قال: لي بل تطول ت وأبرمت قال: حبل الوداد
ومنه قول الأرجاني: "غالطتني أذ كست جسمي ضنىً" البيتين، وقد تقدم الاستشهاد بهما
في الاستدراك.
وللمولى شهاب الدين محمود الحلبي الكاتب في ذلك:
رأتني وقد نال مني النحول وفاضت دموعي على الخد فيضا
فقالت: بعيني هذا السقام فقلت: صدقت، وبالخصر أيضا
وقول محاسن الشواء:
ولما أتاني العاذلون عدمتهم وما فيهمو إلا للحمى قارض
وقد بهتوا لما رأوني شاحباً وقالوا: به عينٌ فقلت: وعارض
وأما القلب - فهو أن يكون الكلام أو البيت كيفما انقلبت حروفه كان بحاله لا يتغير، ومنه
في التنزيل قوله تعالى: "كل في فلكٍ" "وربك فكبر" وقولهم: ساكب كاس.
ومنه قول العماد الأصفهاني للقاضي الفاضل: سر فلا كبا بك الفرس، وجواب القاضي

الفاضل له: دام علا العماد، وهي أول قصيدة للأرجاني، مطلعها: "دام علا العماد" ومن
ذلك قول الأرجاني:
مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم
وأما التندير - فهو أن يأتي المتكلم بادرة حلوة، أو نكتة
مستظرفة يعرض فيها بمن يريد ذمه
بأمر، وغالب ما يقع في الهزل، فمنه قول أبي تمام فيمن سرق له شعرا:
من بنو بجدلٍ، من ابن الحباب من بنو تغلب غداة الكلاب
من طفيلٌ، من عامرٌ، أم من الحا رث، من عتيبة بن شهاب
إنما الضيغن الهصور أبو الأش بال هتاك كل خيس وغاب
من عدت خيله على سرح شعري وهو للحين راتعٌ في كتاب
يا عذراى الكلام صرتن من بع دي سبايا تبعن في الأعراب
لو ترى منطقي أسيراً لأصب حت أسيراً ذا عبرة واكتئاب
طال رغبي إليك مما أقاسي ه ورهبي يا رب فاحفظ ثيابي
ومن ذلك ما قاله شهاب الدين بن الخيمي يعرض بنجم الدين بن إسرائيل لما تنازعا في
القصيدة المعروفة لابن الخيمي التي أولها:
يا مطلباً ليس لي من غيره أرب
فقال من قطعة منها:
هم العريب بنجد مذ عرفتمو لم يبق لي معهم مالٌ ولا نشب
فما ألموا بحيٍّ أو ألمّ بهم إلا أغاروا على الأبيات وانتهبوا
لم يبق منطقه قولاً يروق لنا لقد شكت ظلمه الأشعار والخطب
وأما الإسجال بعد المغالطة - فهو أن يقصد الشاعر غرضاً من ممدوح فيشترط لحصوله
شرطاً، ثم يقدر وقوع ذلك الشرط مغالطة ليسجل به استحقاق مقصوده، كقول بعضهم:
جاء الشتاء وما عندي لقرّته إلا ارتعادي وتصفيقي بأسناني
فإن هلكت فمولانا يكفّنني هبني هلكت فهبني بعض أكفاني
وأما الافتنان - فهو أن يأتي الشاعر بفّنين متضادّين من فنون الشعر في بيت واحد مثل
التشبيب والحماسة،" والمديح" والهجاء، والهناء والعزاء فأما ما جمع فيه بين التشبيب
والحماسة فكقول عنترة:
إن تغدفي دوني القناع فإنني طبّ بأخذ الفارس المستلئم
وكقول أبي دلف - ويروى لعبد اللّه بن طاهر-:
أحبّك يا جنان وأنت مني محّل الرّوح من جسد الجبان
ولو أني أقول محلّ روحي لخفت عليك بادرة الطعّان.
وأما ما جمع فيه بين تهنئةٍ وتعزيةٍ فقد تقدّم ذكر ذلك في بابي التهاني والتعازي ومنه فيما لم

نورده هناك ما كتب به الموالي شهاب الدين محمود الكاتب تهنئة وتعزية لمن رزق ولداً ذكراً
في يوم ماتت له فيه بنت:
ولا عتب على الدهر فيما اقترف، فقد أحسن الخلف، واعتذر بما وهب عما سلب،
فعفا اللّه عمّا سلف.
وأما الإبهام - بباء موّحدة فهو أن يقول المتكلّم كلاماً مبهماً يحتمل معنيين متضاديّن، كقول
بعضهم في الحسن بن سهل لما تزوّج المأمون ببنيه بوران:
بارك اللّه للحسن ولبوران في الختن
يا إمام الهدى ظفر ت ولكن بِبنت من
فلم يعرف مراده "ببنت من" هل أراد به الرفعة أو الضعة؟
ومنه قول بشار في خياط أعور اسمه عمرو:
خاط عمرو لي قباء ليت عيينه سواء
فأبهم المعنى في الدعاء له بالدعاء عليه.
وأما حصر الجزئي وإلحاقه بالكليّ - فهو كقول السّلاميّ:
إليك طوى عرض البسيطة جاعلٌ قصاري المطايا أن يلوح لها القصر
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي ثلاثة أشباه كما اجتمع النّسر
وبشّرت آمالي بملك هو الورى ودارٍ هي الدنيا، ويومٍ هو الدهر.
فأما حصر أقسام الجزئي فإن العالم عبارةٌ عن أجسامٍ وظروف زمانٍ وظروف مكانٍ، وقد
حصر ذلك؛
وأما جعله الجزئي كلّيّاً فإن الممدوح جزء من الورى، والدار جزء من الدنيا، واليوم جزء
من الدهر.
وأما المقارنة - فهي أن يقرن الشاعر الاستعارة بالتشبيه أو المبالغة أو غير ذلك بوصل
يخفى أثره إلا على مدمن النظر في هذه الصناعة، وأكثر ما يقع ذلك بالجمل الشرطية، كقول
بعض شعراء المغرب:
وكنت إذا استنزلت من جانب الرضى نزلت نزول الغيث في البلد المحل
وإن هيّج الأعداء منك حفيظةً وقعت وقوع النار في الحطب الجزل
فإن لاءم بين الاستعارة والتشبيه المنزوع الأداة في صدري بيتية وعجزيهما.
وأما ما قرنت به الاستعارة من المبالغة فمثاله قول النابغة الذبياني:
وأنت ربيع ينعش الناس سيبه وسيف أعيرته المنية قاطع

فإن في كل من صدر البيت وعجزه استعارة ومبالغة، وإنما التي في العجز أبلغ.
ومما اقترن فيه الإرداف بالاستعارة قول تميم بن مقبل:
لدن غدوه حتى نزعنا عشية وقد مات شطر الشمس والشطر مدنف
فإنه عبر بموت شطر الشمس عن الغروب، واستعار الدنف للشطر الثاني.
وأما الإبداع - فهو أن يأتي في البيت الواحد من الشعر، أو القرينة الواحدة من النثر بعدة
ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جمله، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة
ضربان من البديع، ومتى لم تكن كل كلمة بهذه المثابة فليس بإبداع.
قال ابن أبي الإصبغ: وما رأيت فيما استقريت من الكلام كآية استخرجت منها أحداً
وعشرين ضرباً من المحاسن، وهي قوله تعالى : "وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي
وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين": وهي المناسبة
التامة في "ابلعي" و "أقلعي"؛ والمطابقة بذكر الأرض والسماء؛ والمجاز في قوله : "يا سماء"،
فإن المراد - والله أعلم - يا مطر السماء؛ والاستعارة في قوله تعالى: "أقلعي"؛ والإشارة في
قوله تعالى: "وغيض الماء" فإنه عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة؛ والتمثيل في قوله تعالى:
"وقضى الأمر" فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بغير لفظ المعنى الموضوع له؛
والإدارف في قوله: "واستوت على الجودي" فإنه عبر عن استقرارها بهذا المكان استقراراً
متمكناً بلفظ قريب من لفظ المعنى؛ والتعليل، لأن غيض الماء علة الاستواء؛ وصحة
التقسيم إذا استوعب الله تعالى أقسام أحوال الماء حالة نقصه، إذ ليس إلا احتباس ماء
السماء، واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على ظهرها؛
والاحتراس في قوله تعالى: "وقيل بعداً للقوم الظالمين" إذ الدعاء عليهم يشعر أنهم مستحقو
الهلاك احتراساً من ضعيف العقل يتوهم أن العذاب شمل من يستحق ومن لا يستحق،
فتأكد بالدعاء كونهم مستحقين؛ والإيضاح في قوله: "للقوم" ليبين أن القوم الذين سبق ذكرهم

في الآية المتقدمة حيث قال: "وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه" هم الذين وصفهم
بالظلم ليعلم أن لفظة القوم ليست فضلة وأنه يحصل بسقوطها لبسٌ في الكلام؛ والمساواة لأن
لفظ الآية لا يزيد على معناها؛ وحسن النسق، لأنه تعالى عطف القضايا بعضها على بعض
بحسن ترتيب، وائتلاف اللفظ مع المعنى، لأن كل لفظة لا يصلح موضعها غيرها؛ والإيجاز،
لأنه سبحانه وتعالى اقتص القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشيء في أقصر
عبارة، والتسهيم، لأن أول الآية إلى قوله: "أقلعي" يقتضى آخرها؛ والتهديب، لأن مفردات
الألفاظ موصوفةٌ بصفات الحسن، عليها رونق الفصاحة، سليمةٌ من التعقيد والتقديم
والتأخير؛ والتمكن، لأن الفاصلة مستقرةٌ في قرارها، مطمئنةٌ في مكانها؛ والانسجام، وهو
تحدر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء؛ وما في مجموع الآية من الإبداع، وهو الذي سمي به
هذا الباب، فهذه سبع عشرة لفظةً تضمنت أحداً وعشرين ضرباً من البديع غير ما تكرر
من أنواعه فيها.

وأما الانفصال - فهو أن يقول المتكلم كلاماً يتوجه عليه فيه دخلٌ لو اقتصر عليه، فيأتي بما
يفصله عن ذلك الدخل، كقول أبي فراس:

ولقد نبيّت إبلي س إذا راك يصد
ليس من تقوى ولكن ثقل فيك وبرد

والفرق بين هذا وبين الاحتراس خلو الاحتراس من الدخل عليه من كل وجه.

وأما التصرف - فهو أن يتصرف المتكلم في المعنى الذي يقصده، فيبرزه في عدة صور:
تارة بلفظ الاستعارة، وطوراً بلفظ التشبيه، وآونة بلفظ الإرداف وحيناً بلفظ الحقيقة،
كقول امرئ القيس يصف الليل:

وليلٍ كموج البحر مرخ سدوله عليّ بأنواه الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

فإنه أبرز المعنى بلفظ الاستعارة، ثم تصرف فيه فأتى بلفظ التشبيه فقال:

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

ثم تصرف فيه فأخرجه بلفظ الإرداف فقال:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وأما الاشتراك - فمنه ما ليس بحسن ولا قبيح، وهو الاشتراك في الألفاظ مثل اشتراك

الأبيرد وأبي نواس في لفظة الاستعفاء، فإن الأبيرد قال في مرثية أخيه:

وقد كنت أستعفي الإله إذا اشتكى من الأجر لي فيه وإن عظم الأجر

وقال أبو نواس:

ترى العين تستعفيك من لمعانها وتحسر حتى ما تقل جفونها

ومنه الحسن، وهو الاشتراك في المعنى، كقول امرئ القسي:

كبكر المقاناة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل

وقول ذي الرمة:

كحلاء في برج صفراء في دعجٍ كأنها فضة قد مسها ذهب

فوقع الاشتراك بينهما في وصف المرأة بالصفرة، غير أن الأول شبه الصفرة ببيضة النعامة،

والآخر وصفها بالفضة المموهة؛

ومن الاشتراك المعنوي ما ليس بحسن ولا معيب، كقول كثير:

وأنت التي حببت كل قصيرة إلي وما تدري بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطا، شر النساء البحاتر

فإن لفظة قصيرة مشتركة، فلو اقتصر على البيت الأول لكان الاشتراك معيباً لكنه لما أتى

بالبيت الثاني زال العيب، ولم يبلغ رتبة الحسن لما فيه من التضمين.

وأما التهكم - فالفرق بينه وبين الهزل الذي يراد به الجد أن التهكم ظاهره جد وباطنه

هزل، والهزل الذي يراد به الجد على العكس منه، فمن التهكم قول الوجيه الذروري في ابن

أبي حصينة من أبيات:

لا تظنن حدبة الظهر عيباً فهي في الحسن من صفات الهلال

وكذاك القسي محدوباتٌ وهي أنكى من الظبا والعوالي

وإذا ما علا السنام ففيه لقروم الجمال أي جمال

وأرى الانحناء في مخلب البا زي ولم يعد مخلب الرئبال

كوّن الله حدبة فيك إن شئ ت من الفضل أو من الإفضال

فأنت ربوةً على طود علم وأنت موجةً ببحر نوال

ما رأتها النساء إلا تمنت أنها حليةٌ لكل الرجال

ثم ختمها بقوله:

وإذا لم يكن من الهجر بدٌ فعسى أن تزورنا في الخيال

وكقول ابن الرومي:

فياله من عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل

وأما التدبيج - وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر ألواناً يقصد بها الكناية أو التورية بذكرها

عن أشياء من وصف أو مدح أو هجاء أو نسيب أو غير ذلك من الفنون، فمن ذلك قول
الحريري في بعض مقاماته: فمذ ازور المحبوب الأصفر واغبر العيش الأخضر، اسود يومي
الأبيض، وابيض فودي الأسود، حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر.
وهذا التدبيج بطريق التورية. وقال بعض المتأخرين يصف موقف السلطان الملك الناصر
بمصاف شقحب الكائن بينه وبين التتار في شهر رمضان سنة اثنتين وسبعمائة:
وما زال بوجهه الأبيض، تحت علمه الأصفر، يكابد الموت الأحمر، تجاه العدو الأزرق، إلى
أن حال بينهما الليل الأسود، وبكّر في غرة نهار الأحد الأشعل وامتطى السبيل الأحوى إلى
أن حل بالأبلق. يريد بالأبلق: القصر الظاهري الذي بالميدان الأخضر مدينة دمشق؛ ومن
أمثلة هذا الباب قول ابن حيوس الدمشقي:

إن ترد علم حالهم عن يقين فالقهم يوم نائل أو قتال
تلق بيض الوجوه سود مثار النـ قع خضر الأكناف حمر النضال

وأما الموجه - فهو الذي يمدح بشيء يقتضي المدح بشيء آخر، كقول المتنبي:

نهبت من الأعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بأنك خالد

وكقوله أيضاً:

عمر العدو إذا لاقاه في رهج أقل من عمر ما يحوى إذا وهبا

فأول البيتين وصفٌ بفرط الشجاعة، وآخر الأول بعلو الدرجة، وآخر الثاني بفرط الجود.
وأما تشابه الأطراف - فهو أن يجعل الشاعر قافية بيته الأول أول البيت الثاني، وقافية
الثاني أول الثالث، وهكذا إلى انتهاء كلامه، ومن أحسن ما قيل فيه قول ليلى الأخيلية
تمدح الحجاج:

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها فرواها بشرب سجالها دماء رجال يحلبون صراها

هذا ما أورده في حسن التوسل من علوم المعاني والبيان والبديع، وقد أتينا على أكثره
بنصه لما رأيناه من حسن تأليفه، وبديع ترصيفه، وأن اختصاره لا يمكن إلا عند الإخلال
بفائدة لا يستغنى عنها فلم نحذف منه إلا ما تكرر من الأمثلة والشواهد، لاستغنائنا بما

أوردناه عما حذفناه، فالنسبة فيه إلى فضائله وفضله والعمدة على شواهده ونقله؛ فلقد
أحسن التأليف، وأجاء التعريف، واحتمل التوقيف؛ وحر الشواهد، وأوضح السبيل حتى
صار الغائب عن هذه الصناعة إذا طالع كتابه كالشاهد؛ وأبدع في صناعة البديع، وبين علم
البيان بحسن الترصيف والترصيع؛ واعتنى بألفاظ المعاني فصرف أعنتها ببنانه، وأبان
مشكلها فأحسن في بيانه؛ وحلّ من التعقيد عقالها الذي عجز غيره عن حله، وسهّل
للأفهام مقالها فأبرزته الألسنة من محرم اللفظ إلى حله، فله المنة فيما ألف، والفضل بما
صنف.
وأما ما يتصل بذلك من خصائص الكتابة - فالاقتباس والاستشهاد والحل:
فالاقتباس هو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث، ولا ينبه عليه للعلم به، كما في
خطب ابن نباتة، كقوله: فيا أيها الغفلة المطرقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون؟ مالك لا
تشفقون؟ "فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون" وكقوله أيضاً: يوم يبعث
الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لجهنم وقودا، يوم تكونون "شهداء على الناس
ويكون الرسول عليكم شهيداً" "يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت
من سوءٍ تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً"
ومن ذلك ما أورد المولى شهاب الدين محمود في تقليد عن الإمام الحاكم بأمر الله أبي
العباس أحمد بالسلطنة، جاء منه: وجمع بك شمل الأمة بعد أن "كاد يزيغ قلوب فريق منهم"
وعضدك لإقامة إمامته بأولياء دولتك الذين رضى الله عنهم؛ وخصك بأنصار دينه الذين
نهضوا بما أمروا به من طاعتك وهم فارهون، وأظهرك على الذين "ابتغوا الفتنة من قبل
وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون" وأمثال ذلك.
وأما الاستشهاد بالآيات - فهو أن ينبه عليها، كقول الحريري: فقلت وأنت أصدق القائلين:
"وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين" ونحو ذلك.
وفي الأحاديث بالتنبيه عليها أيضاً، كقول المولى شهاب الدين محمود في خطبة تقليد

حاكمي: ونصلي على سيدنا محمد الذي استخرجه الله من عنصر أهله وذويه، وشرف
قدر جده بقوله فيه: "إن عم الرجل صنو أبيه" وسره بما أسر إليه من أن هذا الأمر فتح به
ويختم ببنيه. وأمثال ذلك لا تحصر.
وأما الحل - وهو باب متسع المجال، وملاك أمر المتصدي له أن يكون كثير الحفظ
للأحاديث النبوية والآثار والأمثال والأشعار لينفق منها وقت الاحتياج إليها.
قال: وكيفية الحل أن يتوخى هدم البيت المنظوم، وحلّ فرائده من سلكه، ثم يرتب تلك
الفرائد وما شابهها ترتيب متمكن لم يحصره الوزن، ويبرزها في أحسن سلك، وأجمل قالب،
وأصح سبك، ويكملها بما يناسبها من أنواع البديع إن أمكن ذلك من غير كلفةٍ، ويتخير لها
القرائن، وإذا تم معه المعنى المحلول في قرينة واحدة يغرم له من حاصل فكره، أو من ذخيرة
حفظه ما يناسبه، وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما شاء، فإن كان نسيباً وتأتى له أن
يجعله مديحاً فليفعل، وكذلك غيره من الأنواع؛ وإذا أراد الحل بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبةً
لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنها، فمتى قصرت عنها ولو بلفظة واحدة فسد ذلك
الحل وعدّ معيباً، وإذا حلّ باللفظ فلا يتصرف بتقديم ولا تأخير ولا تبديل إلا مع مراعاة
نظام الفصاحة في ذلك، واجتناب ما ينقص المعنى ويحط رتبته؛ وهذا الباب لا تنحصر
المقاصد فيه، ولا حجر على المتصرف فيه.
قال: ومما وقع التصرف فيه بزيادة على المعنى قول ضياء الدين بن الأثير الجزري في ذكر
العصا التي يتوكأ عليها الشيخ الكبير: وهذه لمبتدأ ضعفي خير، ولقوس ظهري وتر، وإذا
كان إلقاؤها دليلاً على الإقامة فإن حملها دليل على السفر.
والمحلول في ذلك قول بعضهم:
كأنني قوس رامٍ وهي لي وتر
وقول الآخر:
فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر
وأما ما يحتاج فيه إلى مؤاخاة القرينة المحلولة بمثلها أو ما يناسبها فكما قال المولى شهاب
الدين محمود في تقليد:

فكم مل ضوء الصبح مما يغيره، وظلام النقع مما يثيره، وحديد الهند مما يلاطمه والأجل مما
يسابقه إلى قبض الأرواح ويزاحمه.
والقرينتان الأوليان نصفا بيتين للمتنبي، فأضاف إلى كل قرينة ما يناسبها، وهذا من أكثر ما
يستعمل في الكتابة، ولا ينبغي للكاتب أن يعتمد في جميع كاتبه على الحل، فيتكل خاطره
على ذلك، ويذهب رونق الطبع السليم، وتقل مادة الانسجام، بل يكون استعمال ذلك
كاستعمال البديع إذا أتى عفواً من غير تكلف ليكون كالشاهد على صحة الكلام، والدال
على الاطلاع، وكالرقم في الثوب، والشذرة في القلادة والواسطة في العقد، إذ لا ينبغي
للكاتب أن يخلى كلامه من نوع من أنواع المحاسن.
ويقرب من هذا النوع التلميح، وقد تقدم ذكره في بعض أبواب البديع، والذي يقع في بعض
استعماله في مثل ذلك مثل قول الحريري: وإني والله لطالما لقيت الشتاء بكافاته، وأعددت
الأهبة له قبل موافاته. يشير إلى بيتي ابن سكرة:
جاء الشتاء وعندي من حوائجه
وهي مشهورة.
فإذا عرف الكاتب هذه العلوم، وأتى الصناعة من هذه الأبواب تعين عليه أمور أخر
نذكرها الآن.
ما يتعين على الكاتب استعماله
والمحافظة عليه والتمسك به وما يجوز في الكتابة وما لا يجوز
قال إبراهيم بن محمد الشيباني: فإن احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء
والكتاب والأدباء والخطباء والشعراء وأوساط الناس وسوقتهم، فخاطب كلا على قدر
أبهته وجلالته، وعلوه وارتفاعه، وفطنته وانتباهه، ولكل طبقة من هذه الطباق معان
ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إياهم في كتبك، وتزن كلامك في مخاطبتهم
بميزانه، وتعطيه قسمته، وتوفيه نصيبه، فإنك متى أهملت ذلك وأضعته لم آمن عليك أن
تعدل بهم عن طريقهم، وتسلك بهم غير مسلكهم، وتجرى شعاع بلاغتك في غير مجراه،
وتنظم جوهر كلامك في غير سلكه، فلا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظاً لائقاً بمن
كاتبته، وملامساً لمن راسلته، فإن إلباسك المعنى - وإن صح وشرف - لفظاً مختلفاً عن

قدر المكتوب إليه لم تجربه عادته تهجينٌ للمعنى وإخلالٌ بقدره، وظلم يلحق المكتوب إليه،
ونقص ما يجب له، كما أن في اتباع تعارفهم، وما انتشرت به عادتهم، وجرت به سنتهم،
قطعاً لعذرهم، وخروجاً من حقوقهم، وبلوغاً إلى غاية مرادهم، وإسقاطاً لحجة أدبهم.
وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه: فامتثل هذه المذاهب، واجر على هذا القوام، وتحفظ
في صدور كتبك وفصولها وافتتاحها وخواتهما، وضع كل معنى في موضع يليق به، وتخير
لكل لفظة معنى يشاكلها، وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكر البلوى بمثل: "نسأل الله
دفع المحذور، وصرف المكروه" وأشباه ذلك؛ وفي موضع ذكر المصيبة: "إنا لله وإنا إليه
راجعون"؛ وفي موضع ذكر النعمة: "الحمد لله خالصاً، والشكر لله واجباً" وما يشاكل ذلك،
فإن هذه المواضع مما يتعين على الكاتب أن يتفقده ويتحفظ منه، فإن الكاتب إنما يصير كاتباً
بأن يضع كل معنى في موضعه، ويعلق كل لفظة على طبقتها في المعنى.
قال: واعلم أنه لا يجوز في الرسائل استعمال ما أتت به آي القرآن من الاختصار والحذف،
ومخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاص، لأن الله تعالى إنما خاطب بالقرآن قوماً فصحاء فهموا
عنه - جل ثناؤه - أمره ونهيه ومراده، والرسائل إنما يخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لا
علم بلسان العرب؛ وكذلك ينبغي للكاتب أن يتجنب اللفظ المشترك، والمعنى الملتبس، فإنه
إن ذهب ليكاتب على معنى قول الله تعالى: "واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا
فيها" وكقوله تعالى "بل مكر الليل والنهار" احتاج أن يبين أن معناه: اسأل أهل القرية، وأهل
العير، وبل مكركم بالليل والنهار؛ قال: وكذلك لا يجوز أيضاً في الرسائل والبلاغات المنثورة
ما يجوز في الأشعار الموزونة، لأن الشاعر مضطر، والشعر مقصور مقيد بالوزن والقوافي،
فلذلك أجازوا لهم صرف ما لا ينصرف من الأسماء، وحذف ما لا يحذف منها، واغتفروا
فيه سوء النظم، وأجازوا فيه التقديم والتأخير، والإضمار في موضع الإظهار، وذلك كله
غير سائغ في الرسائل، ولا جائز في البلاغات؛
فمما أجيز في الشعر من الحذف قول الشاعر:

قواطناً مكة من ورق الحما
يريد الحمام، وكقول الآخر:
صفر الوشاحين صموت الخلخل
يريد الخلخال، وكقول الحطيئة:
فيها الرماح وفيها كل سابغة جدلاء مسرودةٍ من فعل سلام
يريد سليمان وكقول الآخر:
وسائلةٍ بثعلبة بن سبر وقد علقت بثعلبة العلوق
يريد ثعلبة بن سبار، وكقول الآخر:
فلست بآيته ولا أستطيعه ولاك اسقني إن كان ماؤك ذا فضل
أراد ولكن قال: وكذلك لا ينبغي في الرسائل أن يصغر الاسم في موضع التعظيم وإن كان
ذلك جائزاً، مثل قولهم: دويبهيةٌ تصغير داهية، وجذيلٌ وعذيقٌ، تصغير جذلٍ وعذقٍ. قال
لبيد:
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهيةٌ تصفر منها الأنامل
قال: فتخير في الألفاظ أرجحها وزناً، وأجزلها معنى، وأشرفها جوهراً وأكرمها حسباً،
وأليقها في مكانها، وأدر الكلام في أماكنه، وقلبه على جميع وجوهه، ولا تجعل اللفظة قلقة
في موضعها، نافرةً عن مكانها، متى فعلت ذلك هجنت الموضع الذي حاولت تحسيه،
وأفسدت المكان الذي أردت إصلاحه فإن وضع الألفاظ في غير أماكنها، والقصد بها إلى
غير مظانها، إنما هو كترقيع الثوب الذي إن لم تتشابه رقاعه، ولم تتقارب أجزاؤه، خرج عن
حد الجدة، وتغير حسنه، كما قال الشاعر:
إن الجديد إذا ما زيد في خلق يبين للناس أن الثوب مرقوع
انتهى ما أورده ابن عبد ربه.
وقال المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبي: ومما يتعين على الكاتب استعماله، والمحافظة
عليه، والتمسك به، إعطاء كل مقام حقه، فإذا كتب في أوقات الحروب إلى نواب الملك
عنه، وإلى مقدمي الجيوش والسرايا، فليتوخ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالة على القصد من
غير تطويل ولا بسط يضيع المقصد، ويفصل الكلام بعضه من بعض، ولا تهويل لأمر العدو
يضعف به القلوب، ولا تهوينٍ لأمر يحصل به الاغترار. وذكر لذلك أمثلة من إنشائه.
قال: فمن ذلك صورة كتاب أنشأته إلى مقدم سرية كشفٍ - ولم أكتب به - وهو:

لازال أخف في مقاصده من وطأة ضيف، وأخفى في مطالبة من زورة طيف، وأسرع في
تنقله من سحابة صيف، وأروع للعدا في تطلعه من سلة سيف، حتى يعجب عدو الدين في
الاطلاع على عوراته من أين دهي وكيف؟ ويعلم أن من أول قسمته اللقاء حصل عليه في
مقاصده الحيف؛ أصدرناها إليه نحثه على الركوب بطائفة أعجل من السيل، وأهول من
الليل، وأيمن من نواصي الخيل؛ وأقدم من النمر، وأوقع على المقاصد من الغيث المنهمر،
وأروغ في مخاتلة العدا من الذئب الحذر؛ على خيل تجري ما وجدت فلاه، وتطيع راكبها
مهما أراد منها سرعةً أو أناة، تتنسم الحبال الصم كالوعل، وإذا جارتها البروق غدت
وراءها
"تمشي الهوينا كما يمشي الوجى الوجل" وليكن كالنجم في سراه، وبعد ذراه؛ إن جرى
فكسهم، وإن خطر فكوهم؛ وإن طلب فكالليل الذي هو مدرك، وإن طلب فكالجنة التي
لا يجد ريحها مشرك؛ حتى يأتي على عدو من كل شرف، ويرى جمعه من كل طرف، ولا
يسرف في الإقامة عليه إلا إذا علم أن الخير في السّرف؛ وليحرز جمعهم، ويسبق إلى
التحرّز منهم بصرهم وسمعهم؛ وينظرهم بعين منعها الحزم أن ترى العدد الكثير قليلاً،
وصدّها العزم أن ترى العدوّ الحقير جليلاً؛ بل ترى الأمر على فصه، وتروي الخبر على
نصه؛ وإن وجد مغرراً فليأخذ خبره، إن قدر على الإتيان بعينه وإلا فليذهب أثره؛ ولا
يهيج فيما لديه نار حرب إلا بعد الثقة بإطفائها، ولا يوقظ عليه عين عدو مهما ظهر له أن
المصلحة في إغفائها؛ وليكشف من أمورهم ما يبدي عند الملتقى عورتهم، ويخمد في حالة
الزحف فورتهم؛ وليجعل قلبه في ذلك ربيئة طرفه، وطليعة طرفه، وسرية كشفه والله تعالى
يمده بلطفه، ويحفظه بمعقبات من بين يديه ومن خلفه.
وإذا كتب عن الملك في أوقات حركات العدو إلى أهل الثغور يعلمهم بالحركة للقاء العدو،
فليبسط القول في وصف العزائم، وقوة الهمم، وشدة الحمية للدين، وكثرة العساكر
والجيوش، وسرعة وطي المراحل، ومعالجة العدو، وتخييل أسباب النصر، والوثوق بعوائد

الله في الظفر، وتقوية القلوب منهم، وبسط آمالهم، وحثهم على التيقظ، وحضهم على
حفظ ما بأيديهم، وما أشبه ذلك، ويبرزه في أمتن كلام وأجله وأمكنه، وأقربه من القوة
والبسالة، وأبعده من اللين والرقة، ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى، واستنزال نصره
وتأييده، والرجوع إليه في تثبيت الأقدام، والاعتصام به في الصبر، والاستعانة به على العدو،
والرغبة إليه في خذلانهم، وزلزلة أقدامهم، وجعل الدائرة عليهم، دون التصريح بسؤال بطلان
حركتهم، ورجاء تأخرهم، وانتظار العرضيات في خلفهم، لما في ذلك من إبهام الضعف عن
لقائهم واستشعار الوهن والخوف منهم، وليسلك في مثل ذلك كما سلك المولى شهاب الدين
محمود في نحو ما كتب في صدر كتاب سلطاني إلى بعض نواب الثغور عند حركة العدو،
فإنه قال:
أصدرناها ومنادي النفير قد أعلن: يا خيل الله اركبي، ويا ملائكة الرحمن اصحبي ويا
وفود الظفر والتأييد اقربي؛ والعزائم قد ركضت على سوابق الرعب إلى العدا والهمم قد
نهضت إلى عدو الإسلام فلو كان في مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى؛
والسيوف قد أنفت من الغمود فكادت تنفر من قربها، والأسنة قد ظمئت إلى موارد
القلوب فتشوقت إلى الارتواء من قلبها؛ والكماة قد زأرت كالليوث إذا دنت من فرائسها،
والجياد قد مرحت لما عودتها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسها؛ والجيوش قد كاثرت
النجوم أعدادها، وسايرتها للهجوم على أعداء الله من ملائكة الكرام أمدادها؛ والنفوس قد
أضرمت الحمية نار غضبها، وعداها حر الإشفاق على ثغور المسلمين عن برد الثغور
وطيب شنبها، والنصر قد أشرقت في الوجود دلائله، والتأييد قد ظهرت على الوجوه
مخايله، وحسن اليقين بالله في إعزاز دينه قد أنبأت بحسن المآل أوائله؛ والألسن باستنزال
نصر الله لهجه والأرجاء بأرواح القبول أرجه، والقلوب بعوائد لطف الله بهذه الأمة مبتهجه
والحماة وما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه، والأبطال وليس فيهم من يسأل

عن عدو بل عن مكانه؛ والنيات على طلب عدو الله حيث كان مجتمعه والخواطر مطمئنةٌ
بكونها مع الله بصدقها، ومن كان مع الله كان الله معه؛ وما بقي إلا طي المراحل، والنزول
على أطراف الثغور نزول الغيث على البلد الماحل؛ والإحاطة بعدو الله من كل جانب،
وإنزال نفوسهم على حكم الأمرين الأمرّين: من عذاب واصب، وهمّ ناصب؛ وإحالة
وجودهم إلى العدم، وإجالة السيوف التي إن أنكرتها أعناقهم فما بالعهد من قدم؛
واصطلامهم على أيدي العصابة المؤيدة بنصر الله في حربها، وابتلائهم من حملاتها بريح عادٍ
التي تدمر كل شيء بأمر ربها؛ فليكن مرتقباً لطلوع طلائعها عليه، متيقناً من كرم الله
استئصال عدوه الذي إن فر أدركته من ورائه، وإن ثبت أخذته من بين يديه؛ وليجتهد فبه
حفظ ما قبله من الأطراف وضمها، وجمع سوام الرعايا من الأماكن المتخوفة ولمها،
وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرفة ورمها، فإن الاحتياط على
كل حال من آكد المصالح الإسلامية وأهمها؛ فكأنه بالعدو وقد زال طمعه، وزاد ظلعه؛ وذم
عقبى مسيره، وتحقق سوء منقلبه ومصيره، وتبرأ منه الشيطان الذي دلاه بغروره، وأصبح
لحمه موزعاً بين ذئاب الفلا وضباعها، وبين عقبان الجو ونسوره؛ ثقةً من وعد الله الذي
تمسكنا منه باليقين، وتحققنا أن الله ينصر من ينصره وأن العاقبة للمتقين.
قال: وزيادة البسط في ذلك ونقصها بحسب المكتوب إليه.
وإذا كتب في التهاني بالفتوح، فليس إلا بسط الكلام، والإطناب في شكر نعم الله، والتبرؤ
من الحول والقوة إلا به، ووصف ما أعطى من النصر، وذكر ما منح من الثبات، وتعظيم ما
يسر من الفتح؛ ثم ما وصف بعد ذلك من عزمٍ وإقدامٍ وصبرٍ وجلد عن الملك وعن جيشه
حسن وصفه، ولاق ذكره، وراق التوسيع فيه، وعذب بسط الكلام فيه؛ ثم كلما اتسع مجال
الكلام في ذكر الواقعة ووصفها كان أحسن وأدل على البلاغة، وأدعى لسرور المكتوب
إليه، وأحسن لموقع المنة عنده، وأشهى إلى سمعه، وأشفى لغليل تشوقه إلى معرفة الحال

على جليته، ولا بأس بتهويل أمر العدو، ووصف جمعه وإقدامه، فإن تصغير أمره تحقيرٌ
للظفر به؛ وقد ذكرنا في باب التهاني من ذلك ما تقدم شرحه، فلنذكر في هذا الموضع من
كلامه فيه ما لم نورده في باب التهاني؛ قال: وإن كان المكتوب إليه ملكاً صاحب مملكة
منفردة تعين أن يكون البسط أكثر، والإطناب أمد، والتهويل أبلغ، والشرح أتم؛ فمن ذلك
فصلٌ كتبته في جواب ابن الأحمر صاحب غرناطة من جزيرة الأندلس، قال:
أما بعد حمد الله الذي أيدنا بجنوده، وأنجز لنا من نصر الأمة صادق وعوده وخصنا من
استدامة الفتوح بمزايا مزيده، وأيدنا بنصره، ونصرنا بتأييده والصلاة والسلام على سيدنا
محمد أشرف رسله، وخاتم أنبيائه، وأكرم عبيده، وأعز من دعا الأمم وقد أنكرت خالقها
إلى الإقرار بتوحيده، وعلى آله وصحبه الذين أشرق أفق الدين منهم بكواكب سعوده؛ فإنا
أصدرناها ونعم الله تعالى بنا مطيفه، ومواقع نصره عندنا لطيفه، وجنود تأييده لممالك
الأعداء إلى ممالكنا الشريفة مضيفه، وثغور الإسلام بذبنا عن دين الله منيره، وبإعلائنا منار
الهدى منيفه؛ ونحن نحمد الله على ذلك حمداً نستدر به أخلاف الظفر، ونستديم به مواد
التأييد على من كفر؛ ونستمد به عوائد النصر التي كم أقدمها علينا إقدام، وأسفر لنا عنها
وجه سفر؛ ونهدي إليه ثناءً تعبق بنشر الرياض خمائله، وتنطق بمحض الوداد مخايله،
وتشرق على أفق مفاخره غدواته وأصائله؛ يشافه مجده بمصونه، ويصارح فخره بمكنونه،
ويجلو على حضرته العلية عقائل الشرف من أبكار الهناء وعونه؛ ونبدي لعلمه الكريم ورود
كتابه الجليل مسفراً عن لوامع صفائه، منبئاً بجوامع وده ووفائه؛ مشرقاً بلآلىء فرائده، محدقاً
بروض كرمه الذي سعد رأي رائده، محتوياً على سروره بما بلغه من أنباء النصرة التي
سارت بها إليه سرعان الركبان، وذلت بعز ما تلي منها عليه عباد الصلبان؛ وطبّق ذكرها
المشارق والمغارب، ومزقت مواكب أعداء الله التتار وهم في رأي العين أعداد الكواكب،
وخلطت التراب بدمائهم حتى لم يبح بها التيمم، ومزجت بها الفرات حتى ما تحل لشارب؛

وهي النصرة التي لا يدرك الوصف كنهها، ولا تعرف لها البلاغة مشبهاً فتذكر شبهها؛ ولا
يتسع نطاق النطق لذكرها، ولا تنهض الألسنة على طول الأبد بشكرها؛ فإن التتار
المخذولين أقبلوا كالرمال، واصطفوا كالجبال؛ وتدفقوا كالبحار الزواخر، وتوالوا كالأمواج التي
لا يعرف لها الأول من الآخر؛ فصدمتهم جيوشنا المنصورة صدمةً بددت شملهم، وعلمت
الطير أكلهم؛ وحصرتهم في الفضاء، وطالبت أرواحهم الكافرة بدين دينها وأسرفت في
الاقتضاء؛ وحصدت منهم سيوفنا المنصورة ما يخرج عن وصف الواصف، ومزقت بقيتهم
في الفلوات فكانوا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف؛ وأحاطت بهم كتائبنا المنصورة
فلم ينج إلا من لا يؤبه له من فريقهم، وقسمتهم جيوشنا المؤيدة من الفلوات إلى الفرات بين
القتل والأسر، فلم يخرج عن تلك القسمة غير غريقهم؛ وأعقبتهم تلك الكسرة أن هلك
طاغيتهم أسفاً وحسره، وحزناً على من قتل من تلك المقاتلة، وأسر من تلك الأسره، وأماته
الرعب من جيوشنا المنصورة فجاءه، واستولى عليه الوجل فجاءه من أمر الله ما جاءه؛
وقعد أخوه بعده مكانه، والخوف من عساكرنا يضعضع أركانه، والفرق من جيوشنا يفرق
أعوانه، ويمزق إخوانه، ويوهي سلطانه ويبرئ منه شيطانه؛ فلاذ بالالتجاء إلى سلمنا، وعاذ
بإسناد الرجاء إلى كفنا عنه وحلمنا؛ فكرر رسله ورسائله مستعطفاً، ووالى كتبه ووسائله
مستعفياً من حربنا ومستسعفاً؛ وها هو الآن وجنوده يتوسلون بالخضوع إلى مراحمنا،
ويتوصلون ببذل الطاعة إلى مكارمنا؛ ويسألون صفح الصفاح الإسلامية عن رقابهم،
ويبدون ما أظهره الله عليهم من الذل الذي جعلته تلك النصرة خالداً في أعقابهم؛ وسيوفنا
تأبى قبول وسائلهم، وتصر على نهر سائلهم، وتمنع من الكف عن مقاتلهم، وتأنف أن تغمد
إلا في قمم محاربهم ومقاتلهم؛ ونحن على ما نحن من الأهبة لغزوهم في عقر دارهم، وانتزاع
مواطن الخلافة وغيرها من ممالك الإسلام من بين نيوبهم وأظفارهم، مستنصرين بالله على
من بقي في خط المشرق منهم، قائمين فيهم بفرض الجهاد الذي لولا دفاع الله به لم يمتنع خط

المغرب عنهم؛ "ولينصرن الله من ينصره" ولو عددنا نعم الله علينا حاولنا عدّ ما لا نحصيه
ولا نحصره.
وإن اضطر أن يكتب بمثل ذلك إلى ملك غير مسلم لكنه غير محارب، فالحكم في ذلك أن
يذكر من أسباب المودة ما يقتضي المشاركة في المسار، وأن أمر هذا العدد مع كثرته أخذ
بأطراف الأنامل، وآل أمره إلى ما آل، ويعظم ذكر ما جرى عليه من القتل والأسر، وتلك
عوائد نصر الله، وانتقامه ممن عادانا؛
فمن ذلك ما أشنأه المشار إليه لبعض ملوك البحر - ولم يكتب به - وهو:
صدرت هذه المكاتبة مبشرةً بما منحنا الله من نصرة أجزل الصفاء منها سهمه، وأكمل
الوفاء من التهنئة بها قسمه؛ وخصه الوداد بأجل أجزائها، وأجلسه الاتحاد على أسرة
مسرتها إذا أجلس العناد غيره على بساط عزائها؛ علماً بأنه الصديق الذي تبهجه مسار
صديقه، والصاحب الذي يرى مساهمة صاحبه في بشرى الظفر بأعدائه أدنى حقوقه؛
وذلك أنه قد علم ما كان من أمر هؤلاء التتار في حركاتهم الذميمة، وعزماتهم التي ما
اختلفوا لها إلا وكان أحد سلاحهم فيها الهزيمة، وغاراتهم التي ما حشدوا لها إلا وقنعوا
فيها بالإياب من الغنيمة؛ وأنهم ما أقدموا علينا إلا وعدموا، ولا سلكوا إلينا إلا وهلكوا؛
حتى إن الأرض إلى الآن لم تجف من دمائهم، وإن الفرات يكاد يشف للمتأمل عن أشلائهم؛
وأن الشيطان يعد ذلك جدد طمعهم، وسكن هلعهم، وأنساهم مصارع إخوانهم،
وأسلاهم بما زين لهم من بلوغ أوطارهم عن أوطانهم؛ وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من
الناس، وتلك الوقائع التي أصبتم فيها قد لا يجري الأمر فيها على القياس؛ وحسن لهم المحال
وغرهم وجرأهم على قصد البلاد المحروسة، وفي الحقيقة استجرهم؛ فحشدوا جموعهم
وجمعوا حشودهم، واستفرغوا في الاستنفار والاشتظهار طاقتهم ومجهودهم؛ ومالأهم على
ذلك من المجاورين من أبطن شقاقه، وكتم نفاقه، وأنساه الشيطان ما سلف من تنفيسنا عنه
وقد لازم الحتف خناقه؛ ونحن في ذلك نوسعهم إمهالاً، ونبسط لهم في التوغل آمالاً، ونأخذ

أمرهم بالأناة استدراجاً لهم لا إهمالاً؛ إلى أن بعدوا عن مواطن الهرب، وحصل من
استدراجهم الأرب، فوثبنا عليهم وثوب الليث إذا ظفر بصيده، ونهضنا نحوهم نهوض
الحازم إذا وقع عدوه في أحبولة كيده؛ وصدمتهم جيوشنا المنصورة صدمةً فللت غربهم،
وأبطلت طعنهم وضربهم، وصبغت بدمائهم تربهم؛ وحكّمت السيوف في مقاتلهم،
ومكنت الحتوف من صاحب رأيهم ومقاتلهم؛ وسلطت العدم على وجودهم، وحطتهم عن
سروجهم إلى مصارعهم أو قيودهم؛ "فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين" وعادوا على
عادتهم خاسئين، ورجعوا على أعقابهم خاسرين؛ وما أغنى عنهم جمعهم، وما أفادهم
بصرهم فيما شاهدوه من قبل ولا سمعهم؛ فركن من بقي منهم إلى الفرا، وعاذ ببرد الهرب
من لهب تلك السيوف الحرار وظن من انهزم منهم أنه فات الرماح، فتناولته بأرماح من
العطش القفار؛ فولوا والرعب يزلزل أقدامهم، والذعر يقلل إقدامهم؛ والصفاح تتخطفهم من
ورائهم والجراح تطمع الطير في أكلهم حتى تقع على أحيائهم؛ حتى أصبحوا هشيماً تلعب
بهم الصبا والدبور، أو أحياءً يئس منهم أهلهم "كما يئس الكفار من أصحاب القبور"
وصفحنا عمن نافقنا ووافقهم ولولا ذلك لما نجا، ورجا عواطفنا في الإبقاء على نفسه،
فأجابه حلمنا - وعلمنا أنه في القبضة - إلى ما رجا، فليأخذ الملك حظه من هذه
البشرى التي تسر قلب الولي المحب بوادرها، وتشرح صدر الحفي المحق مواردها
ومصادرها؛ والله تعالى يبهجه عنا بسماع أمثالها، ويديم سروره بما جلوناه عليه من
مثالها.
قال: فإن كان المكتوب إليه متهماً بممالأة العدو كتب إليه بما يدل على التفريع والتهكم،
وإبراز التهديد في معرض الإخبار، كما كتب المشار إليه عن السلطان إلى ممتلك سيس -
وكان قد شهد الوقعة مع العدو - قال منه:
بصره الله برشده، وأراه مواقع غيه في الإصرار على مخالفته ونقض عهده وأسلاه بسلامة
نفسه عمن روعته السيوف الإسلامية بفقده، صدرت تعرفه أنه قد تحقق ما كان من أمر

العدو الذي دلاه بغروره، وحمله التمسك بخداعه على مجانبة الصواب في أموره؛ وأنهم
استنجدوا بكل طائفة، وأقدموا على البلاد الإسلامية بنفوس طامعة وقلوب خائفة؛ وذلك
بعد أن أقاموا مدة يشترون المخادعة بالموادعة، ويشرون المصارمة في المسالمة؛ ويظهرون في
الظاهر أموراً، ويدبرون في الباطن أموراً، ويعدون كل طائفة من أعداء الدين مثله ويمنونهم
"وما يعدهم الشيطان إلا غروراً"؛ وكنا بمكرهم عالمين، وعلى معالجتهم عاملين، وحين تبين
مرادهم وتكمل احتشادهم؛ استدرجناهم إلى مصارعهم، واستجريناهم ليقربوا في القتل
من مضاجعهم، ويبعدوا في الهرب عن مواضعهم؛ وصدمناهم بقوة الله صدمة لم يكن بها
قبل، وحملنا عليهم حملةً ألجأهم طوفانها إلى ذلك الجبل، وهل تعصم من أمر الله حيل؟
فحصرناهم في ذلك الفضاء المتسع، وضايقناهم كما قد رأى ومزقناهم كما قد سمع،
وأنزلناهم على حكم السيف الذي نهل من دمائهم حتى روي وأكل من لحومهم حتى شبع،
وتبعتهم جيوشنا المنصورة تتخطفهم رماحها، وتتلقفهم صفاحها، ويبددهمفي الفلوات
رعبها، ويفرقهم في القفار طعنها المتدارك وضربها؛ ويقتل من فات السيوف منهم العطش
والجوع، ويخيل للحي منهم أن وطنه كالدنيا التي ليس للميت إليها رجوع؛ ولعله قد رأى
ذلك فوق ما وصف عياناً، وتحقق من كل ما لا يحتاج أن نزيده به علماً ولا نقيم له عليه
برهاناً؛ وقد علم أن أمر هذا العدو المخذول مازال معنا على هذه الوتيرة، وأنهم ما أقدموا
إلا ونصر الله عليهم في مواطن كثيرة؛ وما ساقتهم الأطماع في وقتٍ إلا إلى حتوفهم، ولا
عاد منهم قط في وقعة إلا آحادٌ عن مصارع ألوفهم؛ ولقد أضاع الحزم من حيث لم يستدم
نعم الله عليه بطاعتنا التي كان في مهاد أمنها، ووهاد يمنها؛ وحماية عفوها، وبرد رأفتها التي
كدرها بالمخالفة بعد صفوها؛ يصون رعاياه بالطاعة عن القتل والإسار، ويحمي أهل ملته
بالجذر م الحركات التي ما نهضوا إليها إلا وجروا ذيول الخسار؛ ولقد عرّض نفسه وأصحابه
لسيوفنا التي كان من سطواتها في أمان، ووثق بما ضمن له التتار من نصره وقد رأى ما آل

إليه أمر ذلك الضمان؛ وجر لنفسه بموالاة التتار عناءً كان عنه في غنى، وأوقع روحه
بمظافرة المغول في حومة السيوف التي تخطفت أولياءه من هنا ومن هنا؛ واقتحم بنفسه
موارد هلاك سلبت رداء الأمن عن منكبيه واغتر هو وقومه بما زين لهم الشيطان من
غروره "فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه" وما هو والوقوف في هذه المواطن التي تتزلزل
فيها أقدام الملوك الأكاسرة وأنى لضعاف النقاد قدرةٌ على الثبات لوثبات الأسود الضارية
والليوث الكاسره؛ لقد اعترض بين السهم والهدف بنحره، وتعرض للوقوف بين ناب الأسد
وظفره؛ وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوق أسلافه التي ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة
آبائه التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في الوصول إليها؛ ونجريه وأهل بلاده مجرى أهل ذمتنا الذين
لا نؤيسهم من عفونا مهما استقاموا، ونسلك بهم حكم من في أطراف البلاد من راعايانا
الذين هم في قبضتنا نزحوا أو أقاموا؛ ونحن نتحقق أنه ما بقي ينسى ملازمة ربقة الحتف
خناقه، ولا يرجع يهور نفسه في موارد الهلاك، وهل يرجع إلى الموت من ذاقه؟ فيستدرك
باب الإنابة قبل أن يغلق دونه، ويصون نفسه وأهله قبل أن تبذل السيوف الإسلامية مصونه،
ويبادر إلى الطاعة قبل أن يبذلها فلا تقبل، ويتمسك بأذيال العفو قبل أن ترفع دونه فلا
تسبل؛ ويعجل بحمل أموال القطيعة وإلا كان أهله وأولاده في جملة ما يحمل منها إلينا،
ويسلم مفاتح ما عدا عليه من فتوحنا، وإلا فهو يعلم أنها وجميع ما تأخر في بلاده بين يدينا؛
ويكون هو السبب في تمزق شمله، وتفرق أهله، وقلع بيته من أصله؛ وهدم كنائسه، وابتذال
نفسه ونفائسه؛ واسترقاق حرمه، واستخدام أولاده قبل خدمه؛ واقتلاع قلاعه، وإحراق
ربوعه ورباعه، وتعجيل رؤية ما أوعد به قبل سماعه، ومن لقازان بأن يجاب إلى مثل ذلك،
أو يسمح له مع الأمن من سيوفنا ببعض ما في يده من الممالك؛ ليقنع بما أبقت جيوشنا
المؤيدة في يده من الخيل والخول، ويعيش في الأمن ببعض ما نسمح له به، ومن للعور بالحول؛
والسيوف الآن مصغيةٌ إلى جوابه لتكف إن أبصر سبل الرشاد، أو تتعوض برءوس حماته

وكماته عن الأغماد إن أصر على العناد، والخير يكون.
أما التقاليد والمناشير والتواقيع وما يتعلق بذلك - فالأحسن فيها بسط الكلام، وتعتبر
كثرته وقلته بحسب الرتب، ويجب أن يراعى فيها أمور:
منها براعة الاستهلال بذكر الرتبة أو الحال، أو قدر النعمة، أو لقب صاحب التقليد أو
اسمه بحيث لا يكون المطلع أجنبياً من هذه الأحوال، ولا بعيداً منها، ولا مبايناً لها، ثم
يستصحب ما سناسب الغرض ويوافق المقصد من أول الخطبة إلى آخرها؛ قال: ويحسن
أن يكون الكلام في التقليد منقسماً إلى أربعة أقسام متقاربة المقادير، فالربع الأول الخطبة،
والثاني ذكر موقع الإنعام في حق المقلد، وذكر الرتبة وتفخيم أمرها، والثالث في أوصاف
المقلد وذكر ما يناسب تلك الرتبة ويناسب حاله من عدل وسياسة ومهابةٍ وبعد صيت،
وسمعةٍ وشجاعةٍ إن كان نائباً، ووصف العدل والرأي وحسن التدبير، والمعرفة بوجوه
الأموال، وعمارة البلاد، وصلاح الأحوال، وما يناسب ذلك إن كان وزيراً؛ وكذلك في كل
رتبة بحسبها، والرابع في الوصايا؛
ومنها أن يراعي المناسبة وما تقتضيه الحال، فلا يعطي أحداً فوق حقه، ولا يصفه بأكثر مما
يراد من مثله، ويراعى أيضاً مقدار النعمة والرتبة، فيكون وصف المنة على مقدار ذلك.
ومنها أن لا يصف المتولي بما يكون فيه تعريضٌ بالمعزول وتنقص له، فإن ذلك مما يوغر
الصدور، ويؤرث الضغائن في القلوب، ويدل على ضعف الآراء في اختيار الأول، وله أن
يصف الثاني بما يحصل به المقصود من غير تعريض بالأول؛
ومنها أن يتخير الكلام والمعاني، فإنه مما يشيع ويذيع، ولا يعذر المقصر في ذلك بعجلة ولا
ضيق وقت، فإن مجال الكلام عليه متسع، والبلاغة تظهر في القليل والكثير، والأمر الجاري
في ذلك على العادة معروف، لكن تقع أشياء خارجةٌ عن العادة، نادرة الوقوع، فيحتاج
الكاتب فيها إلى حسن التصرف على ما تقتضيه الحال؛ فمن ذلك تقليدٌ من إنشاء المولى
الفاضل شهاب الدين محمود الحلبي كتبه لمملك سيس بإقراره على ما قاطع النهر من بلاده،
وهو:

الحمد لله الذي خص أيامنا الزاهرة باصطناع ملوك الملل، وفضّل دولتنا القاهرة بإجابة من
سأل بعض ما أحرزته لها البيض والأسل، وجعل من خصائص ملكنا بإطلاق الممالك
وإعطاء الدول، والمن بالنفوس التي جعلها النصر لنا من جملة الخول، وأغرى عواطفنا
بتحقيق رجاء من مد إلى عوارفنا كف الأمل، وأفاض بمواهب نعمائنا على من أناب إلى
الطاعة حلل الأمن بعد الوجل، وانتزع بآلائنا لمن تمسك بولائنا أرواح رعاياه من قبضة
الأجل، وجعل برد العفو عنه وعنهم بالطاعة نتيجة ما أذاقهم العصيان من حرارة الغضب،
إذ ربما صحت الأجسام بالعلل؛ نحمده على نعمه التي جعلت عفونا ممن رجاه قريباً، وكرمنا
لمن دعاه بإخلاص الطاعة مجيباً، وبرنا لمن أقبل إليه منيباً بوجه الأمل مثيباً، وبأسنا
مصيباً لمن لم يجعل الله له في التمسك بمراحمنا نصيباً؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له، شهادة تعصم دم من تمسك بذمامها، وتحسم مواد من عاندها بانتقام حسامها،
وتفصم عرا الأعناق ممن أكمعه الغرور في انفصال أحكامها وانفصامها، وتقصم من قصد
إطفاء ما أظهره الله من نورها، وانقطاع ما قضاه من دوامها، وتجعل كلمة حملتها هي العيا،
فلا تزال أعناق جاحديها في قبضة أوليائها وتحت أقدامها؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله
المبعوث بالهدى ودين الحق إلى كل أمه، المنعوت في الكتب المنزلة بالرأفة والرحمة،
المخصوص مع عموم بخمس منهن الرعب الذي كان يتقدمه إلى من قصده، ويسبقه مسيرة
شهر إلى أمه، المنصوص في الصحف المحكمة على جهاد أمته، الذي لا حياة لمن لم يتمسك
من طاعته بذمته؛ صلى الله عليه وآله وصحبه الذين فتحوا بدعوته الممالك، وأوضحوا
بشرعته إلى الله المسالك، وجلوا بنور سنته عن وجه الزمن كل حال حالك، وأوردوا من
كفر بربهم ورسله موارد المهالك، ووثقوا بما وعد الله نبيه حين زوى له مشارق الأرض
ومغاربها م أن ملكهم سيبلغ ما زوى الله له من ذلك؛ صلاةً لا تزال الأرض لها مسجداً،
ولا يبرح ذكرها مغيراً في الآفاق ومنجداً، ما استفتحت ألسنة الأسنة النصر بإقامتها،

وأبادت أعداءها باستدامتها، وسلم تسليماً كثيراً؛
وبعد، فإنه لما آتانا الله ملك البسيطه، وجعل دعوتنا بأعنة ممالك الأقطار محيطه؛ ومكن
لنا في الآفاق، وأنهضنا من الجهاد في سبيله بالسنة والفرض، وجعل كل يوم تعرض فيه
جيوشنا من أمثلة يوم العرض؛ وأظلتنا بوادر الفتوح، وأظلت على الأعداء سيوفنا التي هي
على من كفر بالله وكفر النعمة دعوة نوح وأيدنا بالملائكة والروح، على من جعل الواحد
سبحانه ثلاثةً فانتصر بالأب والابن والروح؛ وألقت إلينا ملوك الأقطار السلم، وبذلت كرائم
بلادها رغبة في الالتحاء من عفونا إلى ظل أعلى من علم؛ وتوسل من كان منهم يظهر
الغلظة بالذلة والخضوع وتوصل من كان منهم يبدي القوة بالإخلاص الذي رأوه لهم أقوى
الجنن وأوقى الدروع؛ عاهدنا الله تعالى ألا نرد منهم آملاً، ولا نصد عن مشارع كرمنا
ناهلاً؛ ولا نخيب من إحساننا راجياً، ولا نجلي عن ظل برنا لاجياً؛ علماً أن ذلك شكرٌ
للقدر التي جعلها الله لنا على ذلك الآمل، ووثوقاً بأنه حيث كان في قبضتنا كما نشاء نجمع
عليه الأنامل؛ إلا أن يكون ذلك اللاجئ للغل مسراً، وعلى عدواة الإسلام مصراً؛ فيكون
هو الجاني على نفسه، والجاثي على موضع رمسه؛ ولما كان من تقدم بالمملكة الفلانية قد
زين له الشيطان أعماله، وعقد بحبال الغرور آماله؛ وحسن له التمسك بالتتار الذين هم
بمهابتنا محصورون في ديارهم، مأسورون في حبائل إدبارهم؛ عاجزون عن حفظ ما لديهم،
قاصرون عن ضبط ما استلبته سرايانا المنصورة من يديهم؛ ليس منهم إلا من له عند
سيوفنا ثار، ومن يعلم أنه لابد له عندنا من خطتي خسف: إما القتل أو الإسار؛ وحين
تمادى المذكور في غيه، وحمله الغرور على ركوب جواد بغيه؛ أمرنا جيوشنا المنصورة
فجاست خلال تلك الممالك وداست حوافر خيلها ما هنالك، وساوت في عموم القتل
والأسر بين العبد والحر والمملوك والمالك؛ وألحقت رواسي جبالهم بالصعيد، وجعلت
حماتهم كزروع فلاتهم منها قائمٌ وحصيد؛ فأسلمهم الشيطان ومر، وتركهم وفر، وما كرهم

وما كر وأعلمهم أن الساعة موعدهم "والساعة أدهى وأمر"
وأخلفهم ما ضمن لهم من
العون وقال لهم: "إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون" وكان
الملك فلان ممن يريد طرق
النجاة فلم ير إليها بسوى الطاعة سبيلاً، ويأمل أسباب النجاح
فلم يجد عليها غير صدق
الانتماء دليلاً؛ فأبصر بالخدمة موضع رشده، وأدرك بسعيه نافر
سعده؛ وأراه الإقبال كيف
تثبت قدمه في الملك الذي زلت عنه قدم من سلف، وأظهر له
الإشفاق على رعاياه مصارع
من أورده سوء تدبير أخيه موارد التلف، وعرفه التمسك
بإحساننا كيف احتوت يده على
ما لم يبق غضبنا في يد أخيه منه إلا الأسى والأسف؛ وحسنت له
الثقة بكرمنا كيف
يجمل الطلب، وعلمته الطاعة كيف تستنزل عوارفنا عن بعض ما
غلبت عليه سيوفنا وإنما
الدنيا لمن غلب؛ وانتمى إلينا فصار من خدم أيامنا، وصنائع
إنعامنا، وقطع علائقه من
غيرنا؛ فلجأ منا إلى
ركن شديد، وظل مديد، ونصر عتيد؛ وحرمٍ يأوي آمله إليه، وكرمٍ
تقر نضارته ناظريه،
وإحسان يمتعه بما أقره عطاؤنا في يديه، وامتنان يضع عنه
إصره والأغلال التي كانت عليه؛
اقتضى إحساننا أن نغضي له عن بعض ما حلت جيوشنا ذراه
وحلت سطوات عساكرنا
عراه؛ وأضعفت عزمات سرايانا قواه، ونشرت طلائع جنودنا ما
كان ستره صفحنا عنهم
من عورات بلادهم وطواه؛ وأن نخوله بعض ما روت خيولنا
مناهله، ووطئت جيادنا غاربه
وكاله؛ وسلكت كماتنا فملكت دارسه وآهله؛ وأن نبقي مملكة
البيت الذي مضى سلفه في
الطاعة عليه، ويستمر ملك الأرمن الذي أهمل السعي في
مصالحه بيديه، ليتيمن رعاياه به،
ويعلموا أنهم أمنوا على أرواحهم وأولادهم بسببه؛ ويتحققوا أن
أثقالهم بحسن توصله إلى
طاعتنا قد خفت، وأن بوادر الأمن بلطف توسله إلى مراضينا قد
أطافت بهم وحفت وأن
سيوفنا التي كانت مجردة على مقاتلهم بجميل استعطافه قد
كفتهم بأسنا وكفت وأن
سطواتنا الحاكمة على أرواحهم قد عفت عنهم بملاطفته
وعفت؛ فرسم أن يقلد كيت

وكيت من المملكة الفلانية، ويستقر بيده استقراراً لا ينازع في استحقاقه ولا يعارض فيما
سبق من إعطائه وإطلاقه؛ ولا يطالب عنه بقطيعه، ولا يطلب منه بسببه غير طوية مخلصةٍ
ونفسٍ مطيعة؛ ولا يخشى عليه يداً جائرة، ولا سريةً في طلب الغرة سائره؛ ولا يطرق كناسه
أسد جيوش مفترسة، ولا سباع نهابٍ مختلسة؛ بل تستمر بلاده المذكورة في ذمام رعايتنا،
وحصانه عنايتنا؛ وكنف إحساننا، ووديعة برنا وامتناننا؛ لا تطمح إليها عين معاند، ولا يمتد
إليها إلا ساعد مساعد، وعضد معاضد؛ فليقابل هذه النعمة بشكر الله الذي هداه إلى
الطاعة وصان بإخلاص ولائه نفسه بلاده من الإضاعة؛ وليقرن ذلك بإصفاء موارد المودة،
وإضفاء ملابس الطاعة التي لا تزداد بحسن الوفاء إلا جده؛ واستمرار المناصحة في السر
والعلن، واجتناب لمخادعة ما ظهر منها وما بطن، وأداء الأمانة فيما استقر معه لحلف
عليه، ومباينة ما يخشى أن يتوجه بسببه وجه عتب إليه؛ واستدامة هذه النعمة بحفظ
أسبابها، واستقامة أحوال هذه المنة برفض موجبات الكدر واجتنابها، وإخلاص النية التي
لا تعتبر ظواهر الأحوال الصالحة إلا بها.
ومن تقليدٍ كتبه المشار إليه أيضاً لسلامش بمملكة الروم حين ورد كتابه يسأل ذلك قبل
حضوره، أوله.
الحمد لله الذي أيدنا بنصره، وأمدنا من جنود الظفر بما لم يؤت ملك في عصره، وجعل
مهابتنا قائمة في جهاد عدو الدين، إن قرب مقام كسره، وإن بعد مقام حصره، ونشر دعوة
ملكنا في الأقطار كلها إذا اقتصرت دعوة غيرنا من ملوك الأمصار على مصره، وأنجد من
نادانا بلسان الإخلاص من جنود الله وجنودنا بالجيش الذي لم تزل أرواح العدا بأسرها في
أسره، وعضد من تمسك بطاعة الله وطاعتنا من إجابة عساكرنا بما هو أقرب إلى مقاتل
عدوه من بيضه المرهفة وسمره، وأعاد بنا من حقوق الدين كل ضالة ملكٍ ظن العدو أن
أمره غالبٌ عليها والله غالبٌ على أمره؛ فجنودنا إلى نصرة من دعاها بالإيمان أقرب من
رجع نفسه إليه، وأسرع من رد الصدى جوابه عليه؛ وأسبق إلى عدو الدين من مواقع

عيانه، وأقدر على التصرف في أرواح أهل الشرك من تصرف الكمي في عناه؛ وأذب عن
حمى الدين من الجفون عن نواظرها، وأضرى على نفوس المعتدين من أسود عنت الفرائس
لكواسرها؛ قد عودها النصر الإلهي ألا تسل ظباها فتغمد حتى تستباح ممالك، وضمن لها
الوعد المحمدي أنها الطائفة الذين لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة حتى يأتي أمر الله وهم
على ذلك؛ نحمده على نعمه التي لم نزل نصون بها حمى الدين ونصول، وتقلد بيمنها من لجأ
إلينا سيف نصر يصدع به ليل العدا ولو أن النجوم نصول، ونورد باسمها من انتصر بنا مورد
عز يحرمه لمع الأسنة فوقه، فليس لظمآن من العدا إليه وصول؛ وبعد، فإن أولى من أصغت
عزائمنا الشريفة إلى نداء إخلاصه، وأجابت مكارمنا العممة دعاء تميزه بالولاء
واختصاصه، وقابلت مراسمنا انتصاره في الدين بالنفير لإعانته على ما ظفر باقتلاعه من يد
الكفر واقتناصه، وتكفلت له مهابتنا بالأمن على ملك مذ وسمه باسمنا الشريف يئس العدو
من استخلاصه؛ وأجيبت كتبه في الاستنجاد بسرعان الكتائب، ولمعان القواضب، وتتابع
أمداد جيوشنا التي تنوء بحملها كواهل المشارق والمغارب، وتدفق أمواج عساكرنا التي
تنشد طلائعها ملوك العدا:
"أين الفرار ولا مفر لهارب"
وتألق بروق النصر من خفق ألويتنا الشاهدة بأن قبيلنا
"إذا ما التقى الجمعان أول غالب"
ومنه:
وفوضت إليه مراسمنا الحكم في الرعايا بالعدل والإحسان، وقلدته أوامرنا من عقود النظر
في تلك الممالك ما تود جباه الملوك لو حلت بدرها معاقد التيجان، وعلقت به من الأوامر
ما بنا تنفذ مواقعه، وكذا الأمور المعتبرة لا تنفذ إلا بسلطان؛ من ألقى الله الإيمان في قلبه،
وهداه إلى دين الإسلام فأصبح فيه على بينة من ربه، وأراد به خيراً فنقله من حزب
الشيطان إلى حزبه، وأنفذه بطاعته من موارد الهلاك بعد أن كان قد أذن بحرب من الله
ورسوله، ولقد خسر الدين والدنيا والآخرة من أذن من الله بحربه؛ وأيقظه من طاعتنا التي

أوجبها على الأمم لما أبصر به رشده، ورأى قصده وعلم به أن الذي كان فيه كسرابٍ
بقيعة لم يجده شيئاً، وأن الذي انتقل إليه وجد الله عنده؛ وأنهضه من موالاتنا بما حتم به
النهوض على كل من كان مسلماً، وأخرجه بنور الهدى من عداد أعدائه الذين تركهم
خوفنا "كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً" وأراه الرشد ما علم به أن الله تعالى
أورثنا ملك الإسلام فبطاعتنا يتم الانتماء إليه، وأعطانا مقاليد البسيطة فمن اغتصب منها
شيئاً انتزعه الله لنا بجنوده المسومة من يديه؛ فلجأ من أبوابنا العالية إلى الظل الذي يلجأ
إليه كل ذي منبرٍ وسرير، ورجا من كرمنا الاعتصام بجيوشنا التي ما رمينا بها عدواً إلا
ظن أن الرمال تسيل والجبال تسير؛ وتحيز منا إلى فئة الإسلام، وانتصر بسوفنا التي هو يعلم
كيف يسلها على العدا الأحلام؛ ومت إلينا بذمة الإسلام وهي عندنا أبر الذمم، وطلب
تقليده الحكم منا من عرف بإعاذته النظرات الصادقة أنه كان يحسب الشحم فيمن شحمه
ورم؛ وعقد بنا بناء رجائه، وهل لمسلم عن ملك الإسلام من معدل؟ وأنزل بنا ركائب
آماله، وهل بعد رامة لمرامٍ من منزل؟ فتلقت نعمنا كرائم قصده بالترحيب، وأحلت وفادة
انتمائه بالحرم الذي شأوه بعيد ونصره قريب؛ وتسارعت إلى نصرته جنودنا التي أيامها
مشهورةٌ في عدوها، وآثارها مشكورة في رواحها وغدوها، وأعلامها منصورةٌ في انتزاحها
ودنوها؛ وتتابعت يتلو بعضها بعضاً تتابع الغمام المتراكم، والموج المتلاطم؛ تقدم عليه بالنصر
القريب من الأمد البعيد، وتعلم بوادرها أن طلائعها عنده وساقتها بالصعيد؛ ولما كان فلان
هو الذي أراد الله به من الخير ما أراد، ووطد له بعنايته أركان الرشاد؛ وجعل له بعد الجهل
به علماً، وتداركه برحمته، فما أمسى للإسلام عدواً حتى أصبح هو ومن معه له سلماً؛
"قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا" وبكرمه العميم فليفسحوا صدورهم ويشرحوا،
وبإرشاده الجلي وهدايته فليدعوا قومهم إلى ذلك وينصحوا؛ وحين وضحت له هذه الطرق
أرشدته من خدمتنا الشريفة إلى الطاعة، ودلته على موالاة ملك الإسلام التي من لم يتمسك

بها فقد فارق الجماعة؛ فإن الله تعالى قرن طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم
بطاعة أولي الأمر، وحث على ملازمة الجماعة في وقت يكون المتمسك فيه بدينه كالقابض
على الجمر؛ وهذا فعل من أراد الله به خيراً، وسعى من يحسن في دين الله سيرةً وسيراً؛
ولذلك اقتضت آراؤنا الشريفة إمضاء عزمه على الجهاد بالإيجاد، وإنفاذ سهمه في أهل
العناد بالإسعاف والإسعاد؛ أرسلنا الجيوش الإسلامية كما تقدم شرحه يطئون الصحاصح،
ويستقربون المدى النازح، ويأخذون كل كمي فلو استطاع السماك لم يتسم بالرامح،
ويحتسبون الشقة في طلب عدو الإسلام علماً أنهم لا ينفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا
يقطعون وادياً إلا كتب لهم به عملٌ صالح؛ فرسم بالأمر الشريف - لازال يهب الدوال، ويقلد
أجياد العظماء ما تود لو تحلت ببعض فرائده تيجان الملوك الأول - أن تفوض إليه نيابة
الممالك الفلانية تفويضاً يصون به قلاعها، ويصول بمهابته على من حاول انتزاعها من يده
واقتلاعها؛ ويجريها على ما ألفت ممالكنا من أمنٍ لا يروع سربه، ولا يكدر شربه؛ ولا يوجد
فيه باغ تخاف السبيل بسببه، ولا من يجرد سيف بغيٍ وإن جرده قتل به؛ وليحفظ من
الأطراف ما استودعه الله وهذا التقليد الشريف حفظه، وليعمل في قتال محاربته من العدا
بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظةً"
ومنه: وليعلم أن جيوشنا في المسير إليه متى قصدت عدواً سابقت خيولها خيالها،
وجارت جيادها ظلالها، وأنفت سنابكها أن تجعل غير جماجم الأعداء نعالها؛ وها هي
قد تقدمت ونهضت لإنجاده، فلو سامها أن تخوض البحار في سبيل الله لخاضت، أو تصدم
الجبال لصدمت.
ومنه: والشرع الشريف مهمه المقدم، وأمره السابق على كل ما تقدم؛ فليعل مناره،
ويستشف من أموره أنواره؛ وينفذ أحكامه، ويعاضد حكامه؛ ومن عدل عن حكمه
معانداً، أو ترك شيئاً من أحكامه جاحداً؛ فقد برئت الذمة من دمه حتى يفيء إلى أمر

الله، ويرجع عن عناده وينيب إلى الله؛ فإن الله يهدي إليه من أناب "وهو الذي يقبل التوبة
عن عباده"
وأما الرسائل التي تتضمن أوصاف السلاح وآلات الحرب وأوصاف الخيل والجوارح وأنواع
الرياضات وما أشبه ذلك، فالكاتب فيه مطلق العنان، مخلي بينه وبين فصاحته، وموكولٌ
إلى اطلاعه وبلاغته؛ وقد تقدم من أوصاف السلاح ما فيه كفايةٌ لمن يريد ذلك.
وأما الخيل والجوارح وما يلتحق بذلك من الفهود والضواري فلا غنية للكاتب عن معرفته
جيادها، والأمارات الذالة على فراهتها، وكل طير من الجارح وأفعاله واستطالته، وكيفية
فعله، وتمكنه من الطير والوحش؛ وسنورد إن شاء الله تعالى في فن الحيوان الصامت -
وهو الفن الثالث من هذا الكتاب - ما يقتدي الكاتب بمثاله، وينسج على منواله.
وأما الرسائل التي تعمل رياضةً للخواطر وتجربةً للقرائح، كالمفاخرات بين الفواكه والأزهار،
ووصف الرياحين والأنهار والغدران والسواقي والجداول والبحار والمراكب وأمثال ذلك،
فقد تقدم منها في الفن الأول من هذا الكتاب ما وقفت أو تقف عليه، وسنورد منها إن
شاء الله تعالى في الفن الرابع في النبات ما تجده هناك.
وأما الرسائل الإخوانية وما يتجدد من الأمور ويطرأ من الحوادث وغير ذلك، فسنورد إن
شاء الله تعالى منها في هذا الباب ما نتخبناه من رسائل الكتاب والبلغاء المشارقة والمغاربة
على ما تقف عليه؛ ولنبدأ من ذلك بذكر شيء من كلام الصحابة والصدر الأول.
الرسائل المنسوبة إلى الصحابة
رضي الله عنهم والتابعين وشيء من كلام الصدر الأول وبلاغتهم
قدمنا أن الكاتب يحتاج في صناعته إلى حفظ مخاطبات الصحابة رضي الله عنهم،
ومحاوراتهم ومراجعاتهم، فأحببنا أن نورد من ذلك في هذا الموضع ما ستقف إن شاء الله
عليه؛
فمن ذلك الرسالة المنسوبة إلى أبي بكر الصديق إلى علي، وما يتصل بها من كلام عمر بن
الخطاب وجواب علي رضي الله عنهم، وهذه السرالة قد اعتنى الناس بها وأوردوها في

المجاميع، ومنهم من أفردها في جزء، وقطع بأنها من كلامهم رضي الله عنهم، ومنهم من
أنكرها ونفاها عنهم، وقال: إنها موضوعةٌ، واختلف القائلون بوضعها، فمنهم من زعم أن
فضلاء الشيعة وضعوها، وأرادوا بذلك الاستناد إلى أن علياً بن أبي طالب رضي الله
عنه إنما بايع أبا بكر الصديق بسبب ما تضمنته؛ وهذا الاستناد ضعيفٌ، وحجةٌ واهيةٌ،
والصحيح أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه بايع بيعةً باطنه فيها كظاهره، والدليل
على ذلك أنه وطئ من السبي الذي سُبي في خلافة أبي بكر، واستولد منه محمد بن
الحنفية، ولا جواب لهم عن هذا؛ ومنهم من زعم أن فضلاء السنة وضعوها، والله أعلم؛
وعلى الجملة فهذه الرسالة لم نوردها في هذا الكتاب إثباتاً لها أنها من كلامها رضي الله
عنهم ولا نفياً، وإنما أوردناها لما فيها من البلاغة، واتساق الكلام، وجودة الألفاظ، وها
نحن نوردها على نص ما وقفنا عليه.
قال أبو حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي:
سمرنا ليلة عند القاضي أبي حامد بن بشر المروروذي ببغداد، فتصرف في الحديث كل
متصرف - وكان غزير الرواية، لطيف الدرايه - فجرى حديث السقيفة، فركب كل مركباً،
وقال قولاً، وعرّض بشيء، ونزع إلى فن؛ فقال: هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر
الصديق إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وجواب علي عنها، ومبايعته إياه عقب
تلك المناظرة؟ فقال الجماعة: لا والله، فقال: هي والله من بنات الحقائق، ومخبآت
الصنادق، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا لأبي محمد المهلبي في وزارته، فكتبها عني بيده، وقال:
لا أعرف رسالة أعقل منها ولا أبين، وإنها لتدل على علم وحلم وفصاحة ونباهة، وبعد
غور، وشدة غوص؛ فقال له العباداني: أيها القاضي، لو أتممت المنة علينا بروايتها سمعناها،
فنحن أوعى لها عنك من المهلبي، وأوجب ذماماً عليك؛ فاندفع وقال: حدثنا الخزاعي
بمكة، عن أبي ميسرة قال: حدثنا محمد بن فليح عن عيسى بن دأب نبأ صالح بن كيسان
ويزيد بن رومان، قالا: حدثنا هشام بن عروة، نبأ أبو النفاح قال: سمعت مولاي أبا عبيدة

يقول: لما استقامت الخلافة لأبي بكر رضي الله عنه بين المهاجرين والأنصار بعد فتنة كاد
الشيطان بها، فدفع الله شرها، ويسر خيرها؛ بلغ أبا بكر عن علي تلكؤ وشماس، وتهمم
ونفاس، فكره أن يتمادى الحال فتبدو العورة، وتشتعل الجمرة، وتفرق ذات البين، فدعاني،
فحضرته في خلوة، وكان عنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحده، فقال: يا أبا عبيدة،
ما أيمن ناصيتك، وأبين الخير بين عينيك، وطالما أعز الله بك الإسلام، وأصلح شأنه على
يديك، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط، والمحل المغبوط،
ولقد قال فيك في يوم مشهود: "لكل أمة أمين، وأمي هذه الأمة أبو عبيدة" ولم تزل للدين
ملتجا، وللمؤمنين مرتجى، ولأهلك ركناً، ولإخوانك رداءاً؛ قد أردتك لأمر له خطر مخوف،
وإصلاحه من أعظم المعروف؛ ولئن لم يندمل جرحه بيسارك ورفقك، ولم تجب حيته
برفيتك، فقد وقع اليأس، وأعضل البأس؛ واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمر منه وأعلق،
وأعسر منه وأغلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه على يديك، فتأت له يا أبا عبيدة،
وتلطف فيه، وانصح لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذه العصابة غير آلٍ
جهداً، ولا فالٍ حمداً، والله كالئك وناصرك، وهاديك ومبصرك، إن شاء الله؛ امضِ إلى
علي واخفض له جناحك، واغضض عنده صوتك، واعلم أنه سلالة أبي طالب، ومكانه
ممن فقدناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانه، وقل له: البحر مغرقه، والبر مفرقه؛ والجو
أكلف، والليل أغدف؛ والسماء جلواء، والأرض صلعاء؛ والصعود متعذر، والهبوط
متعسر؛ والحق عطوفٌ رءوف، والباطل عنوف عسوف، والعجب قداحة الشر، والضغن
رائد البوار، والتعريض يجال الفتنة، والقحة ثقوب العدواة، وهذا الشيطان متكئ على
شماله، متحبل بيمينه، نافخٌ حضينه لأهله، ينتظر الشتات والفرقة، ويدب بين الأمة
بالشحناء والعداوة، وعناداً لله عز وجل أولاً، ودم ثانياً، ولنبيه صلى الله عليه وسلم
ودينه ثالثاً، يوسوس بالفجور، ويدلي بالغرور، ويمني أهل الشرور، يوحي إلى أوليائه زخرف

القول غروراً بالباطل، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وعادةً له
منذ أهانه الله تعالى في سالف الدهر، لا منجي منه إلا بعض الناجذ على الحق، وغض
الطرف عن الباطل، ووطء هامة عدو الله بالأشد فالأشد، والآكد فالآكد، وإسلام النفس
لله عز وجل في ابتغاء رضاه؛ ولابد الآن من قول ينفع إذا ضر السكوت وخيف غبه، ولقد
أرشدك من أفاء ضالتك، وصافاك من أحيا مودته بعتابك، وأراد لك الخير من آثر البقاء
معك، ما هذا الذي تسول لك نفسك، ويدوي به قلبك، ويلتوي عليه رأيك، ويتخاوض دونه
طرفك، ويسري فيه ظعنك، ويترادف معه نفسك، وتكثر عنده صعداؤك، ولا يفيض به
لسانك؟ أعجمةٌ بعد إفصاح؟ أتلبيسٌ بعد إيضاح؟ أدينٌ غير دين الله؟ أخُلقٌ غير خُلق
القرآن؟ أهدي غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم؟ أمثلي تمشي إليه الضراء وتدب له
الخمر؟ أو مثلك ينقبض عليه الفضاء ويكسف في عينه القمر؟ ما هذه القعقعة بالشنان؟
وما هذه الوعوعة باللسان؟ إنك والله جد عارف باستجابتنا إلى الله عز وجل ولرسوله
صلى الله عليه وسلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا لله عز وجل
ولرسوله ونصرةً لدينه، في زمان أنت فيه في كن الصبا، وخدر الغرارة، وعنفوان الشبيبة
غافلاً عما يشيب ويريب، ولا تعي ما يراد ويشاد، ولا تحصل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت
جار عليه إلى غايتك التي إليها عدل بك، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر، ولا
مجحود الفضل، ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالاً تزيل الرواسي، ونقاسي أهوالاً تشيب
النواصي؛ خائضين غمراها، راكبين تيارها؛ نتجرع صابها، ونشرج عيابها؛ ونحكم
آساسها، ونبرم أمراسها؛ والعيون تحدج بالحسد، والأنوف تعطس بالكبر، والصدور تستعر
بالغيظ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشفار تشحذ بالمكر، والأرض تميد بالخوف، لا ننتظر
عند المساء صباحاً، ولا عند الصباح مساءً، ولا ندفع في حر أمر إلا بعد أن نحسو الموت
دونه، ولا نبلغ مراداً إلى شيء إلا بعد جرع العذاب معه، ولا نقيم مناراً إلا بعد الإياس من

الحياة عنده، فادين في جميع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم، والخال
والعم، والمال والنشب، والسبد واللبد، والهلة والبلة، بطيب أنفس، وقرة أعين، وحب
أعطان، وثبات عزائم، وصحة عقول، وطلاقة أوده، وذلاقة ألسن، هذا مع خفيات أسرار،
ومكنونات أخبار كنت عنها غافلاً، ولولا سنك لم تكن عن شيء منها ناكلاً؛ كيف
وفؤادك مشهوم، وعودك معجوم! والآن قد بلغ الله بك، وأنهض الخير لك، وجعل مرادك بين
يديك، وعن علم أقول ما تسمع؛ فارتقب زمانك، وفلّص أردانك؛ ودع التقعس والتجسس
لمن لا يظلع لك إذا خطا، ولا يتزحزح عنك إذا عطا؛ فالأمر غض، والنفوس فيها مض؛
وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم لجاجاً، وسيفها العضب فلا تنب اعواجاجاً، وماؤها العذب
فلا تحل أجاجاً؛ والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فقال لي:
"يا أبا بكر، هو لمن يرغب لا لمن يجاحش عليه، ولمن يتضاءل عنه لا لمن ينتفج إليه، هو لمن
يقال: هو لك، لا لمن يقول: هو لي " ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في
الصهر، فذكر فتياناً من قريش، فقلت: أين أنت من علي؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إن
لأكره لفاطمة ميعة شبابه، وحداثة سنه، فقلت له: متى كنفته يدك، ورعته عينك، حفت
بهما البركة، وأسبغت عليهما النعمة، مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك، وما كنت
عرفت منك في ذلك حوجاء ولا لوجاء، فقلت ما قلت وأنا أرى مكان غيرك، وأجد
رائحة سواك، وكنت إذ ذاك خيراً لك منك الآن لي؛ ولئن كان عرض بك رسول الله صلى
الله عليه وسلم في هذا الأمر فلم يكن معرضاً عن غيرك، وإن كان قال فيك فما سكت
عن سواك، وإن تلجلج في نفسك شيءٌ فهلم فالحكم مرضي، والصواب مسموع، والحق
مطاع؛ ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما عند الله عز وجل وهو عن هذه
العصابة راض، وعليها حدب، يسره ما يسرها، ويسوءه ما يسوءها، ويكيده ما كادها،
ويرضيه ما أرضاها، ويسخطه ما أسخطها، أما تعلم أنه لم يدع أحداً من أصحابه وأقاربه

وسجرائه إلا أبانه بفضيلة، وخصه بمزية، وأفرده بحالة؟ أتظنه صلى الله عليه وسلم ترك
الأمة سدىً بددا، عباهل مباهل، طلاحي، مفتونةً بالباطل، معنونةً عن الحق، لا ذائد ولا
رائد، ولا ضابط ولا حائط ولا رابط، ولا ساقي ولا واقي، ولا هادي ولا حادي؛ كلا،
والله ما اشتاق إلى ربه تعالى، ولا سأله المصير إلى رضوانه وقربه إلا بعد أن ضرب المدى،
وأوضح الهدى، وأبان الصوى؛ وأمن المسالك والمطارح، وسهل المبارك والمهايع، وإلا بعد
أن شدخ يافوخ الشرك بإذن الله تعالى، وشرم وجه النفاق لوجه الله سبحانه، وجدع أنف
الفتنة في ذات الله، وتفل في عين الشيطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمر الله عز
وجل؛ وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة، ودارٍ جامعة، إن
استقالوني لك، وأشاروا عندي بك، فأنا واضعٌ يدي في يدك، وصائرٌ إلى رأيهم فيك، وإن
تكن الأخرى فادخل في صالح ما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحهم، والفاتح
لمغالقهم، والمرشد لضالتهم، والرادع لغوايتهم، فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى،
والتناصر على الحق، ودعنا نقض هذه الحياة بصدور بريئةٍ من الغل، سليمةٍ من الضغائن
والحقد، ونلق الله تعالى بقلوب سليمةٍ من الضغن؛ وبعد، فالناس ثمامة فارفق بهم، واحن
عليهم، ولن لهم، ولا تشق نفسك بنا خاصةً منهم، واترك ناجم الحقد حصيداً، وطائر
الشرك واقعاً، وباب الفتنة مغلقاً، فلا قال ولا قيل، ولا لوم ولا تعنيف، والله على تقول
شهيد، وربما نحن عليه بصير.
قال أبو عبيدة: فلما تأهبت للنهوض قال عمر رضي الله عنه: كن لدى الباب هنيهةً فلي
معك دور من القول، فوقفت وما أدري ما كان بعدي إلا أنه لحقني بوجه يبدي تهللاً، وقال
لي: قل لعلي: الرقاد محلمه، والهوى مقحمه؛ "وما منا إلا له مقامٌ معلوم" وحقٌ مشاعٌ أو
مقسوم، ونبأٌ ظاهرٌ أو مكتوم؛ وإن أكيس الكيسي من منح الشارد تألفا، وقارب البعيد
تلطفاً؛ ووزن كل شيء بميزانه، ولم يخلط خبره بعيانه؛ ولم يجعل فترة مكان شبره ديناً كان أو

دیناً، ضلالاً كان أو هدى، ولا خير في علم مستعمل في جهل، ولا خير في معرفة مشوبة
بنكر، ولسنا كجلدة رفع البعير بين العجان والذنب، وكل صال فبناره، وكل سيل فإلى
قراره، وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لعي وشتى، ولا كلامها اليوم لفرق أو
رفق، وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل ذي كبر، وقصم ظهر كل جبار،
وقطع لسان كل مكذوب فماذا بعد الحق إلا الضلال ما هذه الخنزوانة "التي" في فراش
رأسك؟ ما هذا الشجا المعترض في مدارج أنفاسك، ما هذه القذاة التي اغشت ناظرك؟
وما هذه الوحرة التي أكلت شراسيفك؟ وما هذا الذي لبست بسببه جلد النمر،
واشتملت بالشحناء والنكر، ولسنا في كسروية كسرى، ولا في قيصرية قيصر، تأمل لإخوان
فارس وأبناء الأصفر، قد جعلهم الله جزراً لسيوفنا، ودريئة لرماحنا ومرعى لطعاتنا،
وتبعاً لسطاننا، بل نحن نور نبوة، وضياء رسالة، وثمرة حكمة، وأثرة رحمه، وعنوان نعمه،
وظل عصمه، بين أمة مهدية بالحق والصدق، مأمونة على الرتق والفتق، لها من الله إباء أبي،
وساعد قوي، ويد ناصره، وعين ناظره، أتظن ظناً يا علي أن أبا بكر وثب على هذا الأمر
مفتاناً على الأمة، خادعاً لها، أو متسطاً "عليها" أتراه حل عقودها "وأحال عقولها" أتراه
جعل نهارها ليلاً، ووزنها كيلاً، ويقظتها رقاداً، وصلاحها فساداً لا والله، سلا عنها
فولهت له، وتطامن لها فلصقت به، ومال عنها فمالت إليه، واشمئز دونها فاشتملت عليه،
حبوةً حباه الله بها، وعاقبةً بلغه الله إليها، ونعمة سربله جمالها، ويداً أوجب عليه شكرها
وأمةً نظر الله به لها، والله تعالى أعلم بخلقه، وأرأف بعباده يختار ما كان لهم الخيرة، وإنك
بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة ومعدن الرسالة، ولا يجحد حقك فيما أتاك الله،
ولكن لك من يزاحمك بمنكب أضخم وقرب أمس من قرابتك، وسن أعلى من سنك،
وشيبة أروع من شيبتك، وسيادة لها أصل في الجاهلية وفرع في الإسلام، ومواقف ليس لك
فيها جمل ولا ناقة، ولا تذكر فيها في مقدمة ولا ساقه، ولا تضرب فيها بذراع، ولا إصبع،

ولا تخرج منها ببازل ولا هبع، ولم يزل أبو بكر حبة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم،
وعلاقة نفسه وعيبة سره، ومفزع رأيه، وراحة كفه، ومرمق طرفه، وذلك كله بمحضر
الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار شهرة مغنية عن الدليل عليه ولعمري، إنك أقرب
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، ولكنه أقرب منك قربة، والقرابة لحم ودم،
والقربة نفس وروح، وهذا فرق عرفه المؤمنون ولذلك صاروا إليه أجمعون ومهما شككت
في ذلك فلا تشك أن يد الله مع الجماعة ورضوانه لأهل الطاعة، فادخل فيما هو خير لك
اليوم وأنفع غداً، وألفظ من فيك ما يعلق بلهاتك وانفث سخيمة صدرك عن تقاتك، فإن
يك في الأمل طول، وفي الأجل فسحة، فستأكله مريئاً أو غير مري، وستشربه هنيئاً أو غير
هنئ، حين لا راد لقولك إلا من كان منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك، يمص
إهابك، ويعرك أديمك، ويزري على هديك، هنالك تقرع السن من ندم، وتجرع الماء ممزوجاً
بدم، وحينئذ تأسى على ما مضى من عمرك ودارج قوتك فتود، أن لو سقيت بالكأس التي
أبيتها، ورددت إلى حالتك التي استغويتها، ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالغه، وغيبٌ هو
شاهده، وعاقبةٌ هو المرجو لسرائها وضرائها، وهو الولي الحميد، الغفور الودود.
قال أبو عبيدة: فمشيت متزملاً أنوء كأنما أخطو على رأسي فرقاً من الفرقة، وشفقاً على
الأمة، حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خلاء، فأثبته بثي كله، وبرئت إليه منه،
ورفقت به؛ فلما سمعها ووعاها، وسرت في مفاصله حمياها؛ قال: حلت معلوطة، وولت
مخروطة، وأنشأ يقول:

إحدى لياليك فهيسي هيسي لا تنعمي الليلة بالتعريس

نعم يا أبا عبيدة، أكل هذا في أنفس القوم يحسون به، ويضطبعون عليه؟ قال أبو عبيدة:
فقلت: لا جواب لك عندي، إنما أنا قاض حق الدين، وراتقٌ فتق المسلمين، وساد ثلمة
الأمة، يعلم الله ذلك من جلجلان قلبي، وقرارة نفسي؛ فقال علي رضي الله عنه: والله ما
كان قعودي في كسر هذا البيت قصداً للخلاف، ولا إنكار للمعروف، ولا زرايةً على

مسلم، بل لما وقذني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه، وأودعني من الحزن
لفقده، وذلك أنني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد علي حزناً، وذكرني شجنا، وإن الشوق
إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره، وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما
تفرق منه رجاء ثواب معد لمن أخلص لله عمله، وسلم لعلمه ومشيئته، وأمره ونهيه، على
أني ما علمت أن التظاهر علي واقع ولي عن الحق الذي سبق سبق لي دافع وإذ قد أفعم
الوادي بي، وحشد النادي من أجلي، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين وسرني، وفي
النفس كلامٌ لولا سابق عقد، وسالف عهد، لشفيت نفسي بخنصري وبنصري وخضت
لجنه بأخمصي ومفرقي، ولكني ملجمٌ إلى أن ألقى ربي، وعنده أحتسب ما نزل بي، وإني
غاد إلى جماعتكم مبايعٌ لصاحبكم، صابرٌ على ما ساءني وسركم، "ليقضي الله أمراً كان
مفعولاً"
قال أبو عبيدة: فعدت إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقصصت القول غره، ولم أختزل شيئاً
من حلوه ومره، وبكرت غدوةً إلى المسجد فلما كان صباح يومئذ إذا عليّ يخترق الجماعة
إلى أبي بكر رضي الله عنهما، فبايعه، وقال خيراً ووصف جميلاً، وجلس زميتاً، واستأذن
للقيام فمضى، وتبعه عمر مكرماً له، مستثيراً لما عنده، فقال علي رضي الله عنه: ما
قعدت عن صاحبكم كارهاً له، ولا أتيته فرقاً، ولا أقول تعلة، وإني لأعرف منتهى طرفي،
ومحط قدمي، ومنزع قوسي، وموقع سهمي، ولكن قد أزمت على فأسي ثقةً بربي في الدنيا
والآخرة.
فقال له عمر رضي الله عنهما: كفكف غربك، واستوقف سربك ودع العصا بلجائها،
والدلاء على رشائها، فإنا من خلفها ووائها؛ إن قدحنا أورينا، وإن متحنا أروينا، وإن
قرحنا أدمينا، ولقد سمعت أماثيلك التي لغزت فيها عن صدر أكل بالجوي، ولو شئت لقلت
على مقالتك ما إن سمعته ندمت على ما قلت؛ وزعمت أنك قعدت في كسر بيتك لما
وقذك به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقده، فهو وقذك ولم يقذ غيرك؟ بل مصابه

أعم وأعظم من ذلك، وإن من حق مصابه ألا تصدع شمل الجماعة بفرقة لا عصام لها، ولا
يؤمن كيد الشيطان في بقائها، هذه العرب حولنا، والله لو تداعت علينا في صبح نهار لم
نلتق في مسائه؛ وزعمت أن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره، فمن علامة
الشوق إليه نصرة دينه، ومؤازرة أوليائه ومعاونتهم؛ وزعمت أنك عكفت على عهد الله
تجمع ما تفرق منه، فمن العكوف على عهد الله النصيحة لعباد الله، والرأفة على خلق
الله، وبذل ما يصلحون به ويرشدون عليه؛ وزعمت أنك تعلم أن التظاهر وقع عليك، وأي
حق لط دونك؟ قد سمعت وعلمت ما قالت الأنصار بالأمس سراً وجهراً، وتقلبت عليه
بطناً وظهراً، فهل ذكرتك أو أشارت بك، أو وجدت رضاهم عنك؟ هل قال أحد منهم
بلسانه: إنك تصلح لهذا الأمر، أو أومأ بعينه، أو همهم في نفسه؟ أتظن أن الناس ضلوا من
أجلك، وعادوا كفاراً زهداً فيك وباعوا الله تعالى تحاملا عليك؟ لا والله، لقد جاءني
عقيل بن زيادٍ الخزرجي "في نفر من أصحابه ومعهم شرجبيل بن يعقوب الخزرجي" وقالوا:
إن علياً ينتظر الإمامة، ويزعم أنه أولى بها من غيره، وينكر على من يعقد الخلافة، فأنكرت
عليهم، ورددت القول في نحورهم حين قالوا: إنه ينتظر الوحي، ويتوكف مناجاة الملك،
فقلت: ذلك أمرٌ طواه الله تعالى بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أكان الأمر معقوداً
بأنشوطة، أو مشدوداً بأطراف ليطة؟ كلا والله، لا عجماء بحمد الله إلا وقد أفصحت،
ولا شوكاء إلا وقد تفتحت؛ ومن أعجب شأنك قولك: لولا سالف عهد، وسابق عقد،
لشفيت غيظي، وهل ترك الدين لأهله أن يشفوا غيظهم بيد أو لسان؟ تلك جاهليةٌ قد
استأصل الله شأفتها، واقتلع جرثومتها؛ وهور ليلها، وغور سيلها؛ وأبدل منها الروح
والريحان، والهدى والبرهان؛ وزعمت أنك ملجم، ولعمري إن من اتقى الله، وآثر رضاه،
وطلب ما عنده، أمسك لسانه، وأطبق فاه، وجعل سعيه لما وراه.
فقال علي رضي الله عنه: مهلا مهلا يا أبا حفص، والله ما بذلت ما بذلت وأنا أريد نكثه،

ولا أقررت ما أقررت وأنا أبتغي حولاً عنه؛ وإن أخسر الناس صفقةً عند الله من آثر
النفاق، واحتضن الشقاق؛ وفي الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل في كل الحوادث؛
ارجع يا أبا حفص إلى مجلسك ناقع القلب، مبرود الغليل، فسيح اللبان، فصيح اللسان،
فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشد الأزر، ويحط الوزر، ويضع الإصر، ويجمع الألفة
بمشيئة الله وتوفيقه.
قال أبو عبيدة رضي الله عنه: فانصرف علي وعمر رضي الله عنهما، وهذا أصعب ما
مر علي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ومن كلام عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وهو مما اتصل إلينا
بالرواية الصحيحة، والأسانيد الصريحة، عن محمد بن أحمد ابن أبي المثنى عن جعفر بن
عون، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: أنه بلغها أن أقواماً
يتناولون أبا بكر رضي الله عنه، فأرسلت أزفلة من الناس، فلما حضروا أسدلت
أستارها، وعلت وسادها، ثم قالت: أبي وما أبيه، أبي والله لا تعطوه الأيدي، ذاك طود
منيف وظل مديد، هيهات، كذبت الظنون، أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ ونيتم سبق الجواد
إذا استولى على الأمد فتى قريش ناشئا، وكهفها كهلا، يفك عانيها، ويريش مملقها، ويرأب
شعبها ويلم شعثها، حتى حليته قلوبها، ثم استشرى في دين الله، فما برحت شكيمته في
ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيى فيه، ما أمات المبطلون، وكان رحمه الله
غزير الدمعة، وقيد الجوانح، شجى النشيج، فانعطفت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون
منه، ويستهزئون به، "الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون" فأكبرت ذلك رجالات
قريش، فحنت قسيها، وفوقت سهامها، وامتثلوه غرضلاً فما فلوا صفاة، ولا قصفوا له قناة،
ومر على سيسائه، حتى إذا ضرب الدين بجرانه وألقى بركه، ورست أوتاده، ودخل الناس
فيه أفواجاً، ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا اختار الله لنبيه ما عنده، فلما قبض الله نبيه
صلى الله عليه وسلم نصب الشيطان رواقه، ومد طنبه، ونصب حبائله، وأجلب بخيله

ورجله واضطرب حبل الإسلام، ومرج عهده، وماج أهله، وبغى الغوائل، وظنت رجال أن
قد أكثب نهزها، ولات حين الذي يرجون، وأنى والصديق بين أظهرهم؟ فقام حاسراً
مشمراً، فجمع حاشيته ورفع قطريه، فرد رسن الإسلام على غربه، ولم شعثه بطبه، وأقام
أوده بثقافه، فابذعرّ النفاق بوطئه، وانتاش الدين فنعشه، فلما أراح الحق على أهله، وقرر
الرءوس على كواهلها، وحقن الدماء في أهبها، ائته منيته، فسد ثلمته بنظيره في الرحمة،
وشقيقه في السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب لله در أم حفلت له، ودرت عليه، لقد
أوحدت به ففنخ الكفرة وديخها، وشرد الشرك شذر مذر، وبعج الأرض ونجعها، فقاءت
أكلها، ولفظت جننيها، ترأمه ويصدف عنها تصدي له ويا باها، ثم وزع فيها فيئها وودعها
كما صحبها، فأروني ما ترتابون؟ وأي يومي أبي تنقمون؟ أيوم إقامته إذا عدل فيكم، أم
يوم ظعنه وقد نظر لكم؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.
ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت: أنشدكم الله، هل أنكرتم مما قلت شيئاً؟
قالوا: اللهم لا.
ذكر شرح غريب رسالتها رضي الله عنها
الأزفلة: الجماعة. وتعطوه: تناوله. والطود: الجبل. والمنيف: المشرف.
وأكديتم: خبتم ويئس من خيركم. وونيتم: فترتم وضعفتم. والأمد: الغاية.
ويريش: يعطي ويفضل. والمملق: الفقير. ويرأب: يجمع. والشعب: المفترق.
ويلم: يضم. واستشرى: جد وانكمش. والشكيمة: الأنفة والحمية. والوقيذ: العليل.
والجوانح: الضلوع القصار التي تقرب من الفؤاد. والشجي: الحزين. والنّشيج: صوت
البكاء. وانعطفت: انثنت. وامتثلوه: مثلوه. والغرض: الذي يقصد للرمي. وفلّوا:
كسروا. والصّفاة: الصخرة الملساء. وقصفوا: كسروا.
وسيساؤه: شدّته. والسّيساء:
عظم الظهر، والعرب تضربه مثلاً لشدّة الأمر، قال الشاعر:
لقد حملت قيس بن عيلان حربن على يابس السّيساء محدودب الظهر

والجران: الصدر. ورست: ثبت. ومرج: اختلط. وماج أهله: اضطربوا وتنازعوا.
وبغي الغوائل، معناه وطلب البلايا. وأكثب: قرب. والنّهز: اختلاس الشيء والظفر به
مبادرةً. ولات حين الذي يطلبون، معناه: وليست الساعة حين ظفرهم. وقولها: فجمع
حاشيتيه ورفع قطريه، معناه تحزم للأمر وتأهب له. والقطر: الناحية. والطب: الدواء.
والأود: العوج. والثّقاف: تقويم الرماح وغيرها. وابذعرّ: تفرق. وانتاش الدّين، أي أزل
عنه ما يخاف عليه. ونعشه: رفعه. وأراح الحق على أهله أي أعاد الزكاة التي منعتها
العرب فقاتل عليها حتى رّدت إلى حكم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وقرر الرءوس
على كواهلها، معناه وقى المسلمين القتل. والكاهل: أعلى الظهر وما يتصل به. وحقن
الدماء في أهبها، معناه أنه حقن دماء المسلمين في أجسادهم. والأهب: جمع إهاب وأصل
الإهاب الجلد. فكنت به عن الجسد. وقولها: لله درذأمَ حفلت له، أي جمعت له اللبن. وقولها:
أوحدت به، معناه جاءت به
منفرداً لا نظير له. وقولها: ففنّخ الكفرة، معناه أذلّها. وديخّها: صغّر بها. وبعج الأرض
وبخعها، معناه شقّها واستقصى غلّتها. وشذر مذر معناه تفريقاً، يقال: شذر مذر، وشغر
بغر، بمعنى واحد. قولها: حتى قاءت أكلها، معناه أخرجت خبزها. وترأمه: تعطف
عليها. وتصدّى له: تعرّض له.
ومن كلام علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ما كتب به إلى معاوية بن أبي سفيان جواباً
إن كتابه - وهو من محاسن الكتب - كتب رضي الله عنه:
أما بعد، فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم لدينه،
وتأييده إياه بمن أيده به من أصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً، أفطفقت تخبرنا بآلاء
الله عندنا؟ فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر، أو داعي مدرهٍ إلى النضال؛ وزعمت أن
أفضل الناس في الإسلام فلانٌ وفلان، فذكرت أمراً إن تم اعتزلك كله، وإن نقص لم يلحقك
قله؛ وما أنت والفاضل والمفضول، والسائل والمسئول؟ وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين

الأولين، وترتيب درجاتهم، وتعريف طبقاتهم؟ هيهات لقد "حن قدحٌ ليس منها" وطفق
يحكم فيها من عليه الحكم لها، ألا تربع على ظلعك، وتعرف قصور ذرعك، وتتأخر حيث
أخرك القدر، فما عليك غلبة المغلوب، ولا لك ظفر الظافر، وإنك لذهابٌ في التيه، رواغٌ
عن الفضل، ألا ترى - غير مخبر لك، ولكن بنعمة الله أحدث - أن قوماً استشهدوا في
سبيل الله من المهاجرين - ولكل فضل - حتى إذا استشهد شهيدنا "هو حمزة" قيل: سيد
الشهداء، وخصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرةً عند صلاته عليه؛ ألا
ترى أن قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله - ولكل فضل - حتى إذا فعل بأحدنا ما فعل
بأحدهم قيل: الطيار في الجنة، وذو الجناحين "هو جعفر" ولولا ما نهى الله عنه من تزكية
المرء نفسه لذكر ذاكرٌ فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمجها آذان السامعين، فدع
عنك من مالت به الدنية فإنا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع لنا، لم يمنعنا قديم عزنا،
وعادي طولنا على قومك أن خلطناهم بأنفسنا، فنكحنا فعل الأكفاء ولستم هناك، وأنى
يكون ذلك كذلك؟ ومنا النبي ومنكم المكذب، ومنا أسد الله، ومنكم أسد الأحلاف،
ومنا سيداً شباب أهل الجنة، ومنكم صبية النار، ومنا خير نساء العالمين، ومنكم حمالة
الحطب؛ فإسلامنا قد سمع، وجاهليتنا لا تدفع، كتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا و هو قوله
سبحانه: "وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله" وقوله تعالى: "إن أولى الناس
بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين" فنحن مرةً أولى بالقرابة،
وتارة أولى بالطاعة؛ ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله
عليه وسلم فلجوا عليهم، فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم، وإن يكن بغيره فالأنصار
على دعواهم؛ وزعمت أني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت، فإن يكن ذلك كذلك
فليست الجناية عليك، فتكون المعذرة إليك. "وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها".
وقلت: إني كنت أقادكما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع، ولعمر الله لقد أردت أن تذم

فحمدت، وأن تفضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضةٍ في أن يكون مظلوماً ما لم
يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً في يقينه، وهذه حجتي إلى غيرك قصدها، ولكني أطلقت لك
منها بقدر ما سنح من ذكرها.
ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان، فلك أن تجاب عن هذه لرحمه منك، فأينا كان
أعدى له، وأهدى إلى مقاتله؟ أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه، أمن استنصره
فتراخى عنه، وبث المنون إليه، حتى أتى قدره عليه؟ كلا والله "قد يعلم الله المعوقين
منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً" وما كنت أعتذر من أني كنت
أنقم عليه أحداثاً، فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له "فرب ملوم لا ذنب له"
وقد يستفيد الظنة المتنصح
وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت "وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت"؛ وذكرت أنه ليس
لي ولأصحابي إلا السيف، فلقد أضحكت بعد استعبار، متى ألفيت بني عبد المطلب عن
الأعداء ناكلين، وبالسيوف مخوفين؟ لبث قليلاً يلحق الهيجا حمل" فسيطلبك من تطلب،
ويقرب منك ما تستبعد، وأنا مرقلٌ نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم
بإحسان شديدٍ زحامهم، ساطع قتامهم، متسربلين سرابيل الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء
ربهم، قد صحبتهم ذريةٌ بدرية، وسيوفٌ هاشمية، قد عرفت مواقع نصالها في أخيك
وخالك وجدك وأهلك "وما هي من الظالمين ببعيد".
ومن كلام الأحنف بن قيس حين وبخه معاوية بن أبي سفيان بتخذيله عائشة رضي الله
عنها، وأنه شهد صفين، وقال له: فعلت وفعلت؛ فقال: يا أمير المؤمنين، لم ترد الأمور على
أعقابها؟ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف التي قاتلناك بها
لعلى عواتقنا، ولئن مددت بشبرٍ من غدرٍ، لنمدن باعاً من ختر، ولئن شئت لتستصفين كدر
قلوبنا بصفو حلمك؛ قال معاوية: أفعل.
وجلس معاوية يوماً وعنده وجوه الناس، وفيهم الأحنف، فدخل رجلٌ من أهل الشام،
فقال خطيباً، فكان آخر كلامه أن لعن علياً رضي الله عنه، فأطرق الناس، وتكلم

الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل آنفاً ما قال لو علم أن رضاك في لعن المرسلين
للعنهم، فاتق الله، ودع علياً فقد لقي الله، وأفرد في حفرته، وخلا بعمله، وكان والله - ما
علمنا - المبرز بشقه، الطاهر في خلقه، الميمون النقيبه، العظيم المصيبه. قال معاوية: يا
أحنف، لقد أغضيت العين على القذى، وقلت بغير ما ترى، وايم الله لتصعدن المنبر
فلتلعننه طائعاً أو كارهاً؛ فقال الأحنف: إن تعفني فهو خير، وإن تجبرني على ذلك فوا لله
لا تجري به شفتاي؛ فقال معاوية:
قم فاصعد؛ قال: أما والله لأنصفنك في القول والفعل؛ قال معاوية: وما أنت قائلُ إن
أنصفتني؟ قال: أصعد فأحمد اللّه وأثني عليه وأصليّ على نبيه، ثم أقول: أيها الناس، إن
معاوية أمرني أني ألعن علياً، ألا وإن عليّاً ومعاوية اختلفا واقتتلا، وادعي كل واحد منهما
أنه مبغي عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم اللّه؛ ثم أقول: اللهم العن أنت
وملائكتك وأنبياؤك ورسلك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه والفئة على المبغي
عليها، آمين يا رب العالمين؛ فقال معاوية: إذن نعفيك يا أبا بحر.
وأتى الأحنف مصعب بن الزبير يكلمه في قوم حبسهم فقال: أصلح اللّه الأمير، إن كانوا
حبسوا في باطل فالحق يخرجهم، وإن كانوا حبسوا في حق فالعفو يسعهم؛ فخّلاهم.
ولما قدم وفد العراق علة معاوية وفيهم الأحنف، خرج الآذن فقال: إنّ أمير المؤمنين يعزم
عليكم ألا يتكلم أحد إلا لنفسه، فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزمة أمير المؤمنين
لأخبرته أن دأفةً" أي الجماعة" دفت، ونازلةً نزلت، ونائبةً نابت، وكلهم بهم الحاجة إلى
معروف أمير المؤمنين وبره؛ فقال: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيت الغائب والشاهد.
ولما خطب زياد بن أبيه بالبصرة قام الأحنف فقال: للّه الأمير قد فلت فأسمعت، ووعظت فأبلغت؛ أيها الأمير، إنما السيف بحده، والقوس
بشده، والرجل بمجده؛ وإنما الثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء؛ ولن نثني حتى نبتلي،
ولا نحمد حتى نعطي.
ولما حكم أبو موسى الأشعري أتاه الأحنف فقال له: يا أبا موسى، إن هذا مسير له ما

بعده من عزّ الدنيا أو ذلّها آخر الدهر، ادع القوم إلى طاعة عليّ، فإن أبوا فادعهم أن يختار
أهل الشام من قريش العراق من أحبوا، ويختار أهل العراق من قريش الشام من أحبوا،
وإياك إذا لقيت ابن العاص أن تصافحه بنية، وأن يقعدك على صدر المجلس، فإنها خديعةٌ،
وأن يضمك وإياه بيتٌ فيمكن لك فيه الرجال، ودعه فليتكلم لتكون عليه بالخيار، فالبادئ
مستغلقٌ، والمجيب ناطقٌ؛ فما عمل أبو موسى إلا بخلاف ما قال الأحنف وأشار به، فكان
من الأمر ما كان؛ فلقيه الأحنف بعد ذلك فقال له: أدخل واللّه قدميك في خفّ واحدةٍ.
وقال بخراسان:" يا بني تميم، تحابوا" تجتمع كلمتكم" وتباذلوا تعتدل أموركم، وابدءوا بجهاد
بطونكم وفروجكم يصلح دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم.
ولمّا قدمت الوفود على عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، قام هلال بن بشر فقال: يا أمير
المؤمنين: إنا غرّة من خلفنا من قومنا، وسادة من وراءنا من أهل مصرنا؛ وإنك إن تصرفنا
بالزيادة في أعطيتنا، والفرائض لعيالتنا، يزدد بذلك الشريف تأميلاً، وتكن لهم أبا وصولاً؛
وإن تكن مع ما نمت" به" من وسائلك، وندلي "به" من أسبابك كالجدل لا يحل ولا يرتحل،
نرجع بأنوف مصلومة، وجدودٍ عاثرةٍ، فمحنا وأهلينا بسجلٍ مترعٍ "أي الدلو الملآنة" من
سجلاك المترعة.
وقام زيد بن جبلة فقال: يا أمير المؤمنين، سودّ الشريف، وأكرم الحسيب، وازرع عندنا من
أياديك ما تسدّ به الخصاصة، وتطرد به الفاقة؛ فإنا بقفر من الأرض يابس الأكناف، مقشعرّ
الذروة، لا متّجر ولا زرع، وإنا من العرب اليوم إذ أتيناك بمرأي ومسمع.
فقام الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن مفاتيح الخير بيد اللّه، والحرص قائد الحرمان، فاتق
اللّه فيما لا يغني عنك يوم القيامة قيلاً ولأ قالا، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل
والإنصاف شيئاً يكفيك وفادة الوفود، واستماحة الممتاح، فإن كلّ امرئ إنما يجمع في وعائه
إلا الأقل ممن عسى أن تقتحمه الأعين فلا يوفد إليك.
ومن كلام أم الخير بن الحريش البارقية، - وكانت من الفصحاء - حكي أنها لما وفدت

على معاوية قال لها كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر؟
قالت: لم أكن والله زورته
قبل ولا رويته بعد، إنما كانت كلماتُ نفثهن لساني حين الصدمة،
فإن شئت أن أحدث لك
مقالاً غير ذلك فعلت، قال: لا أشاء ذلك، ثم التفت إلى أصحابه
فقال: أيكم حفظ كلام أم
الخير؟ فقال رجل من القوم: أنا أحفظه يا أمير المؤمنين
كحفظي سورة الحمد، قال: هاته،
قال: نعم، كأني يا أمير المؤمنين عليها بردٌ زبيدي، كثيف
الحاشية، وهي على جمل أرمك،
وقد أحيط حولها وبيدها سوطٌ منتشر الصفر، وهي كالفحل
يهدر في شقشقته تقول: "يا
أيها الناس اتقوا ربكم إن لزلزلة الساعة شيءٌ عظيم" إن الله
قد أوضح الحق، وأبان الدليل،
ونور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا
سوداء مدلهمة؛ فأنى تريدون
رحمكم الله؟ أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الزحف، أم
رغبةً عن الإسلام، أم
ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول: "ولنبلونكم
حتى نعلم المجاهدين منكم
والصابرين ونبلو أخباركم" ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي
تقول: اللهم قد عيل الصبر،
وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمة القلوب،
فاجمع الكلمة على التقوى،
وألف القلوب على الهدى، ورد الحق إلى أهله؛ هلموا رحمكم
الله إلى الإمام العادل،
والوصي الوفي، والصديق الأمير؛ إنها إحنٌ بدرية، وأحقادٌ
جاهلية، وضغائن أحدية، وثب
معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس؛ ثم قالت:
قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا
أيمان لهم لعلهم ينتهون؛ صبراً معشر المهاجرين والأنصار،
قاتلوا على بصيرة من ربكم،
وثباتٍ من دينكم، وكأني بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كحمةٍ
مستنفرة، فرت من قسورة،
لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا،
واشتروا الضلالة بالهدى،
وباعوا البصيرة بالعمى، و "عما قليل ليصبحن نادمين" حين تحل
بهم الندامة، فيطلبون
الإقالة، إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن يسكن
الجنة نزل النار، أيها الناس،
إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطئوا مدة
الآخرة فسعوا لها؛ والله أيها

الناس، لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر
الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما
اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون
- رحمكم الله -؟ عن
ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته، وأبي
ابنيه، خلق من طينته، وتفرع
عن نبعته، وخصه بسره، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه
المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين؛
فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته، ويمضي على سنن استقامته،
لا يعرج لواحة اللذات؛ وهو
مفلق الهام، ومكسر الأصنام؛ إذ صلى والناس مشركون، وأطاع
والناس مرتابون؛ فلم يزل
كذلك حتى قتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وفرّق جمع
هوازن، فيالها وقائع زرعت في
قلوب قومٍ نفاقاً، وردةً وشقاقاً وقد اجتهدت في القول،
وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق؛
وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلي، والله لو
قتلت ما حرجت في ذلك؛
قالت: والله ما يسوءني يا ابن هند أن يجري الله ذلك على يدي
من يسعدني الله بشقائه؛
قال: هيهات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان؟
قالت: وما عسيت أن أقول
فيه؟ استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛
فقال: إيهاً يا أم الخير، هذا والله
أصلك الذي تبنين عليه؛ لكن الله يشهد "وكفى بالله شهيداً" ما
أردت بعثمان نقصاً، ولقد
كان سباقاً إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجات؛ قال: فما تقولين
في طلحة بن عبيد الله؟
قالت: وما عسى أن أقول في طلحة؟ اغتيل من مأمنه، وأتي
من حيث لم يحذر، وقد
وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة؛ قال: فما تقولين
في الزبير؟ قالت: يا هذا لا
تدعني كرجيع الضبع يعرك في المركن؛ قال: حقاً لتقولن ذلك،
وقد عزمت عليك؛ قالت: وما
عسيت أن أقول في الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه
وسلم وحواريه، وقد شهد له
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان سباقاً إلى
كل مكرمةٍ في الإسلام؛ وإني
أسألك بحق الله يا معاوية - فإن قريشاً تحدث أنك من أحلمها -
أن تسعى بفضل حلمك،

وأن تعفيني من هذه المسائل، وامض إلى ما شئت من غيرها؛ قال: نعم وكرامة، قد
أعفيتك، وردها مكرمةً إلى بلدها.
وممن اشتهر بالفصاحة والبلاغة زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي، وسنذكر من
كلامهما في التاريخ عند ذكرنا لأخبارهما لما ولي كل منهما العراق، وما خطب الناس به،
ولنذكر في هذا الموضع من كلام الحجاج ما لم نورده هناك.
قيل: لما قدم الحجاج البصرة خطب فقال: أيها الناس، من أعياه داؤه فعندي دواؤه؛ ومن
استطال أجله، فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله؛ ومن استطال
ماضي عمره قصرت عليه باقيه؛ إن للشيطان طيفاً، وللسلطان سيفاً؛ فمن سقمت
سريرته، صحت عقوبته؛ ومن وضعه ذنبه، رفعه صلبه، ومن لم تسعه العافية، لم تضق عنه
الهلكة؛ ومن سبقته بادرة فمه، سبق بدنه بسفك دمه؛ إني أنذر ثم لا أنظر، وأحذر ثم لا
أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو، إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم، ومن استرخى لببه ساء أدبه، إن
الحزم والعزم سلباني سوطي، وأبدلاني به سيفي، فقائمه في يدي، ونجاده في عنقي، وذبابه
قلادةٌ لمن عصاني، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من
الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه.
قال مالك بن دينار: ربما سمعت الحجاج يذكر ما صنع فيه أهل العراق وما صنع بهم، فيقع
في نفسي أنهم يظلمونه لبيانه وحسن تخليصه لحجج.
وخطب الحجاج بعد وقعة دير الجماجم فقال: يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم
فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى
المخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشعش، ثم باض ففرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، وأشعركم
خلافاً، واتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤامراً تستشيرونه؛ فيكف تنفعكم
تجربة، أو تعظم وقعة؛ أو يحجزكم إسلام، أو ينفعكم بيان؟
ألستم أصحابي بالأهواز؟
حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أن الله خذل دينه
وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي، تتسللون لواذاً، وتنهزمون سراعاً، ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية

كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم، ونكوص وليكم عنكم إذ وليتم كالإبل
الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطانها؛ لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على
بينه؛ حتى عظكم السلاح، وقصمتكم الرماح، ثم دير الجماجم، وما دير الجماجم! بها
كانت المعارك والملاحم؛ بضربٍ يزيل الهام عن مقيله، ويصرف الخليل عن خليله؛ يا أهل
العراق، والكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الخترات، والثورة بعد الثورات؛ إن بعثتكم
إلى ثغوركم غللتم وجبنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم؛ لا تذكرون حسنةً، ولا
تشكرون نعمة؛ يا أهل العراق هل استخفكم ناكثٌ، أو استغواكم غاوٍ، أو استفزكم عاصٍ،
أو استنصركم ظالمٌ، أوٍ استعضدكم خالعٌ، إلا اتبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكيتموه؟ يا أهل
العراق، قلما شغب شاغب، أو نعب ناعب، أو زفر كاذب إلا كنتم أتباعه وأنصاره؛ يا أهل
العراق، ألم تنهكم المواعظ، ولم تزجركم الوقائع. ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل
الشام، أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه، ينفي عنها المدر، ويباعد عنها الحجر، ويكنها
من المطر؛ ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذئاب؛ يا أهل الشام، أنتم الجنة والرداء،
وأنتم العدة والحذاء.
ومن مكاتباته إلى المهلب بن أبي صفرة وأجوبة المهلب له كتب الحجاج إليه وهو في وجه
الخوارج: أما بعد، فإنه بلغني أنك قد أقبلت على جيابة الخراج، وتركت قتال العدو، وإني
وليتك وأنا أرى مكان عبد الله ابن حكيم المجاشعي، وعباد بن حصين الحبطي،
واخترتك وأنت رجل من الأزد، وأنا أقسم إن لم تلقهم في يوم كذا أشرعت إليك صدر
الرمح. فأجابه المهلب: ورد علي كتابك تزعم أني أقبلت على جباية الخراج، وتركت قتال
العدو لعجز؛ وزعمت أنك وليتني وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم وعباد بن حصين،
ولو وليتهما لكانا مستحقين لذلك في فضلهما وغنائهما؛ وأنك اخترتني وأنا رجل من الأزد،
لعمري إن شرا من الأزد لقبيلةٌ تنازعها ثلاث قبائل لم تستقر في واحدة منهن؛ وزعمت أني

إن لم ألقهم في يوم كذا أشرعت إلي صدر الرمح، فلو فعلت لقلبت إليك ظهر المجن.
ووجه إليه الحجاج يستبطئه في مناجزة القوم، وكتب إليه: أما بعد، فإنك جبيت الخراج
بالعلل، وتحصنت بالخنادق، وطاولت القوم وأنت أعز ناصراً وأكثر عدداً، وما أظن بك مع
هذا معصيةً ولا جبناً، ولكنك اتخذتهم أكلاً، ولإبقائهم أيسر عليك من قتالهم، فناجزهم
وإلا أنكرتني، والسلام.
فقال المهلب للجراح: يا أبا عقبة، والله ما تركت حيلةً إلا احتلتها، ولا مكيدةً إلا عملتها،
وليس العجب من إبطاء النصر، وتراخى الظفر، ولكن العجب أن يكون الرأي لمن يملكه
دون من يبصره؛ ثم ناهضتم ثلاثة أيام يغاديهم، ولا يزالون كذلك إلى العصر حتى قال الجراح:
قد اعتذرت؛ وكتب إلى الحجاج: أتاني كتابك يستبطئ لقاء القوم، على أنك لا تظن بي
معصيةً ولا جبناً، وقد عاتبتني معاتبة الجبان، وأوعدتني وعيد العاصي، فسل الجراح
والسلام. فكتب إليه الحجاج: أما بعد، فإنك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رسلي
ويرجعون بعذرك، وذاك أنك تمسك حتى تبرأ الجراح وتنسى القتلى، ويجم الناس، ثم
تلقاهم فتحمل منهم مثل ما يحملون منك من وحشة القتل وألم الجراح، ولو كنت تلقاهم
بذلك الجد لكان الداء قد حسم، والقرن قد قصم، ولعمري ما أنت والقوم سواءٌ، لأن من
ورائك رجالاً، وأمامك أموالاً، وليس للقوم إلا ما معهم، ولا يدرك الوجيف بالدبيب، ولا
الظفر بالتعذير.
فكتب إليه المهلب: أما بعد، فإني لم أعط رسلك على قول الحق أجراً، ولم أحتج منهم مع
المشاهدة إلى تلقين؛ وذكرت أني أجم القوم، ولابد من راحة يستريح فيها الغالب ويحتال
المغلوب؛ وذكرت أن في الإجمام ما ينسي القتلى، ويبرئ الجراح، وهيهات أن ينسى ما بيننا
وبينهم، يأبى ذلك قتل من لم يجن، وقروح لم تتقرف؛ ونحن والقوم على حالة، وهم يرقبون
حالات، إن طمعوا حاربوا، وإن ملوا وقفوا، ونطلب إذا هربوا، فإن تركتني فالداء بإذن الله
محسوم، وإن أعجلتني لم أطعك ولم أعص، وجعلت وجهي إلى بابك، وأنا أعوذ بالله من

سخط الله مقت الناس.
وقال المهلب لبنيه: يا بني تباذلوا تحابوا، فإن بني الأم يختلفون، فكيف بني العلات؛ إن البر ينسأ في الأجل، ويزيد في العدد، وإن القطيعة تورث القلة، وتعقب النار بعد الذلة؛ واتقوا زلة اللسان، فإن الرجل تزل رجله فينتعش، ويزل لسانه فيهلك؛ وعليكم في الحرب بالمكيدة، فإنها أبلغ من النجدة.
ولما استخلف ابنه المغيرة على حرب الخوارج، وعاد هو إلى عند مصعب بن الزبير، جمع الناس فقال لهم: إني قد استخلفت عليكم المغيرة، وهو أبو صغيركم رقةً ورحمة، وابن كبيركم طاعةً وتبجيلاً وبراً، وأخو مثله مواساةً ومناصحةً، فلتحسن له طاعتكم، وليلن له جانبكم، فوا لله ما أردت صواباً قط إلا سبقني إليه.
وخطب عبد الملك بن مروان، فلما بلغ الغلظة قام إليه رجل من آل صوحان فقال: مهلا مهلاً يا بني مروان، تأمرون ولا تأتمرون، وتَنهون ولا تُنهون، وتَعظون ولا تتعظون؛ أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلتم: اقتدوا بسيرتنا، فأنى وكيف، وما الحجة، وما المصير من الله؟ أنقتدي بسيرة الظلمة الفسقة الجورة الخونة، الذين اتخذوا مال الله دولاً، وعبيده خولاً؟ وإن قلتم: اسمعوا نصيحتنا، وأطيعوا أمرنا، فكيف ينصح لغيره من يغش نفسه؟ أم كيف تجب الطاعة لم لم تثبت عند الله عدالته؟ وإن قلتم: خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، وأقبلوا العظة ممن سمعتموها، فعلام ولياكم أمرنا، وحكمناكم في دمائنا وأموالنا؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات، وأفصح بالعظات؟ فتخلوا عنها، وأطلقوا عقالها، وخلوا سبيلها، ينتدب إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شردتموهم في البلاد، ومزقتموهم في كل واد، بل تثبت في أيديكم لانقضاء المدة، وبلوغ المهلة، وعظم المحنة؛ إن لكل قائمٍ قدراً لا يعدوه، ويوماً لا يخطوه، وكتاباً بعده يتلوه، "لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها" "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون" . ثم التمس الرجل فلم يوجد.
ومن كلام قطري بن الفجاءة - وكان من البلغاء الأبطال، فمن ذلك هطبته المشهورة التي

قال فيها:
أما بعد، فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوةٌ خضرة، حفت بالشهوات، وراقت بالقليل،
وتحببت بالعاجلة، وحليت بالآمال، وتزينت بالغرور؛ لا تقوم نضرتها، ولا تؤمن فجيعتها؛
غرارةٌ ضرارة، وحائلةٌ زائلة، ونافدةٌ بائدة، أكالةٌ غوالة؛ لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل
الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى: " كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به
نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً" مع أن امرأ لم
يكن معها في حبرة " أي السرور"، إلا أعقبته بعدها حسرة، ولم يلق من سرائها بطناً إلا
منحته من ضرائها ظهراً، ولم تصله غيثة رخاء، إلا هطلت عليه مزنة بلاء؛ وحريةٌ إذا
أصبحت له منتصرة، أن تمسى له خاذلة متكره؛ وإن جانبٌ منها اعذوذب واحلولي، أمر
عليه منها جانب وأوبا، فأن أتت امرأ من غصونها ورقاً أرهقته من نوائبها تعباً، ولم يمس
منها امرؤ في جناح أمنٍ إلا أصبح منها في قوادم خوف، غرارةٌ غرورٌ ما فيها، فانيةٌ فانٍ من
عليها؛ لا خير في شيء من زادها إلا التقوى، من أقل منها استكثر مما يؤمنه ومن استكثر
مها استكثر مما يوبقه ويطيل حزنه، ويبكي عينه؛ كم واثقٍ بها قد فجعته، وذي حلم تنبه
إليه قد صرعته، وذي احتيالٍ فيها قد خدعته؛ وكم ذي أبهة فيها قد صيرته حقيراً، وذي
نخوة ردته ذليلاً، ومن ذي تاج قد كبته لليدين والفم؛ سلطانها دول، وعيشها رنق "أي الماء
الكدر" وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام، وقطافها سلع؛
حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، وميعها بعرض اهتضام؛ وملكها مسلوب،
وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب وجارها محروب؛ مع أن وراء ذلك سكرات الموت،
وهول المطلع، والوقوف بين يدي الحكم العدل "ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين
أحسنوا بالحسنى" ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول منكم أعماراً، وأوضح منكم
آثاراً؛ وأعد عديداً وأكثف جنوداً، وأشد عقوداً، تعبدوا للدنيا أي تعبد، وآثروها أي

إيثار، وظعنوا بالكره والصغار، فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفساً بفدية، أو أغنت
عنهم فيما قد أهلكتهم بخطب؟ بل قد أرهقتم بالفوادح، وضعضعتم بالنوائب، وعقرتهم
بالفجائع؛ وقد رأيتم تنكرها لم رادها وآثرها وأخلد إليها، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد، إلى
آخر المسند؛ هل زودتهم إلا السغب، وأحلتهم إلا الضنك، أو نورت لهم إلا الظلمة، أو
أعقبتهم إلا الندامة؟ أفهذه تؤثرون، أم على هذه تحرصون، أم إليها تطمئنون؟ يقول الله
تعالى: "من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون"
فبئست الدار لمن أقام فيها، فاعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها لابد، فإنما هي كما
وصفها الله باللعب واللهو، وقد قال الله تعالى: "أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع
لعلكم تخلدون وإذا بطشتم جبارين".
وذكر الذين قالوا: "من أشد منا قوة ثم قال: حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً، وأنزلوا
فلا يرعون ضيفاناً، وجعل الله لهم من الضريح أكناناً، ومن الوحشة ألواناً، ومن الرفات
جيراناً؛ وهم في جيرة لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيماً، إن أخصبوا لم يفرحوا، وإن
قحطوا لم يقنطوا؛ جمعٌ وهم آحاد، جيرةٌ وهم أبعاد؛ متناءون، لا يزورون ولا يزارون؛
حلماء قد ذهبت أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم؛ لا يرجى نفعهم، ولا يخشى
دفعهم؛ وكما قال الله تعالى: "فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن
الوارثين" فاستبدوا بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة،
ففارقوها كما دخلوها، حفاةً عراةً فرادى، غير أن ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة، وإلى
خلود الأبد، يقول الله تعالى: "كما بدأنا أول خلقٍ نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين"
فاحذروا ما حذركم الله، وانتفعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله، عصمنا الله وإياكم بطاعته،
ورزقنا وإياكم أداء حقه.
ومن كلام أبي مسلم الخراساني صاحب الدولة، قيل له: ما كان سبب خروج الدولة عن
أبي أمية؟ فقال: لأنهم أبعدوا أولياءهم ثقةً بهم، وأدنوا أعداءهم تألفاً لهم، فلم يصر العدو

بالدنو صديقاً، وصار الصديق بالبعاد عدواً.
وقيل له في حداثته: إنا نراك تأرق كثيراً ولا تنام، كأنك موكل برعي الكواكب، أو متوقعٌ
الوحي في السماء، فقال: والله ما هو ذاك، ولكن لي رأيٌ جوال، وغريزةٌ تامة، وذهنٌ
صافٍ، وهمةٌ بعيدةٌ، ونفسٌ تتوق إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهمج والرعاع، وحال
متناهيةٍ من الاتضاع، وإني لأرى بعض هذا مصيبةً لا تجبر بسهر، ولا تتلافى بأرق؛ قيل له:
فما الذي يبرد غليلك، ويشفي إجاج صدرك؟ قال: الظفر بالملك؛ قيل له: فاطلب؛ قال: إن
الملك لا يدرك إلا بركوب الأهوال؛ قيل: فاركب الأهوال؛ قال: هيهات، العقل مانعٌ من ركوب
الأهوال؛ قيل: فما تصنع وأنت تبلى حسرةً، وتذوب كمداً؟ قال: سأجعل من عقلي بعضه
جهلاً، وأحاول به خطراً، لأنال بالجهل ما لا تنال إلا به، وأدبر بالعقل ما لا يحفظ إلا بقوته،
وأعيش عيشاً يبين مكان حياتي فيه من مكان موتي عليه، فإن الخمول أخو العدم،
والشهرة أبو الكون.
وكتب إليه عبد الحميد بن يحيى كتاباً عن مروان بن محمد، وقال لمروان: قد كتبت كتاباً
إن نجع فذاك، وإلا فالهلاك، وكان لكبر حجمه يحمل على جمل، نفث فيه حواشي صدره،
وضمنه غرائب عجره وبجره، فلما ورد على أبي مسلم دعا بنار فطرحه فيها إلا قدر ذراع
فإنه كتب عليه:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى ليوث الوغى يقد من كل جانب
فإن يقدموا تعمل سيوفاً شحيذةً يهون عليها العب من كل عاتب

ورده، فأيس الناس من معالجته.
وقيل: إنه شجر بينه وبي صاحب مروٍ كلامٌ أربى فيه صاحب مروٍ عليه، فاحتمله أبو
مسلم وقال: مَهْ، لسانٌ سبق، ووهمٌ أخطأ، والغضب شيطان، وأنا جرأتك علي
باحتمالك، فإن كنت للذنب متعمداً فقد شاركتك فيه، وإن كنت مغلوباً فالعفو يسعك،
فقال له صاحب مرو: عظم ذنبي يمنع قلبي من الهدوء؛ فقال أبو مسلم: يا عجباً، أقابلك
بإحسان وأنت تسيء، ثم أقابلك بإساءة وأنت تحسن! فقال صاحب مرو: الآن وثقت

بعفوك.
جماعة من أمراء الدولتين
خطب يوسف بن عمر فقال: اتقوا الله عباد الله، فكم من مؤمل أملاً لا يبلغه، وجامعٍ مالاً
لا يأكله، ومانعٍ ما سوف يتركه؛ ولعله م باطلٍ جمعه، ومن حق منعه؛ أصابه حراماً، وورثه
عدواً؛ واحتمل إصره، وباء بوزره، وورد على ربه آسفاً لاهفاً "خسر الدنيا والآخرة ذلك
هو الخسران المبين".
وقام خالد بن عبد الله القسري على المنبر خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على
النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا أيها الناس، نافسوا في المكارم، وسارعوا إلى المغانم،
واشتروا الحمد بالجود، ولا تكسبوا بالمطل ذماً، ولا تعتدوا بالمعروف ما لم تعجلوه، ومهما
يكن لأحدكم عند أحد نعمةٌ فلم يبلغ شكرها فالله أحسن لها جزاءً، وأجزل عليها
عطاء؛ واعلموا أن حوائج الناس إليكم نعمةٌ من الله عليكم؛ فلا تملوا النعم فتحول نقماً؛
واعلموا أن أفضل المال ما أكسب أجراً، وأورث ذكراً؛ ولو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه
حسناً جميلاً يسر الناظرين، ولو رأيتم البخل رجلاً رأيتموه مشوهاً قبيحاً، تنفر عنه
القلوب، وتغض عنه الأبصار؛ أيها الناس، إن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه، وأعظم
الناس عفواً من عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل من قطعه، ومن لم يطب حرثه لم
يزك نبته؛ والأصول عن مغارسها تنمو، وبأصولها تسمو؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي
ولكم.
قيل لما ولي أبو بكر بن عبد الله المدينة وطال مكثه عليها كان يبلغه عن قوم من أهلها
أنهم لا ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإسعافٌ من آخرين لهم على
ذلك، فأمر أهل البيوتات ووجوه الناس في يوم جمعة أن يقربوا من المنبر، فلما فرغ من خطبة
الجمعة قال: أيها الناس، إني قائل قولاً، فمن وعاه وأداه فعلى الله جزاؤه، ومن لم يعه فلا
يعدو من ذمامها، إن قصرتم عن تفصيله، فلن تعجزوا عن تحصيله، فأرعوه أبصاركم،
وأوعوه أسماعكم، وأشعروه قلوبكم؛ فالموعظة حياة، والمؤمنون إخوة "وعلى الله قصد

السبيل" "ولو شاء لهداكم أجمعين" فأتوا الهدى تهتدوا، واجتنبوا الغي ترشدوا، "وتوبوا إلى
الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون" والله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، أمركم بالجماعة
ورضيها لكم، ونهاكم عن الفرقة وسخطها منكم، "فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم
مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً
فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها"
جعلنا الله وإياكم ممن تبع رضوانه، وتجنب سخطه، فإنما نحن به وله؛ وإن الله بعث محمداً
صلى الله عليه وسلم بالدين، واختاره على العالمين، واختار له أصحاباً على الحق، ووزراء
دون الخلق، اختصهم به، وانتخبهم له، فصدقوه ونصروه، وعزروه ووقروه، فلم يقدموا إلا
بأمره، ولم يحجموا إلا عن رأيه، وكانوا أعوانه بعهده، وخلفاءه من بعده، فوصفهم فأحسن
صفتهم، وذكرهم فأثنى عليهم، فقال - وقوله الحق -: "محمدٌ رسول الله والذين معه أشداء
على الكفار" إلى قوله: "مغفرةً وأجراً عظيماً" فمن غاظوه كفر وخاب، وفجر وخسر، وقال
الله عز وجل: "للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله
ورضواناً" إلى قوله: "ربنا إنك رءوفٌ رحيم" فمن خالف شريطة الله عليه لهم، وأمره إياه
فيهم، فلا حق له في الفيء، ولا سهم له في الإسلام في آيٍ كثيرة من القرآن؛ فمرقت مارقةٌ
من الدين، وفارقوا المسلمين، وجعلوهم عضين؛ وتشعبوا أحزاباً، أشاباتٍ وأوشاباً؛ فخالفوا
كتاب الله فيهم، وثناءه عليهم، وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، فحابوا
وخسروا الدنيا والآخرة "ذلك هو الخسران المبين" "أفمن كان على بينةٍ من ربه كمن زين له
سوء عمله واتبعوا أهواءهم"؛ مالي أرى عيوناً خزراً، ورقاباً صعراً، وبطوناً بجراً؟ شجىً
لا يسيغه الماء، وداءً لا يشرب فيه الدواء؛ "أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً
مسرفين" كلا والله، بل هو الهناء والطلاء حتى يظهر العذر، ويبوح السر، ويضح الغيب،
ويسوّس الجنب؛ فإنكم لم تخلفوا عبثاً، ولم تتركوا سدى؛ ويحكم إني لست أتاوياً أعلم، ولا

بدوياً أفهم؛ قد حلبتكم أشطراً، وقلبتكم أبطناً وأظهراً؛ فعرفت أنحاءكم وأهواءكم،
وعلمت أن قوماً أظهروا الإسلام بألسنتهم، وأسروا الكفر في قلوبهم، فضربوا بعض
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض، وولدوا الروايات فيهم، وضربوا الأثمال،
ووجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعواناً يأذنون لهم، ويصغون إليهم؛ مهلاً مهلاً
قبل وقوع القوارع، وطول الروائع، هذا لهذا ومع هذا، فلست أعتنش آثباً ولا تائباً، "عفا
الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيزٌ ذو انتقام" فأسروا خيراً وأظهروه،
واجهروا به وأخلصوا، فطالما مشيتم القهقرى ناكصين، وليعلم من أدبر وأصر أنها موعظة
بين يدي نقمة؛ ولست أدعوكم إلى أهواء تتبع، ولا إلى رأيٍ يبتدع؛ إنما أدعوكم إلى الطريقة
المثلى، التي فيها خير الآخرة والأولى؛ فمن أجاب فإلى رشده، ومن عمى فعن قصده؛ فهلم
إلى الشرائع الجدائع، ولا تولوا عن سبيل المؤمنين، ولا تستبدلوا الذي هو أدى بالذي هو
خير، "بئس للظالمين بدلاً" إياكم وبنيات الطريق، فعندها الترنيق والرهق، وعليكم بالجادة،
فهي أسد وأورد، ودعوا الأماني فقد أردت من كان قبلكم، وليس للإنسان إلا ما سعى،
ولله الآخرة والأولى، و "لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذابٍ وقد خاب من افترى"
"ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذا هديتنا وهب لنا لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب".
هذا ما اتفق إيراده من رسائل وخطب بلغاء الصحابة - رضي الله عنهم - وكلام التابعين
وغيرهم مما يحتاج الكاتب إلى حفظه.
وأما رسائل المتقدمين والمعاصرين التي يحتاج إلى النظر إليها دون حفظها - فهي كثيرة
جداً، سنورد من جيدها ما تقف عليه إن شاء الله.
من رسائل وفصول الكتاب
والبلغاء المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين من المشارقة والمغاربة
وهذه الرسائل والفصول كثيرة جداً، وقد قدمنا منها فيما مر من كتابنا هذا ما حلا ذكره،
وفاح نشره، وأنس به سامعه، وأيس من الإتيان بمثله صانعه، وأوردنا في كل باب وفصلٍ منه

ما يناسبه، وسنورد إن شاء الله في فني الحيوان والنبات عند ذكر كل حيوان أو نبات
يستحق الوصف ما سمعناه وطالعناه من وصفه نظماً ونثراً، مع ما يندرج في فن التاريخ من
الرسائل والفصول والأجوبة والمحاورات عند ذكر الوقائع، وإنما نورده ثم وإن كان هذا
موضعه ليكون الكلام فيه شاقةً، وترد الوقائع يتلو بعضها بعضاً، فلا ينقطع الكلام على ما
تقف إن شاء الله تعالى عليه في مواضعه، فلنورد في هذا الموضع ما هو خارج عن ذلك
النمط من كلامهم، ولنبدأ بذكر شيء من المكاتبات البليغة الموجزة؛
من ذلك ما كتب به عبد الحميد بن يحيى بالوصاة على إنسانٍ فقال: حق موصل هذا
الكتاب عليك كحقه علي إذ رآك موضعاً لأمله، ورآني أهلاً لحاجته، وقد أنجزت حاجته،
فحقق أمله.
ومنه ما حكي أن المأمون قال لعمر بن مسعدة: اكتب إلى فلنٍ كتاب عنايةٍ بفلان في سطر
واحد، فكتب: هذا كتاب واثقٍ بمن كتب إليه، معتنٍ بمن كتب له، ولن يضيع الثقة والعناية
حامله.
وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون يستعطفه على الجند: كتابي إلى أمير المؤمنين ومن
قبلي من أجناده وقواده في الطاعة على أفضل ما تكون عليه طاعة جندٍ تأخرت أرزاقهم،
واختلت أحوالهم. فأمر بإعطائهم رزق ثمانية أشهر.
وكتب أحمد بن يوسف إلى المأمون يذكره بمن على بابه من الوفود فقال:
إن داعي نداك، ومنادي جدواك، جمعاً ببابك الوفود، يرجون نائلك العتيد؛ فمنهم من يمت
بحرمة، ومنهم من يدلي بخدمة؛ وقد أحجف بهم المقام، وطالت عليهم الأيام؛ فإن رأى أمير
المؤمنين أن ينعشهم بسيبه، ويحتوش ظنونهم بطوله فعل.
فوقّع المأمون في كتابه: الخير متبع،
وأبواب الملوك مواطن لذوي الحاجات، فاحص أسماءهم، واجل موائنهم، ليصير إلى كل
امرئ منهم قدر استحقاقه، ولا تكدر معروفاً بالمطل والحجاب، فإن الأول يقول:

فإنك لن ترى طرداً لحر كإلصاق به طرف الهوان
ولم يجلب مودة ذي وفاء كمثل البذل أو بسط اللسان

وكتب محمدٌ إلى يحيى بن هرمة - وكان عامله على أصفهان، وقد تظلم منه أهلها -: يا
يحيى، قد كثر شاكوك، وقل شاكروك؛ فإما عدلت، وإما اعتزلت.
وكتب أبو بكر الخوارزمي جواباً عن هدية: وصلت التحفة، ولم يكن لها عيب إلا أن
باذلها مسرفٌ في البر، وقابلها مقتصدٌ في الشكر؛ والسرف مذمومٌ إلا في المجد، والاقتصاد
محمودٌ إلا في الشكر والحمد.
وكتب مالك الروم إلى المعتصم يتوعده ويتهدده، فأمر الكتاب أن يكتبوا جوابه، فكتبوا فلم
يعجبه مما كتبوا شيءٌ، فقال لبعضهم: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد قرأت
كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، "سيعلم الكافر لمن عقبى الدار".
ومن كلام بديع الزمان أبي الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني - قيل: ذكر الهمذاني في مجلس
أبي الحسن بن فارس فقال ما معناه: إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه، وعقنا وشمخ بأنفه
عنا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الإسنان؛ فبلغ ذلك البديع، فكتب إلى أبي
الحسين:
نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام، إنه الحمأ المسنون، وإن ظنت الظنون؛ والناس لآدم، وإن
كان العهد قد تقادم؛ وارتبكت الأضداد، واختلط الميلاد؛ والسيخ يقول: فسد الزمان، أفلا
يقول: متى كان صالحاً؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها؛ أم المدة
المروانية وفي أخبارها "لا تكسع الشول بأغبارها"؛ أم السنين الحربية.

والسيف يعمل في الطلى والرمح يركز في الكلى
ومبيت حجرٍ في الفلا والحرتان وكربلا

أم البيعة الهاشمية وعلي يقول: ليت العشرة منكم براس، من بني فراسٍ؛ أم الأيام الأموية
والنفير إلى الحجاز، والعيون إلى الأعجاز؛ أم الإمارة العدوية وصاحبها يقول: هلموا إلى
النزول؛ أم الخلافة التيمية وهو يقول: طوبى لمن مات في نأنأة الإسلام؛ أم على عهد الرسالة
ويوم الفتح قيل: اسكني يا فلانة، فقد ذهبت الأمانة؛ أم في الجاهلية ولبيدٌ يقول:
وبقيت في خلفٍ كجلد الأجرب
أم يقل ذلك وأخو عادٍ يقول:

بلادٌ بها كنا وكنا نحبها إذ الناس ناسٌ والزمان زمان

أم قبل ذلك ويروى لآدم عليه السلام:
تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيح
أم قبل ذلك والملائكة تقول لبارئها: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء" ما فسد
الناس، ولكن اطرد القياس؛ ولا أظلمت الأيام، إنما امتد الإظلام؛ وهل يفسد الشيء إلا عن
صلاح، ويمسي المرء إلا عن صباح؟ ولعمري إن كان كرم العهد كتاباً يرد، وجواباً يصدر،
إنه لقريب المنال، وإني على توبيخه لي لفقيرٌ إلى لقائه، شفيقٌ على بقائه، منتسبٌ إلى ولائه،
شاكرٌ لالائه.
وكتب بديع الزمان يستعطفه: إني خدمت مولاي، والخدمة رق بغير إشهاد، وناصحه،
والمناصحة للود أوثق عماد؛ ونادمته، والمنادمة رضاع ثان؛ وطاعمته، والمطاعمة نسب
دان، وسافرت معه، وللسفر والأخوة رضيعاً لبان، وقمت بين يديه، والقيام والصلاة شريكاً
عنان؛ وأثنيت عليه، والثناء عند الله بمكان؛ وأخلصت له، والإخلاص مشكورٌ بكل
لسان.
ومن كلام أبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد - وكان وزيراً كاتباً - كتب عن ركن
الدولة بن بويه كتاباً لمن عصى عليه:
كتابي وأنا مترجحٌ بين طمع فيك، وإياسٍ منك، وإقبالٍ عليك، وإعراضٍ عنك؛ فإنك تدلي
بسابق خدمة، وتمت بسالف حرمة؛ أيسرها يوجب رعاية، ويقتضي محافظةً وعناية؛ ثم
تشفعهما بحادث غلولٍ وخيانة، وتتبعهما بآنف خلافٍ ومعصية؛ وأدنى ذلك يحبط
أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك؛ لا جرم أني وقفت بين ميلٍ إليك، وميلٍ عليك؛ أقدم
رجلاً لصمدك، وأؤخر أخرى عن قصدك؛ وأبسط يداً لاصطلامك واحتياجك، وأثني
ثانيةً نحو استبقائك واستصلاحك؛ وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضناً بالنعمة
عندك، ومنافسةً في الصنيعة لديك؛ وتأميلاً لفيئتك وانصرافك، ورجاءً لمراجعتك
وانعطافك؛ فقد يعزب العقل ثم يؤوب، ويغرب اللب ثم يثوب، ويذهب العزم ثم يعود، ويفسد
الحزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو؛

وكل ضيقةٍ فإلى رخاء، وكل غمرةٍ فإلى انجلاء؛ وكما أنك أتيت من إساءتك ما لم تحتسبه
أولياؤك، فلا تدع أن تأتي من إحسانك ما لم ترتقبه أعداؤك؛ وكما استمرت بك الغفلة
حتى ركبت ما ركبت، واخترت ما اخترت، فلا عجب أن تنتبه انتباهةً تبصر فيها قبيح
ما صنعت، وسوء ما آثرت؛ وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة ما صلح، وعلى
الاستيناء والمطاولة ما أمكن، طمعاً في إنابتك، وتحكيماً لحسن الظن بك؛ فلست أعدم
فيما أظاهره من إعذارك، وأرادفه من إنذارك، احتجاجاً عليك، واستدراجاً لك؛ وإن
يشأ الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك؛ فإنه على كل شيء قدير.
وفي فصل منه: وزعمت أنك في طرفٍ من الطاعة بعد أن كنت متوسطها، وإن كنت
كذلك فقد عرفت حالتها، وحلبت شطريها، فناشدتك الله لما صدقت عما أسألك: كيف
وجدت ما زلت عنه، وتجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل، ونسيمٍ عليل،
وريح بليل؛ وهواءٍ ندي، وماءٍ روي، ومهادٍ وطي؛ وكن كنين، ومكانٍ مكين، وحصنٍ
حصينٍ؛ يقيك المتالف، ويؤمنك المخاوف؛ ويكنفك من نوائب الزمان، ويحفظك من طوارق
الحدثان؛ عززت به بعد الذلة، وكثرت بعد القلة؛ وارتفعت بعد الضعة، وأيسرت بعد
العسر، وأثريت بعد المتربة، واتسعت بعد الضيق، وأطافت بك الولايات، وخففت فوقك
الرايات؛ ووطئ عقبك الرجال، وتعلقت بك الآمال؛ وصرت تكاثر ويكاثر بك، وتشير
ويشار إليك؛ ويذكر على المنابر اسمك، وفي المحاضر ذكرك؛ ففيم أنت الآن في الأمر؟ وما
العوض مما ذكرت وعددت، والخلف عمّا وصفت؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة
نفسك، ونفضت منها كفك، وغمست في خلافها يدك؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها
عنك؟ أظل ذو ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب؟ قل: نعم، فذاك واللّه أكنف
ظلالك في العاجلة، وأروحها في الآجلة؛ إن أقمت على المحادة والعنود، ووقفت على
المشاقة والجحود.

ومنه: تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كلامي فستنكرها، والمس جسدك فانظر
هل يحس، واحسس عرقك هل ينبض، وفتش ما حني عليه أضلاعك هل تجد في عرضها
قلبك؟ وهل حلا بصدرك أن تظفر بفوتٍ مزيج أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك
بشاهده، وآخر شأنك بأوله.
وكتب الصاحب أبو القاسم كافي الكفاة في وصف كتاب: ومن هو الذي لا يحبه وهو علم
الفضل، وواسطة الدهر؛ وقرارة الأدب والعلم، ومجمع الدراية والفهم؛ أمن يرغب عن مكاثرة
بمن ينسب الربيع إلى خلفه ويكتسب محاسنه من طبعه، ويتوشح بأنواره، ويتوضح بآثار
لسانه ويده؟ وصل كتابه، فارتحت لعنوانه قبل عيانه، حتى إذا فضضت ختامه أقبلت
الفقر تتكاثر، والدرر تتناثر؛ والغرر تتراكم، والنكت تتزاحم؛ فإذا حكمت للفظة بالسبق
أتت أختها تتنافس، وأقبلت عليها تتفاخر؛ حتى استعفيت من الحكومة، ونفضت يدي من
غبار الخصومة؛ وأخذت أقول: كلكن صوادر عن أصل واحد فتسالمن، وأرفاد عن معدن
رافد فتصالحن، وقد وليت النظر بينهما من كمل لنسج برودهما، ووفى بنظم عقودهما؛
على أنني يا مولاي أنشأت هذه الحروف وحولي أعمال وأشغال لا يسلم معهما فر، ولا يسلم
بينهما طبع؛ وتناولت قلما، كالابن العاق، بل العدو المشاق؛ إذا أردته استقال، وإذا قومته
مال؛ وإذا حثثته وقف، وإذا وقفته انحرف؛ أحدل الشق؛ متفاوت البري، معدوم الجري؛
محرف القط، مثبج الخط؛ ثم رأيت العدول عنه ضرباً من الانقياد لأمره، والانخراط في
سلكه فجهدته على رغمه، وكددته على صعره؛ لا جرم أن جناية اللجاج بادية على
صفحات الحروف لا تخفي، وعادية المحك لائحة على وجوه السطور تتجلى.
وكتب: واللّه يعلم أني أخبرت بورود كتابه واستفزني الفرح قبل رؤيته، وهز عطفي المرح
أمام مشاهدته؛ فما أدري، أسمعت بورود كتاب، أم ظفرت برجوع شباب؟ ثم وصل بعد
انتظار له شديد، وتطلع إلى وصوله طويل عريض؛ فتأملته فلم أدر ما تأملت، أخطأ

مسطوراً، أم روضاً ممطوراً، أم كلاماً منثوراً، أم وشيا منشورا؟ ولم أدر ما أبصرت في
أثنائه، أأبيات شعر، أم عقود درّ؟ ولم أدر ما جملته، أغيث حل بوادي ظمآن أم غوث
سبق إلى لهفان؟
وكتب: وصل كتاب القاضي فأعظمت قدر النعمة في مطلعه، وأجللت محل الموهبة بموقعه؛
وفضضته عن السحر حلالاً، والماء زلالاً؛ وسرحت الطرف منه في رياض رقت حواشيها،
وحلل تأنق واشيها؛ فلم أتجاوز فصلاً إلا إلى أخطر منه فضلاً، ولم أتخط سطراً إلا إلى
أحسن منه نظماً ونثراً.
وكتب أيضاً: وصل كتابك فجعلت وصوله عيداً أؤرخ به أيام بهجتي، وأفتتح به مواقيت
غبطتي؛ وعرفت من خبر سلامتك ما سألت الله الكريم أن يصله بالدوام، ويرفعه على
أيدي الأيام.
وكتب أيضاً: وصل كتابه - أيده الله - يضحك عن أخلافه الأرجة، ويتهلل عن عشرته
العطرة؛ ويخبر عن عافية الله لمن رأيت شمل الحرية به منتظماً، وشعب المروءة له ملتئماً؛
ويحمل من أنواع بره ما أقصر عن ذكره، ولا أطمع في شكره؛ ويؤدي من لطيف اعتذاره في
أثناء عتبه، ما تزداد المودة تمهيداً به؛ وفهمته، ورغبت إلى الله بأخلص طوية، وأمحض نية.
وقال أبو الفرج الببغاء من رسالة إلى عدة الدولة أبي تغلب جاء منها: أصح دلائل الإقبال،
وأصدق براهين السعادة - أطال الله بقاء سيدنا - ما شهدت العقول بصحته، ونطقت
البصائر بحقيقته، ونعمة الله على الدنيا والدين بما أولاهما من اختيار سيدنا لحراستهما
بناظر فضله، وسترهما بظل عدله؛ مفصحةٌ بتكامل الإقبال، مبشرةٌ بتصديق الآمال.

محروسةٌ ضمن الشكر الوفي لها على الزيادة نيل السؤل والدرك
تحقق العصر أن الملك منذ نشأ له أبو تغلب اسمٌ غير مشترك
واستخلف الفلك الدوار همته فلووني أغنت الدنيا عن الفلك

مأمون الهفوات، متناصر الصفات؛ ربعي النفاسة، حمداني السياسة، ناصري الرياسة؛

عطاردي الذكاء، موفق الآراء؛ شمسي التأثير، قمري التصوير فلكي التدبير؛ للصدق كلامه،
وللعدل أحكامه، وللوفاء ذمامه؛ وللحسام غناؤه، وللقدر مضاؤه، وللسحاب عطاؤه.

دعوته فأجابتني مكارمه ولو دعوت سوى نعماه لم تجب
وجدته الغيث مشغوفاً بعادته والروض يحيا بما في عادة السحب
لو فاته النسب الوضاح كان له من فضله نسبٌ يغني عن النسب
إذا دعته ملوك الأرض سيدها طرادعته المعالي سيد العرب

وكتب أبو الحسن علي بن القاسم القاشاني:
ما أرتضي نفسي لمخاطبة مولاي إذا كنت منفي الشواغل، فارغ الخواطر، مخلي الجوارح،
مطلق الإسار، سليم الأفكار، فكيف مع كلال الحدة، وانغلاق الفهم، واستبهام القريحة،
واستعجام الطبيعة؛ والمعول على النية، وهي لمولاي بظهر الغيب مكشوفة، والمرجع إلى
العقيدة، وهي بالولاء المحض معروفة؛ ولا مجال للعتب عن هذه الأحوال، للعذر وراء هذه
الخلال.

وقال محمد بن العباس الخوارزمي: الحمد لله الذي جعل الشيخ يضرب في المحاسن بالقدح
المعلي، ويسمو منها إلى الشرف الأعلى، ولم يجعل فيه موضعاً للولا، ولا مجالاً لإلا؛ فإن
الاستثناء إذا اعترض في المدح انصب ماؤه، وكدر صفاؤه، وانطلق فيه حساده وأعداؤه؛
ولذلك قالوا: ما أحسن الظبي لولا خنس أنفه! وما أحسن البدر لولا كلف وجهه! وما
أطيب الخمر لولا الخمار! وما أشرف الجود لولا الإقتار! وما أحمد مغبة الصبر لولا فناء
العمر! وما أطيب الدنيا لو دامت.

ما أعلم الناس أن الجود مكسبةٌ للحمد لكنه يأتي على النشب

من رسائل فضلاء المغاربة
ووزرائهم وكتابهم ممن ذكرهم ابن بسام في كتابه المترجم بالذخيرة في محاسن أهل الجزيرة
منهم ذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون، فمن كلامه رسالةٌ كتبها على لسان محبوبته ولادة
بنت محمد بن عبد الرحمن الناصري إلى إنسان استمالها إلى نفسه عنه، وهي:
أما بعد، أيها المصاب بعقله، المورط بجهله؛ البين سقطه، الفاحش غلطه؛ العاثر في ذل

اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره؛ الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت
الفراش في الشهاب؛ فإن العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب؛ وإنك راسلتني مستهدياً
من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك، متصدياً من خلتي لما قرعت فيه أنوف أشكالك؛
مرسلاً خليلتك مرتادة، مستعملاً عشيقتك قوادة؛ كاذباً نفسك أنك ستنزل عنها إلي،
وتخلف بعدها علي
ولست بأول ذي همةٍ دعته لما ليس بالنائل
ولاشك في أنها قلتك إذ لم تضن بك، وملتك إذ لم تغر عليك، فإنها أعذرت في السفارة
لك، وما قصرت في النيابة عنك؛ زاعمةً أن المروءة لفظٌ أنت معناه، والإنسانية اسمٌ أنت
جسمه وهيولاه؛ قاطعةً أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب
الجلال، واستوليت على محاسن الخلال؛ حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك
فغضضت منه، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه؛ وأن قارون أصاب بعض ما كنزت،
والنطف عثر على فضل ما ركزت؛ وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك؛
والإسكندر قتل دارا في طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك؛
والضحاك استدعى مسالمتك، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك؛ وشيرين نافست بوران
فيك؛ وبلقيس غايرت الزباء عليك، وأن مالك بن نويرة إنما ردف لك؛ وعروة بن جعفر إنما
رحل إليك؛ وكليب بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتك؛ وجساساً إنما قتله بأنفتك؛ ومهلهلاً
إنما طلب ثأره بهمتك؛ والسموءل إنما وفى عن عهدك، والأحنف إنما احتبى في بردك؛
وحاتماً إنما جاد بوفرك، ولقي الأصناف ببشرك؛ وزيد بن مهلل إنما ركب بفخذيك،
والسليك بن السلكة إنما عدا على رجليك، وعامر بن مالك إنما لاعب الأسنة بيديك؛
وقيس بن زهير إنما استعان بدهائك، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك؛
وسحبان إنما تكلم بلسانك، وعمر بن الأهتم إنما سحر ببيانك؛ وأن الصلح بين بكر وتغلب
تم برسالتك، والحمالات في دماء عبس وذبيان أسندت إلى كفالتك؛ وأن احتيال هرمٍ لعامرٍ

وعلقمة حتى رضياً كان عن رأيك؛ وجوابه لعمر وقد سأله عن أيهما كان ينفر وقع بعد
مشورتك؛ وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بجدك، وقتيبة فتح ما وراء النهر بسعدك؛ والمهلب
أوهى شوكة الأزارقة بأيدك، وأفسد ذات بينهم بكيدك؛ وأن هرمس أعطى بلينوس ما
أخذ منك، وأفلاطون أورد على أرسطو طاليس ما حدّث عنك؛ وبطليموس سوّى
الأسطرلاب بتدبيرك، وصوّر الكرة على تقديرك؛ وأبقراط علم العلل والأمراض بلطف
حسك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة نظرك؛ وكلاهما قلدك في العلاج، وسألك
عن المزاج؛ واستوصفك تركيب الأعضاء، واستشارك في الداء والدواء؛ وأنك نهجت لأبي
معشرٍ طريق القضاء، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء؛ وأعطيت النظام أصلاً
أدرك به الحقائق، وجعلت للكندي رسماً استخرج به الدقائق؛ وأن صناعة الألحان
اختراعك، وتأليف الأوتار توليدك وابتداعك؛ وأن عبد الحميد بن يحيى باري أقلامك،
وسهل بن هارون مدون كلامك؛ وعمر بن بحرٍ مستمليك، ومالك بن أنسٍ مستفتيك؛ وأنك
الذي أقام البراهين، ووضع القوانين؛ وحد الماهية وبين الكيفية والكمية، وناظر في الجوهر
والعرض، وبيّن الصحة من المرض؛ وفكّ المعمي، وفصل بين الاسم والمسمى؛ وضرب
وقسّم، وعدل وقوّم؛ وصنّف الأسماء والأفعال، وبوّب الظرف والحال؛ وبنى وأعرب، ونفى
وتعجب؛ ووصل وقطع، وثنى وجمع؛ وأظهر وأضمر، وابتدأ وأخبر؛ واستفهم وأهمل وقيّد،
وأرسل وأسند، وبحث ونظر، وتصفح الأديان، ورجح بين مذهبي ماني وغيلان؛ وأشار
بذبح الجعد، وقتل بشار بن برد؛ وأنك لو شئت خرقت العادات، وخالفت المعهودات؛
فأحلت البحار عذبة، وأعدت السلام رطبة؛ ونقلت إذا فصار أمسا، وزدت في العناصر
فكانت خمساً؛ وأنك المقول فيه: "كل الصيد في جوف الفرا"

ليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم في واحد

والمعنى بقول أبي تمامٍ:

فلو صوّرت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

والمراد بقول أبي الطيب:

ذكر الأنام لنا فكان قصيدةً كنت البديع الفرد من أبياتها

فكدمت غير مكدم ونفخت في غير فحم؛ ولم تجد لرمح مهزا، ولا لشفرة محزا؛ بل رضيت
من الغنيمة بالإياب، وتمنيت الرجوع بخفي حنين، لأني قلت لها: "لقد هان من بالت عليه الثعالب"
وأنشدت:
على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب
ونخرت وكفرت، وعبست وبسرت؛ وأبدأت وأعدت، "وأبرقت وأرعدت"
و"هممت ولم أفعل وكدت" وليتني" ولولا "أن" للجوار ذمة وللضيافة حرمة؛ لكان الجواب في
قذال الدمستق، ولكن النعمل حاضرةٌ إن عادت العقرب، والعقوبة ممكنةٌ إن أصر المذنب؛
وهباً لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك، ملؤها حبيبها، وحسنٌ فيها من تودّ، وكانت إنما
حلتك بحلاك، ووسمتك بسيماك؛ ولم تعرك شهاده، ولا تكلفت لك زيادة؛ بل صدقتك سن
بكرها فيما ذكرته عنك، ووضعت الهناء مواضع النقب فيما نسبته إليك؛ ولم تكن "كاذبة
فيما أثنت به عليك"، فالمعيدي تسمع به لا أن تراه، هجين القذال، أرعن السبال؛ طويل
العنق والعلاوة، مفرط الحمق والغباوة؛ جافي الطبع، سيء الجابة والسمع؛ بغيض الهيئة،
سخيف الذهاب والجيئة؛ ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس؛ كثير المعايب، مشهور المثالب؛
كلامك تمتمة، وحديثك غمغمة؛ وبيانك فهفهة، وضحكك قهقهة؛ ومشيك هرولة، وغناك
مسألة؛ ودينك زندقة، وعلمك مخرقة.
مساوٍ لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق
حتى إن باقلاً موصوفٌ بالبلاغة إذا قرن بك، وهبنقة مستحقٌ لاسم العقل إذا نسب
منك، وأبا غبشان محمودٌ منه سداد الفعل إذا أضيف إليك، وطويساً مأثورٌ عنه يمن الطائر
إذا قيس عليك؛ فوجودك عدم، والاغتباط بك ندم؛ والخيبة منك ظفر، والجنة معك سقر؛
كيف رأيت لؤمك لكرمي كفاء، وضعتك لشرفي وفاء؟ وأني جهلت أن الأشياء إنما
تنجذب إلى أشكالها، والطير إنما تقع على ألافها؟ وهلا علمت أن الشرق والغرب لا
يجتمعان، وشعرت أن ناديي المؤمن والكافر لا يتراءيان، وقلت: الخبيث والطيب لا يستويان،
وتمثلت:
أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان

وذكرت أني علق لا يباع ممن زاد، وطائرٌ لا يصيده من أراد، وغرضٌ لا يصيبه إلا من
أجاد؛ ما أحبسك إلا كنت قد تهيأت للتهنئة، وترشحت للترفئة؛ أولى لك، لولا أن جرح
العجماء جبار، للقيت ما لقي من الكواعب يسار؛ فما همّ إلا بدون ما هممت به، ولا
تعرض إلا الأيسر ما تعرضت له؛ أين أدعاؤك رواية الأشعار، وتعاطيك حفظ السير
والأخبار؟
بنو دارمٍ أكفاؤهم آل مسمع وتنكح في أكفائها الحبطات
وهلا عشيت ولم تغتر، وما أمنك أن تكون وافد البراجم، أو ترجع بصحيفة المتلمس،
وأفعل بك ما فعله عقيل بن علقة بالجهني إذ جاءه خاطباً فدهن استه بزيت وأدناه من قرية
النمل؟ ومتى كثر تلاقينا، واتصل ترائينا؛ فيدعوني إليك ما دعا ابنة الخس إلى عبدها من
طول السواد، وقرب الوساد؟ وهل فقدت الأراقم فأنكح في جنب، أو عضلني همام بن مرة
فأقول: زوجٌ من عود، خيرٌ من قعود"؟ ولعمري بلغت هذا المبلغ لارتفعت عن هذه الحطة،
وما رضيت بهذه الخطة؛ "فالنار ولا العار" و "المنية ولا الدنية" والحرة تجوع ولا تأكل
بثدييها:
فكيف وفي أبناء قومي منكحٌ وفتيان هزان الطوال الغرانقة
ما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا لأمتطي الثور دون الجواد؛ فإنما يتيم من لا يجد
ماء، ويرعى الهشيم من عدم الجميم، ويركب الصعب من لا ذلول له؛ ولعلك إنما غرك من
علمت صبوتي إليه، وشهدت مساعفتي له، من أقمار العصر، ورياحين المصر؛ الذين هم
الكواكب علوّ همم، والرياض طيب شيم .
من تلق منهم لا تقل: لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري
فيحنّ قدحٌ ليس منها؛ ما أنت وهم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم،
وكالوشيطَة في العظم بينهم؟ وإن كنت إنما بلغت قعر تابوتك، وتجافيت لقميصك عن
بعض قوتك؛ وعطرت أردانك، وجررت هميانك؛ واختلت في مشيتك، وحذفت فضول
لحيتك؛ وأصلحت شاربك، ومططت حاجبك؛ ودققت خط عذارك، واستأنفت عقد

إزارك؛ رجاء الاكتتاب فيهم، وطمعاً في الاعتداد منهم؛ فظننت عجزاً، وأخطأت استك
الحفرة؛ والله لو كساك محرّقٌ البردين، وحلتك مارية بالقرطين؛ وقلدك عمرو بالصمصامة،
وحملك الحارث على النعامة؛ ما شككت فيك، ولا تكلمت بملء فيك؛ ولا سترت أباك،
ولا كنت إلا ذاك؛ وهبك ساميتهم في ذروة المجد والحسب، وجاريتهم في غاية الظرف
والأدب؛ ألست تأوي إلى بيتٍ قعيدته لكاع؟ إذ كلهم عزبٌ خالي الذراع؛ وأين من أنفرد
به، ممن لا أغلب إلا على الأقل الأخس منه؟ وكم بين من يعتمدني بالقوة الظاهرة، والشهوة
الوافرة؛ والنفس المصروفة إلي، واللذة الموقوفة عليّ؛ وبين آخر قد نزحت بيره، ونضب
غديره؛ وذهب نشاطه، ولم يبق إلا ضراطه؛ وهل كان يجمع لي فيك إلا الحشف وسوء
الكيلة. ويقترن علي بك إلا الغدة والموت في بيت سلولية؟
تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال
"وهذا الشعر لأبي العتاهية يخاطب به سلم بن عمرو، ويلومه على حرصه، ويتلوه":
هب الدنيا تصير إليك عفواً أليس مصير ذاك إلى زوال
ما كان أحقك بأن تقدر بذراعك، وتربع على ظلعك؛ ولا تكون براقش الدالة على أهلها،
وعنز السوء المستثيرة لحتفها؛ فما أراك إلا قد سقط العشاء بك على السرحان، وبك لا
بظبي أعفر، قد أعذرت إن أغنيت شيّاً، وأسمعت لو ناديت حياً؛ وقرعت عصا العتاب،
وحذرت سوء العقاب. "إن العصا قرعت لذي الحلم" "والشيء تحقره وقد ينمي". فإن
بادرت بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامة؛ كنت قد اشتريت العافية لك بالعافية منك؛
وإن قلت "جعجعة ولا طحنا" و "ربّ صلفٍ تحت الراعدة" وأنشدت:
لا يؤيسك من مخبأةٍ قولٌ تغلظه وإن جرحا
فعدت لما نهيت عنه، وراجعت ما استعفيت منه؛ بعثت من يزعجك إلى الخضراء دفعاً،
ويستحثك نحوها وكزاً وصفعاً؛ فإذا صرت بها عبث أكاورها بك، وتسلط نواطيرها
عليك؛ فمن قرعةٍ معوجةٍ تقوم في قفاك، وفجلةٍ منتنةٍ يرمي بها تحت خصاك؛ لكي تذوق
وبال أمرك، وترى ميزان قدرك.
فمن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

وقال أيضاً في رقعةٍ خاطب بها ابن جهور - وهي من رسائله المشهورة - أولها:
يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتدادي به، واعتمادي عليه - أبقاك الله ماضي
حدّ العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد النعمة - إن سلبتني أعزك الله لباس إنعامك،
وعطلتني من حلي إيناسك، وغضضت عني طرف حمايتك؛ بعد أن نظر الأعمى إلى
تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحس الجماد بإسنادي إليك؛ فلا غرو قد يغص
بالماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفى به، ويؤتي الحذر من مأمنه، وتكون منية المتنمي في
أمنيته "والحين قد يسبق جهد الحريص" وإني لأتجلد، وأري الشامتين إني لا أتضعضع،
وأقول: هل أنا إلا يدٌ أدماها سوارها، وجبينٌ عضه إكليله، ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله،
وسمهري عرضه على النار مثقفه، وعبدٌ ذهب سيده مذهب الذي يقول:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

والعتب محمودٌ عواقبه، والنبوة غمرةٌ ثم تنجلي، والنكبة "سحابة صيف عن قريب تقشع"
وسيدي إن أبطأ معذور.

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتي سررن ألوف

فليت شعري ما الذنب الذي أذنبت ولم يسعه العفو؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين
العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟ وما أراني إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت،
وقال لي نوحٌ: "اركب معنا" فقلت: "سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء" وتعاطيت فعقرت،
وأمرت ببناء صرحٍ لعليّ أطلع إلى إله موسى، وعكفت على العجل، واعتديت في السبت،
وشربت من النهر الذي ابتلي به جنود طالوت، وقدت الفيل لأبرهة، وعاهدت قريشاً على
ما الصحيفة، وتأولت في بيعة العقبة، ونفرت إلى العير ببدر، وانخذلت بثلث الناس يوم
أحد، وتخلفت عن صلاة العصر في بني قريظة، وجئت بالإفك على عائشة، وأبيت من
إمارة أسامة، وزعمت أن خلافة أبي بكر كانت فلتة ورويت رمحي من كتيبة خالد ومزقت

الأديم الذي باركت يد الله فيه، وضحيت بالأشمط الذي عنوان السجودية، وكتبت إلى
عمر بن سعد أن جعجع بالحسين، وبذلت لقطام.
ثلاثة آلافٍ وعبداً وقينةً وضرب عليّ بالحسام المخذم
وتمثلت عند ما بلغني من وقعة الحرة:
ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا القرن من أشياخهم وعدلناه ببدرٍ فاعتدل
ورجمت الكعبة، وصلبت العائذ بها على الثنية؛ لكان فيما جرى عليّ ما يحتمل أن
يسمى نكالاً، ويدعى ولو على المجاز عقابا.
وحسبك من حادثٍ بامرىء يرى حاسديه له راحمينا
فكيف ولا ذنب إلا نميمةٌ أهداها كاشح، ونبأٌ جاء به فاسق؛ والله ما غششتك بعد
النصيحة، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك، ففيم عبث
الجفاء بأذمتي، وعاث في مودتي؟ وأني غلبني المغلب، وفخر عليّ الضعيف، ولطمتني غير
ذات سوار؟ ومالك لم تمنع مني قبل أن أفترس، وتدركني ولما أمزق، أم كيف لا تتصرم
جوانح الأكفاء حسداً لي على الخصوص بك، وتتقطع أنفاس النظراء منافسةً في الكرامة
عليك وقد زانني اسم خدمتك، وزهاني وسم نعمتك وأبليت البلاء الجميل في سماطك،
وقمت المقام المحمود على بساطك.
ألست الموالي فيك نظم قصائدٍ هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
وهل لبس الصباح إلا برداً طرزته بمحامدك، وتقلدت الجوزاء إلا عقداً فصلته بمآثرك،
وبث المسك إلا حديثاً أذعته بمفاخرك؛ "ما يوم حليمة بسر" وحاش لله أن أعدّ من العاملة
الناصبة، وأكون كالذبالة المنصوبة تضيء للناس وهي تحترق.
وفي فصل منه: ولعمري ما جهلت أن الرأي في أن أتحول إذا بلغتني الشمس، ونبا بي
المنزل، وأضرب عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال، ولا أستوطئ العجز فيضرب بي
المثل: "خامري أم عامر" وإني مع المعرفة بأن الجلاء سباءٌ، والنقلة مثلةٌ، لعارفٌ أن الأدب
الوطن الذي لا يخشى فراقه، والخليط الذي لا يتوقع زواله؛ والنسب الذي لا يجفي؛ والجمال
الذي لا يخفى؛ ثم ما قران السعد للكواكب أبهى أثراً، ولا أسنى خطراً، من اقتران غني

النفس به، وانتظامها نسقا معه؛ فإن الحائز لهما، الضارب بسهمٍ فيهما - وقليلٌ ما هم -
أينما توجه ورد منهمل بر، وحطّ في جناب قبول، وضوحك قبل إنزال رحله، وأعطي
حكم الصبي على أهله
وقيل له:
أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيتٌ صالحٌ وصديق
غير أن الموطن محبوب، والمنشأ مألوف؛ واللبيب يحن إلى وطنه، حنين النجيب إلى
عطنه؛ والكريم لا يجفو أرضاً فيها قوابله، ولا ينسى بلداً فيه مراضعه؛ وأنشد قول الأول:
أحب بلاد الله ما بين منعجٍ إليّ وسلمى أن يصوب سحابها
بلادٌ بها عق الشباب تمائمي وأول أرضٍ مس جلدي ترابها
هذا إلى مغالاتي في تعلق جوارك، ومنافستي في الحظ من قربك، واعتقادي أن الطمع في
غيرك طبع، والغني من سواك عناء، والبدل منك أعور، والعوض لفاء.
وإذا نظرت إلى أميري زادني ضنا به نظري إلى الأمراء
"كل الصيد في جوف الفرا" و "وفي كل شجرٍ نار، واستمجد المرخ والعفار"؛ فما هذه
البراءة ممن تولاك، والميل عمن يميل إليك؟ وهلا كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاك لمن
رضاه لك؟
يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيءٍ بعدكم عدم
أعيذك ونفسي من أن أشيم خلباً، وأستمطر جهاماً، وأكدم غير مكدم، وأشكو شكوى
الجريح إلى العقبان والرخم؛ وإنما أبسست لك لتدر، وحركت لك الحوار لتحن؛ وسريت لك
ليحمد المسري إليك؛ بعد اليقين من أنك إن شئت عقد أمري تيسر، ومتى أعذرت في فك
أسري لم يتعذر؛ وعلمك يحيط بأن المعروف ثمرة النعمة، والشفاعة زكاة المروءة، وفضل
الجاه تعود به صدقةٌ.
وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعةً من جاهه فكأنها من ماله
لعلي ألقي العصا بذراك، وتستقر بي النوى في ظلك، فتستلذ جنى شكري من غرس
عارفتك، وتستطيب عرف ثنائي من روض صنيعتك؛ وأستأنف التأدب بأدبك، والاحتمال
على مذهبك؛ فلا أوجد للحاسد مجال لحظة، ولا أدع للقادح مساغ لفظة؛ والله ميسرك من
إطلابي هذه الطلبة، وإشكائي من هذه الشكوى لصنيعةٍ تصيب بها طريق المصنع، ويدٍ

تستودعها أحفظ مستودع؛ حسبما أنت خليقٌ له، وأنا منك حري به؛ فذلك بيده، وهينٌ
عليه. وشفعها بأبيات فقال:
الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السرور للمستديم
وطرٌ ما انقضى إلى أن تقضى زمنٌ ما ذمامه بالذميم
زاد مستخفياً وهيهات أن يخ تفي البدر في الظلام البهيم
فوشى الحلى إذ مشى وهفا الطي ب إلى حيث كاشحٌ بالنميم
أيها المؤذني بظلم الليالي ليس يومي بواحدٍ من ظلوم
ما ترى البدر إن تأملت والشم س هما يكسفان دون النجوم
وهو الدهر ليس ينفك ينحو بالمصاب العظيم نحو العظيم
بوأ الله جهوراً أشرف السؤد د في السر واللباب الصميم
واحدٌ سلم الجميع له الفض ل وكان الخصوص وفق العموم
قلد الغمر ذا التجارب فيه واكتفى جاهلٌ بعلم عليم
ومنها في ذكر اعتقاله:
سقمٌ لا أعاد منه وفي الع ائد أنسٌ يفي ببرء السقيم
نار بغيٍ سرت إلى جنة الأر ض بياتاً فأصبحت كالصريم
بأبي أنت إن تشأتك برداً وسلاماً كنار إبراهيم
للشفع الثناء، والحمد في صو ب الحيا للرياح لا للغيوم
ثم قال: هاكها أعزك الله يبسطها الأمل، ويقبضها الخجل؛ لها ذنب التقصير، وحرمة
الإخلاص، فهب ذنباً لحرمة، واشفع نعمةً بنعمة؛ لتأتي الإحسان من جهاته، وتسلك الفضل
من طرقاته؛ إن شاء الله تعالى.
ومن كلام أبي عبد الله بن أبي الخصال من جواب لابن بسام - وكان قد كتب إليه يسأله
إنفاذ بعض رسائله ليضمنها كتابه الذي ترجمه بالذخيرة، فكتب:
وصل من السيد المسترق، والمالك المستحق - وصل الله أنعمه لديه، كما قصر الفضل
عليه - كتابه البليغ، واستدراجه المريغ؛ فلولا أن يصلد زند اقتداحه، ويرد طرف افتتاحه؛
وتقبض يد انبساطه، وتغبن صفقة اغتباطه؛ للزمت معه قدري، وضن بسره صدري؛
ولكنه بنفثة سحره يستنزل العصم فتجنب، ويقتاد الصعب فيصحب، ويستدر الصخور
فتحلب؛ ولما جاءني كتاب ابتداه، وقرع سمعي نداه؛ فرغت إلى الفكر، وخفق القلب بين
الأمن والحذر؛ فطاردت من الفقر أوابد فقر، وشوارد عفر، تغبر في وجه سائقها، ولا يتوجه
اللحاق إلى وجيهها ولا حقها؛ فعلمت أنها الإهابة والمهابة، والإجابة والاسترابة؛ حتى

أيأستني الخواطر، وأخلفتني المواطر، إلا زبرجاً يعقب جواداً، وبهرجاً لا يحتمل انتقاداً؛ وأني
لمثلي والقريحة مرجاة والبضاعة مزجاة؛ ببراعة الخطاب، وبراعة الكتاب، ولولا دروس معالم
البيان، واستيلاء العفاء على هذا اللسان؛ ما فاز لمثلي فيه قدح، ولا تحصل لي في سوقه
ربح؛ ولكنه جوّ خال، ومضمار جهّال؛ وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة، عن هذه النتف
الأخيرة؛ وأرى أنها قد بلت مداها، واستوفت حلاها؛ وإنما أخشى القدح في اختيارك،
والإخلال بمختارك؛ وعذراً إليك - أيدك الله - فإني خططت والنوم مغازل، والقر نازل؛
والريح تلعب بالسراج، وتصول عليه صولة الحجاج.
ثم أخذ في وصف السراج كما ذكرناه في الباب الرابع من القسم الثاني من الفن الأول في
السفر الأول من هذا الكتاب.
ومن كلام الوزير الفقيه أبي القاسم محمد بن عبد الله بن الجد، من رسالة خاطب بها ذا
الوزارتين أبا بكر المعروف بابن القصيرة - وقد قربت بينهما المسافة ولم يتفق اجتماعهما-:
لم أزل - أعزك الله - استنزل قربك براحة الوهم، عن ساحة النجم؛ وأنصب لك شرك
المنى، في خلس الكرى، وأعلل فيه نفس الأمل، بضرب سابق المثل:
ما أقدر الله أن يدني على شحيطٍ من داره الحزن ممن داره صول
فما ظنك به وقد نزل على مسافة يوم وطالما نفر عن حبالة نوم، ودنا حتى هم بالسلام،
وقد كان من خدع الأحلام، وناهيك من ظمئتي وقد حمت حول المورد الخصر، وذممت
الرشاء بالقصر، ووقف بي ناهض القدر، وقفة العير بين الورد والصدر؛ فهلا وصل ذلك
الأمل بباع، وسمح الزمن باجتماع؛ وطويت بيننا رقعة الأميال، كما زويت مراحل أيامٍ وليال؛
وما كان على الأيام لوٍ غفلت قليلاً، حتى أشفى بلقائك غليلاً، وأتنسم من روح مشاهدتك
نفساً بليلاً؛ ولئن أقعدتني بعوائقها عن لقاء حر، وقضاء بر؛ وسفرٍ قريب، وظفر ريب؛ فما
تحيفت ودادي، ولا ارتشفت مدادي؛ ولا غاضت كلامي، ولا أحفت أقلامي؛ وحسبي
بلسان النبل رسولاً، وكفى بوصوله أملاً ورسولاً؛ ففي الكتاب بلغة الوطر، ويستدل على

العين بالأثر؛ على أني نما وحيت وحي المشير باليسير، وأحلت فهمك على المسطور في
الضمير؛ وإن فرغت للمراجعة ولو بحرف، أو لمحة طرف؛ وصلت صديقاً، وبللت ريقاً؛
وأسديت يداً، وشفيت صدى؛ لازالت أياديك بيضاً، وجاهك عريضاً؛ ولياليك أسحاراً،
ومساعيك أنواراً.
أبو عبد الله محمد بن الخياط
من رقعةٍ طويلةٍ إلى الحاجب المظفر أولها:
حجب الله عن الحاجب المظفر أعين النائبات، وقبض دونه أيدي الحادثات.
وجاء منها: ورد كتابٌ كريمٌ جعلته عوض يده البيضاء فقبلته، ولمحته بدل غرته الغراء
فأجللته؛ كتاب ألقى عليه الحبر حبره، وأهدى إليه السحر فقره؛ أنذر ببلوغ المنى، وبشر
بحصول الغنى؛ تخير له البيان فطبق مفصله، ورماه البنان فصادف مقتله؛ ووصل معه
المملوك والمملوكة اللذان سماهما هدّية، وتنزه كرماً أن يقول عطية؛ همة ترجم السماكين،
ونعمةٌ تملأ الأذن والعين؛ وما حرك - أيده الله - بكتابه ساكناً بحمده، ولا نبه نائماً عن
قصده؛ كيف وقد طلعت الشمس التي صار بها المغرب شرقاً، وهبت الريح التي صار بها
الحرمان رزقاً؛ صاحب لواء الحمد، وفارس ميدان المجد.
وهي رقعةٌ طويلة قد ذكرنا منها في المديح فصلاً لا فائدة في إعادته.
أبو حفص عمر بن الأصغر الأندلسي
فمن ذلك أمانٌ كتبه لمن عصى وعاود الطاعة:
أما بعد: فإن الغلبة لنا والظهور عليك جلباك إلينا على قدمك، دون عهد ولا عقدٍ
يمنعان من إراقة دمك؛ ولكنا بما وهب الله لنا من الإشراف على سرائر الرياسة، والحفظ
لشرائع السياسة؛ تأملنا من ساس جهتك قبلنا فوجدنا يد سياسته خرقاء، وعين حراسته
عوراء، وقدم مداراته شلاء، لأنه غاب عن ترغيبك فلم ترجه، وعن ترهيبك فلم تخشه؛
فأدتك حاجتك إلى طلاب المطامع الدنية، وقلة مهابتك إلى التهالك على المعاصي الوبية؛
وقد رأينا أن تظهر فضل سيرتنا فيك، وتعتبر بالنظر في أمرك، فمهدنا لك الترغيب لتأنس
إليه، وظللنا لك الترهيب لتفرق منه، فإن سوّت الحالتان طبعك، وداوي الثقاف والنار

عودك، فذلك بفضل الله عليك، وبإظهاره حسن السياسة فيك؛ وأمان الله تعالى مبسوطٌ
منا، ومواثيقه بالوفاء معقودةٌ علينا؛ وأنت إلى جهتك مصروف، وبعفونا والعافية منا
مكنوف، إلا أن تطيش الصنيعة عندك فتخلع الربقة، وتمرق من الطاعة، فلسنا بأول من
بغى عليه، ولست بأول من تراءت لنا مقاتله من أشكالك إن بغيت، وانفتحت لنا أبواب
استئصاله من أمثالك إن طلبت.
يعاتب بعض إخوانه:
أظلم لي جو صفائك، وتوعرت علي طرق إخائك؛ وأراك جلد الضمير على العتاب، غير
نافع الغلة من الجفاء؛ فليت شعري ما الذي أقصى بهجة ذلك الود، وأذبل زهرة ذلك العهد؛
عهدي بك وصلتنا تفرق من اسم القطيعة، ومووديتنا تسأل عن صفة العتاب ونسبة الجفاء،
واليوم هي آنس بذلك من الرضع بالثدي، والخليع بالكأس؛ وهذه ثغرةٌ إن لم تحرسها
المراجعة، وتذك فيها عيون الاستبصار توجهت منها الحيل على هدم ما بيننا، ونقض ما
اقتنينا؛ وتلك نائحة الصفاء، والصارخة بموت الإخاء؛ لا أستند أعزك الله من الكتاب
إليك - وإن رغم أنف القلم، وانزوت أحشاء القرطاس، وأجر فم الفكر، فلم يبق في
أحدها إسعادٌ لي على مكاتبتك، ولا بشاشةٌ عند محاولة مخاطبتك - لقوارص عتابك،
وقوارع ملامك التي أكلت أقلامك، وأغصت كتبك، وأضجرت رسلك، وضميري طاوٍ لم
يطعم تجنياً عليك، ونفسي وادعةٌ لم تحرك ذنباً إليك، وعقدي مستحكمٌ لم يمسسه وهنٌ
فيك؛ وأنا الآن على طرف الإخاء معك، فإما أن تبهرني بحجة فأتنصل عندك، وإما أن
تفي بحقيقةٍ فأستديم خلتك، وإما أن تأزم على يأسك فأقطع حبلي منك؛ كثيراً ما يكون
عتاب المتصافين حيلةً تسبر المودة بها، وتستثار دفائن الأخوة عنها، كما يعرض الذهب
على اللهب، ويصفى المدام بالفدام، وقد يخلص الود على العتب خلوص الذهب على
السبك، فأما إذا أعيد وأبدي وردد وتوالي فإنه يفسد غرس الإخاء، كما يفسد الزرع توالي
الماء.
أبو الوليد بن طريف

من جواب عن المعتمد إلى ذي الوزارتين ابن يحفور صاحب شاطبة بسبب أبي بكر بن عمار:

وقفت على الإشارة الموضوعة من قبلك على إخلاص دلّ على وجوه السلامة، المستنام فيها إلى شرف محتدك وصفاء معتقدك أكرم استنامة؛ بالشفاعة فيمن أساء لنفسه حظ الاختيار، وسبب لها سبب النكبة والعثار؛ بغمطه لعظيم النعمة؛ وقطعه لعلائق العصمة؛ وتخبطه في سنن غيه واستهدافه، وتجاوزه في ارتكاب الجرائم وإسرافه؛ حتى لم يدع للصلح موضعاً، وخرق ستر الإبقاء بينه وبين مولى النعمة عنده فلم يترك فيه مرقعاً؛ وقد كان قبل استشراء رأيه، وكشفه لصفحة المعاندة، وإبدائه غدره في جميع جناياته مقبولاً، وجانب الصفح له معرضاً مبذولاً؛ لكن عدته جوانب الغواية، عن طرق الهداية؛ فاستمر على ضلاله، وزاغ عن سنن اعتداله؛ وأظهر المناقضة، وتعرض بزعمه إلى المساورة والمعارضة؛ فلم يزل يريغ الغوائل، وينصب الحبائل؛ ويركب في العناد أصعب المراكب، ويذهب منه في أوعر المذاهب؛ حتى علقته تلك الأشراك التي نصبها، وتشبثت به مساوي المقدمات التي جرها وسببها؛ فذاق وبال فعله "ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله" ولم يحصل في الأنشوطة التي تورطها، والمحنة التي اشتملت عليه وتوسطها؛ إلا ووجه العفو له قد أظلم، وباب الشفاعة فيه قد أبهم؛ ومن تأمل أفعاله الذميمة، ومذاهبه اللئيمة؛ رأى أن الصفح عنه بعيد، والإبقاء عليه داءٌ حاضرٌ عتيد.

وفي فصل منه: ففوق لمناضلة الدولة نباله، وأعمل في مكايدها جهده واحتياله؛ ثم بم يقتصر على ذلك بل تجاوزه إلى إطلاق بسانه بالذم الذي صدر عن لؤم نجاره، والطعن الشاهد بخبث طويته وإضماره؛ ومن فسد هذا الفساد كيف يرجى استصلاحه، ومن استبطن مثل غله كيف يؤمل فلاحه؛ ومن لك بسلامة الأديم النغل، وصفاء القلب الدغل؛ وعلى ذلك فلا أعتقد عليك فيما عرضت به من وجه الشفاعة غير الجميل، ولا أتعدى فيه حسن التأويل؛ ولو وفدت شفاعتك في غير هذا الأمر الذي سبق فيه السيف العذل، وأبطل

عاقل الأقدار فيه الإلطاف والحيل؛ لتلقيت بالإجلال، وقوبلت ببالغ المبرة والاهتبال.
ذو الوزارتين
أبي المغيرة بن حزم من رسالة.
لم أزل أزجر للقاء سيدي السانح، وأستمطر الغادي والرائح؛ وأروم اقتناصه ولو بشرك
المنام، وأحاول اختلاسه ولو بأيدي الأوهام؛ وأعاتب الأيام فيه فلا تعتب، وأقودها إليه فلا
تصحب؛ حتى إذا لب اليأس، وشمت الناس؛ وضربت بي الأمثال، فقيل: أكثر الآمال
ضلال؛ تنبه الدهر من رقدته، وحلّ من عقدته؛ وقبل مني، وأظهر الرضى عني؛ وقال:
دونك ما طمح فقد سمح، إليك فقد دنا ما قد جمح؛ فطرت بجناح الارتياح، وركبت إلى
الغمام كواهل الرياح؛ وقلت: فرصةٌ تغتنم، وركنٌ يستلم؛ وطرقت روضة العلم عميمة
الأزهار، فصيحة الأطيار؛ ريا الجداول، باردة الضحى والأصائل؛ وطفت بكعبة الفضل
مصونة الحبر، ملثومة الحجر؛ عزيزة المقام، معمورة المشعر الحرام؛ فما شئنا من محاضرة،
تجمع بين الدنيا والآخرة؛ بين يدي نثرٍ يدني الإعجاز، ونظمٍ ما أشبه الصدور بالأعجاز؛
وحديثٍ تثقف العقول بآرائه، وتروى بصافي مائه؛ فحين شمخ بالظفر أنفي، واهتز لنيل الأمل
عطفي - والدهر يضحك سراً، ويتأبط شراً؛ وقد أذهلني الجذل عن سوء ظني به،
وأوهمني نزوعه عن ذميم مذهبه - أتت ألوانه، وفسا ظربائه؛ ونادى: ليقم من قعد، وينتبه
من رقد؛ إنما فترت تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك حسرة؛ وسمحت لك مرة، لتذوق من
الأسف عليها كأسامرة، فرأيت وقد غطى على بصري، وعقلت وكنت في عمياء من
خبري؛ وقلت: هو الذي أعهده من لؤمه، وأعرفه من شؤمه؛ فما وهب، إلا وسلب؛ ولا
أعطى، إلا ساعاتٍ كإبهام القطا؛ فياله من قادرٍ ما ألأم قدرته، وذابحٍ ما أحد شفرته! ولو
تسلط علينا، من يظهر شخصه إلينا، لأدركته رماحنا، وعصفت به رياحنا؛ لكنه أميرٌ من
وراء سجف، يسعر بلا رجلٍ ويصول بلا كف.
ومن كلام الوزير الكاتب
أبي محمد بن عبد الغفور إلى بعض إخوانه - وكان قد وصف له امرأة ومدحها وحضه

على زواجها، وكان لذلك الصديق امرأةٌ سوداء - فأجابه ابن عبد الغفور:
بينما كنت ناظراً من المرآة في شعرٍ أحتم، ورأسٍ أجم، لا أخاف معه الذم؛ إذ تقدم
رسولك إلي، يخطب بنت فلانٍ علي؛ ويرغب منها في سعة مال، وبراعة جمال؛ ويقسم إنها
لبرةٌ بالزوج بريكة، لا تحوجه عند النوم إلى أريكة؛ ولو يسرت - وعياذاً بالله - لهذا
النكاح، لرزقت قبل الولد منها آلة النطاح؛ ولا حاجة لي بعد الدعة والسكون، إلى حربٍ
زبون، وقراعٍ بالقرون، ولو حملت إلي تاج كسرى وكنوز قارون؛ فاطلب لهذه السلعة المباركة
مشترياً غيري، ولا تسقها ولو في النوم إلى ...؛ وابتعها ولو بأرفع الأثمان إلى نفسك،
وأضف عاجها النفيس إلى أبنوس عرسك؛ ولا عذر لها في النشوز والإعراض، فإنما
يحسن السواد لحالك بالبياض؛ والله يمدك بقرنين قبل الحين، ويضع لك صنعين وبيلين،
فيسقطك بهذا النكاح الثاني الفم كما أسقطت بالأول لليدين.
ذكر نبذة من كلام القاضي الفاضل
الأسعد محيي الدين أبي علي
عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين ابن أحمد اللخمي
الكاتب المعروف بالبيساني - رحمه الله تعالى - إليه انتهت صناعة الإنشاء ووقفت،
وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واغترفت؛ وأمام
فضله ألقت البلاغة عصاها، وبين يديه استقرت بها نواها؛ فهو كاتب الشرق والغرب في
زمانه وعصره، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره؛ ورافع علم البيان لا محاله،
والفاصل بغير إطالة؛ وقد أنصف بعض الكتاب فيه، ونطق من تفضيله بملء فيه؛ حيث
قال:
كل فاضلٍ بعد الفاضل فضله، وكل؟ قد عرف له فضله؛ وستقف إن شاء الله من كلامه
على السحر الحلال، فتروى صداك من ألفاظه بالعذب الزلال؛ فمن ذلك قوله: وافينا قلعة
نجمٍ وهي نجمٌ في سحاب، وعقابٌ في عقاب؛ وهامةٌ لها الغمامة عمامه، وأنملةٌ إذا خضبها
الأصيل كان الهلال لها قلامه.

ومن رسائله ما كتب به إلى النظام أمير حلب: ورد كتاب المجلس السامي - حرس الله به
نظام المجد وأطلق فيه لسان الحمد، ودامت مساعيه مصافحةً ليد السعد، وأحسن له
التدبير في اليومين: من قبل ومن بعد - فمرحبا بمقدمه، وأهلا بمنجمه؛ والشوق تختلف
وفود صروفه، وتتنوع صنوف ضيوفه؛ فلا بد أن تتبعض إذا تبعضت المسافات، وتبرد
وتخمد إذا عبدت ودنت الطرقات؛ ولو بمقدار ما يدنو اللقاء على الرسول السائر، بالكتاب
الصادر، والخيال الزائر، بالحبيب العاذر، والنسيم الخاطر، من رسائل الخواطر؛ وقد وجدت
عندي أنسا لا أعهده؛ وعددت نقص البعد أحد اللقاءين، كما كنت أعد زيادة البعد أحد
النأيين؛ فزاده الله من القلوب حظوه، ولا أخلاه من بسط يدٍ وقدمٍ في حظ؟ وحظوه؛
ووقفت على هذا الكتاب المشار إليه وما وقفت عنه لسانا شاكرا، ولا صرفت عنه طرفا
ناظرا، وبلغت من ذلك جهدي وإن كان قاصرا، واستفرغت له خاطري وما أعده اليوم
خاطرا؛ ومما أسر به أن يكون في الخدمة السلطانية - أعلاها الله ورفعها، ووصلها ولا
قطعها، وألف عليها القلوب وجمعها، واستجاب فيها الأدعية وسمعها - من يكثر قليلى،
ويشفى في تقبيل الأرض غليلي، فإن تقبيل سيدنا كتقبيلي؛ فلو شرب صديقٌ وأنا عطشان
لأرواني، ولو استضاء بلمعة في الشرق وأنا في الغرب لأراني؛ كما أن الصديق إذا مسته نعمةٌ
وجب عنها شكري، وإذا وصلت إليه يد منعم وصلتني وتغلغلت إلى ولو كنت في قبرى.
ومنها: وأعود إلى جواب الكتاب، الأخبار لا تزال غامضةً إلى أن يشرحها، ومقفلةً إلى أن
يفتحها؛ بخلاف حالي مع الناس، فإن القلوب لا تزال سالمةً إلا أن يجرحها، والهموم خفيفة
إلا أن يرجحها؛ والحق من جهته ما تحقق، وما استنطق بشكر من أنطق؛ وفي الخواطر في
هذا الوقت موجودٌ يجعلها في العدم، ويخرجها من الألم إلى اللمم، ويعادى بين الألسنة
والأسماع وبين العيون والقلم؛ وكلما قلت الحيلة المشكوك في نجحها، فتح الله باب الحيلة
المطموع في فتحها؛ وهي من فضل الله سبحانه والاستجارة بالاستخارة، فتلك تجارةٌ رابحةٌ

وكل تجارةٍ لا تخلو من خساره؛ والله تعالى يجمع كلمة
المسلمين على يد سلطاننا، ولا يخلينا
منه ومن بنيه حلى زماننا، وشنوف إيماننا، ويسعدنا من أكابرهم
بتيجان رؤوسنا، ومن
أصاغرهم بخواتم أيماننا؛ ولو تفرغت العزمة الفلانية لهذا الكلب
العدو فترجم كلبه، وتكف
غربه؛ وتذيقه وبال أمره، وتطفئ شرار شره، وتتعجل له عاقبة
خسره؛ فقد غاظ المسلمين
وعضهم، وفل جموعهم وفضتهم؛ وما وجد من يكفى فيه
ويكفه، ويشفى الغليل منه بما
يشفه؛ ولو جعل السلطان - عز نصره - غزو هذا الطاغية مغزاه،
وبلاده مستقر عسكره
ومثواه، لأخذ الله الكافر بطغواه؛ ولأبقى ذكرا، وأجرى في
الصحيفة أجرا؛ ولأطفأ الحقد
الواقد، بالحديد البارد، وغنم المغنم البارد، وسدد الله ذلك العزم
الصادر والسهم الصادر؛
فلا بد أن يجري سيدنا هذا الذكر، ولو لما أحتسبه أنا من الأجر؛
وما أورده المجلس عن
فلانٍ من صفو شربه، وأمن سربه؛ واستقراره تحت الظل
الظليل السلطاني - جعله الله
ساكنا، وأحله منه حرما آمنا - ومن معافاته في نفسه وولده
وجماعته، وأهل ولائه وولايته،
فقد شكت له هذه البشرى، وفرحت بما يسر الله ذلك المولى له
من اليسرى؛ غير أني أريد
أن أسمع أخباره منه لا عنه وبمباشرته لا باستنابته، فلا عرفت
مودته من المودات
الكسالى، ولا أقلامه إلا بلبس السواد - على أنها مسرورةٌ سارةٌ
لا ثكالى؛ وإذا قنع
صديقه منه بفريضة حجية، لا تؤدى إلا في ساعة حوليه، فإن
يبخل بها ذلك الكريم فقد
انتحل الاسم الآخر - أعاذه الله منه، وصرف عنه لفظه كما صرف
معناه عنه؛ وللمودة
عينٌ لا يكحلها إذا رمدت إلا إثمد مداد الصديق، وما في الصبر
وسعٌ لصحبة أيام العقوق
بعد صحبة أيام العقيق، وقد بلغني أن ولد المذكور نزع وترعرع،
ونفع وأينع؛ وخدم في
المجلس السلطاني، فسررت بأن تجمع في خدمته الأعقاب
والذراري؛ والله تعالى يحفظ
علينا تلك الخدمة جميعا، ولا يعدمنا من يدها سحابا ولا من جنابها
ربيعا؛ وقد فتح
سيدنا بابا من الأنس ونهجه، وأوثر ألا يرتجه؛ بمكاتباته التي يده
فيها بيضاء، ويد الأيام

عندي خضراء؛ بحيث لا يستوفى على الحساب، في كل جواب؛ وأنا في هذه الأحوال أوثر
العزلة وأبدأ فيها بلساني وقلمي، وأتوخى أن أشبه حالة وجودي بعدمي؛ فإني أرى من
تحتها أروح ممن فوقها، ومن خرج منها أحظى ممن أقام بها؛ وللمودات مقر؟ ما هو إلا
الألسنة، والقلوب قضاةٌ لا تحتاج إلى بينه.
وكتب جواباً أيضاً إلى آخر وهو: وقفت على كتاب الحضرة - يسر الله مطالبها وجمل
عواقبها، وصفى من الأكدار مشاربها، وحاط من غير الأيام جوانبها، ووسع في الخيرات
سبلها ومذاهبها؛ ووقاها ووقى ولدها، وأسعدها واسعد يومها وغدها؛ وجمع الشمل بها
قريبا، وأحدث لها في كل حادثةٍ صنعا غريبا - من يد الحضرة الفلانية - لا عدمت يدها
ومدها، وأدام الله سعدها - وشكرت الله على ما دل عليه هذا الكتاب من سلامة
حوزتها، ودوام نعمتها؛ وسبوغ كفايتها؛ وسألته سبحانه أن يصح جسمها، ويميط همي
وهمها؛ فهما همان لا يتعلقان إلا بخدمة المخدوم - أجازنا الله فيه من كل هم، وأجرى
بتخصيصه السعد الأعتم، واللطف الأتم - وعرفت ما أنعمت بذكره من المتجددات
بحضرته، ومن الأمور الدالة على سعادته وقوته؛ وللأمور أوائل وأواخر، وموارد ومصادر؛
فنسأل الله سبحانه أن يجعل العواقب لكم، والمصادر إليكم، والنعمة عندكم، والنصرة
خاصةً بسلطانكم، والكفاية مكتنفةً بجماعتكم؛ وقد قاربت الأمور بمشيئة الله أن تسفر
وجوهها، والخواطر أن يستروح مشدوهها، " إن الله لذو فضل على الناس" وفي كل أقدار
الله الخيرة، وفي حكمته أنه جعل الخيرة محجوبةً تحت أستار الأقدار؛ وقد علم الله تقسم
فكري لما هي عليه من المشقات المحمولة بالقلب والجسد، والأمور الحاضرة في اليوم
والمستقبلة في غد؛ وهي في جانب الخير، والخير يعم الوكيل لصاحبه، ومن أصلح جانبه مع
الله كان الله جديراً بإصلاح جانبه.
ومنه: وعليه السلام الطيب الذي لو مر بالبهم لأشرق، أو بالهشيم لأورق؛ وكتبها الكريمة
إن تأخرت فمأموله، وإن وصلت فمقبوله؛ وإن أنبأت بسار؟ فمشهوره وإن أبأت بشر؟

فمستوره؛ وخادمها فلانٌ يخدم مجلسها خدمة الخادم لمخدومه، ويكرر التسليم على وجهه
الكريم المحفوف من كل قلب بحبه، ومن كل سلام بتسليمه.
وكتب أيضاً: وصل كتاب الحضرة - وصل الله أيامها بحميد العواقب، وبلوغ المآرب،
وصحبت الدهر على خير ما صحبه صاحب، وأنهضنا بواجب طاعته، فإنه بالحقيقة
الواجب - وكل واجبٍ غيره غير واجب - من يد فلانٍ، فرجوت أن يكون طليعةً
للاقتراب، ومبشراً بالإياب، ومخبرا بعودها الذي هو كعود الشباب لو يعود الشباب؛
وأعلمني من سلامة جسمها، وقلبها من همها؛ ما شكرت الله عليه، واستدمت العادة
الجميلة منه، وسألته أن يوزعها شكر النعمة فيه، وعرفت الأحوال جملةً من كتابها، وكلها
تشهد بتوفيق سلطاننا، وبأيامه التي تعود بمشيئة الله بإصلاح شانه وشاننا؛ والذي مده
ظلا، يمده فضلا؛ فالفضل الذي في يديه، في خلق الله الذي أحالهم في الرزق عليه؛ فكيفما
دعونا له دعونا لأنفسنا، وكيفما كانت أسنة رماحه فهي نجوم حرسنا، فلا عدمت أيامه
التي هي أيام أعيادنا، ولا لياليه التي هي ليالي أعراسنا.
ومن أجوبته: ورد على الخادم - أدام الله أيام المجلس وصفاها من الأكدار، وأبقى بها من
تأثيراته أحسن الآثار، وأسمع منه وعنه أطيب الأخبار وجعل التوفيق مقيماً حيث أقام،
وسائراً أينما سار - كتابه الكريم، الصادر عن القلب السليم، والطبع الكريم، والباطن
الذي هو كالظاهر كلاهما المستقيم؛ ولا تزال الأخبار عنا محجمه، والأحاديث مستعجمه؛
والظنون مترجحة، والأقوال مسقمةٌ ومصححه؛ إلى أن يرد كتابه فيحق الحق ويبطل الباطل،
ويتضح الحالي ويفتضح العاطل؛ ويعرف الفرق ما بين تحرير قائل، وتحوير ناقل؛ فتدعو له
الألسنة والقلوب وتستغفر بحسناته الأيام من الذنوب؛
والشجاعة شجاعتان: شجاعةٌ في
القلب وشجاعةً في اللسان؛ وكلتهما لديه مجموع، ومنه وعنه مروى؟ ومسموع؛ وذخائر
الملوك هم الرجال، وآراء الحزماء هي النصال، ومودات القلوب هي الأموال، ومجالس آرائهم
هي المعركة الأولى التي هي ربما أغنت عن معارك القتال؛
والله تعالى يمد المسلمين به حال

تجمعهم على جهاد الكفار، ويلهمهم أن يبذلوا في سبيله النفس والسيف والدرهم والدينار؛
ويزيل ما في طريق المصالح من الموانع، ويفطم السيوف عن الدماء الإسلامية ويحرم عليها
المراضع؛ ويجعل للمجلس في ذلك اليد العليا، والطريقة المثلى، ويجمع له بين خيري الآخرة
والأولى؛ والأحوال هاهنا بمصر مع بعد سلطانها وتمادي غيبته عن مباشرة شانها؛ على ما
لم يشهد مثله في أوقات السكون فكيف في أوقات القلق، على من يحفظ الله به في البلاد
من الجموع ومن في الطرقات من الرفق؛ والأمير الولد صحيحٌ في جسمه وعزمه، متصرفٌ في
مصالحه على عادته ورسمه؛ جعله الله نعم الخلف المسعود، وأمتعه بظل المجلس الممدود،
في العمر المدود؛ وعرف الخادم أن المجلس ناب عنه مرةً بعد مرةٍ بمجلس فلان يشكر على
ما سلف من ذلك المناب، ويستزيد ما يستأنفه من الخطاب؛ والبيت الكريم أنا في ولائه
وخدمته كما قيل:
إن قلبي لكم لكالكبد الحرى وقلبي لغيركم كالقلوب
يسرني أن يمد الله ظلهم، وأن يجمع الله شملهم؛ كما يسوءني أن تختلف آرائهم ولا تنتظم
أهواؤهم؛ وهذا المولى يبلغني أنه سد وساد، وجد وجاد، وخلف من سلف من كرام هذا
البيت من الآباء والأجداد؛ واشتهرت حسن رعايته لمن جعله الله من الرعايا وديعه،
وحسن عنايته بمن جعله الله له من الأجناد شيعه؛ وإذ بلغني ذلك سررت له ولابنه ولجده،
وعلمت أنه لم يمت من خلفه لإحياء مجده؛ ومن استعمله بحسنٍ فقد أراد الله به حسنا،
ومن أحسن إلى خلق الله كان الله له محسنا؛ إن الله أكرم الأكرمين، وأعدل العادلين؛ وكتب
المجلس السامي ينعم بها متى خف أمرها، وتيسر حملها، وتفرغ وقته لها؛ والثقة حاصلةٌ
بالحاصل من قلبه، وعاذرة وشاكرةٌ في المبطئ والمسرع من كتبه؛ ورأيه الموفق إن شاء الله
تعالى.
وكتب: ورد كتاب الحضرة السامية - أحسن الله لها المعونه، ويسر لها العواقب المأمونه،
وأنجدها على حرب الفئة الكافرة الملعونه - بخبر خروج الخارج من قلعة كذا، وما صرح به

من الخوف الذي ملأ الصدور، والاستحثاث في مسير العسكر المنصور؛ وكل ضيقةٍ وردت
على القلوب ففزعت فيها إلى ربها فرجت فرجه وأذكى لها اليقين سرجه؛ ولم تشرك معه
غيره مستعانا، ولم تدع معه من خلقه إنسانا؛ فما الضيقة وإن كانت منذورةً إلا مبشره،
والخطة وإن كانت وعرةً إلا ميسره؛ لا جرم أن هذا الكتاب أعقبه وصول خبر نهضة فلان
- نصر الله نهضاته، وأدى عنه مفترضاته - فاستنهض العساكر، وقوتل العدو الكافر؛
فنفس ذلك الخناق، وتماسكت الأرماق؛ وما أحسب أن الأمر يتمادى مع القوم، بل أقول: لا
كرب على الإسلام بعد اليوم؛ تتوافى بمشيئة الله ولاة الأطراف، ويزول من نفس العدو
وسمعه ما استشعره بين المسلمين من الخلاف؛ ويجتمعون إن شاء الله على عدوهم،
ويذهب الله بأهل دينه ما كان من فساد أعدائه في أرضه وعلوهم؛ وقد شمعنا رائحة
الهدنة بطلب الرسول، وبخبر هلاك ملك الألمان الذي هو بسيف الله مقتول، والموت سيف
الله على الرقاب مسلول.
ومنها: فأما ما أشار إليه من القلاع التي شحنها، والحصون التي حصنها؛ والأسلحة التي
نقلها إليها، والأقوات التي ملأ بها عيون مقاتليها وأيديها؛ فإن الله يمن عليه بأن يسره لهذه
الطاعه، ورزقه لها الاستطاعه؛ فكم رزق الله عبداً رزقاً حرمه منه وفتح عليه باباً من
الخير وصرفه عنه؛ لا جرم أنه وفى قوماً أجرهم بغير حساب، ووقف قوماً بموقف مناقشة
الحساب، الذي المصرف عنه إلى ما بعده من العذاب؛ الآن والله ملك الملك العادل ماله
الذي أنفقه، وأودعه لخير مستودعٍ من الذي رزقه؛ وشتان بين الهمم: همة ملكٍ ذخر ماله في
رؤوس القلاع لتحصين الأموال، وهمة ملك أودع ماله في أيدي المقاتلة لتحصين القلاع
يبني الرجال وغيره يبني القرى شتان بين مزارعٍ ورجال
والحمد لله الذي جعل ماله له مسره، يوم يرى الذين يكتنزون الذهب والفضة المال عليهم
حسره؛ ما أحسب أحداً من هذه الأمة إن كان عند الله من أهل الشهادات بين يديه، وإن
كان كريم الوفادة لديه؛ إلا تلقاه شاكراً لهذا السلطان شاهداً بما يولى هذه الأمة من

الإحسان، "وفي ذلك فليتنافس المتنافسون " سيحصد الزارعون ما زرعوا، والله يزيده
توفيقاً إلى توفيقه، ويلهم كل مسلم القيام بمفترض بره ويعيذه من محذور عقوقه؛ وأنا أعلم أن
الحضرة تفرد لي شطرا من زمانها المهم، لكتاب تلقيه إلي، وخبر سار؟ تورده علي؛ وأنا
أفرد شطراً من زماني لشكرها، وأسر والله لها بتوفيق الله في جميع أمرها، فإن الذاكر لها
بالخير كثير، فزاد الله طيب ذكراها؛ ورأيه الموفق في أن يجريني على كنف العادة، ولا يقطع
عني هذه المادة؛ إن شاء الله تعالى.
وكتب: ورد كتاب المجلس السامي - نصر الله عزائمه، وأمضى في رؤوس الأعداء
صوارمه، وشد به بنيان الإسلام ودعائمه، واسترد به حقوق الإسلام من الكفر ومظالمه،
وأخلف نفقاته في سبيل الله ومغارمه، وجعلها مغانمه - وكان العهد به قد تطاول، والقلب
في المطالبة ما تساهل، ولمحت أشغاله بالطاعة التي هو فيها وما كل من تشاغل تشاغل؛
فهنأه الله بما رزقه، وتقبل في سبيل الله ما أنفقته وعافى الجسم الذي أنضاه في جهاد عدوه
وأخلقه، وقد وفق من أتعب نفساً في طاعة من خلقها، وجسماً في طاعة من خلقه؛ فهذه
الأوقات التي أنتم فيها أعراس الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في
دار القرار؛ قال الله سبحانه في كتابه الكريم: "وما أنفقتم من شيءٍ فهو يخلفه وهو خير
الرازقين " وأما فلان وما يسره الله له، وهونه عليه، من بذل نفسه وماله، وصبره على
المشقات واحتماله، وإقدامه في موقف الحقائق قبل رجاله؛ فتلك نعمة الله عليه، وتوفيقه
الذي ما كل من طلبه وصل إليه؛ وسواد العجاج في تلك المواقف، بياض ما سودته الذنوب
من الصحائف " يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً " فما أسعد تلك الوقفات، وما أعود
بالطمأنينة تلك المرجفات؛ وقد علم الله سبحانه وتعالى مني ما علم من غيري من المسلمين
من الدعاء الصالح في الليل إذا يغشى، ومن الذكر الجميل لكم في النهار إذا تجلى؛ والله
تعالى يؤيد بكم إيمانكم، وينصركم وينصر سلطانكم، ويصلحكم ويصلح بكم زمانكم،

ويشكر هجرتكم التي لم تؤثروا عليها أهليكم ولا أموالكم ولا أوطانكم؛ ويعيدكم إليها
سالمين سالبين، غانمين غالبين؛ إنه على كل شيء قدير.
وكتب: وصل كتاب الحضرة السامية - أيد الله عزمها، وسدد سهمها وجعل في الله همها،
ووفر في الخيرات قسمها - مبشراً بالحركة الميمونة السلطانية إلى العدو خذله الله، ومسير
المسلمين - نصرهم الله - تحت أعلامه أعلاها الله؛ ومباشرة العدو واستبشار المسلمين
بما أسعدهم الله من الجرأة عليه، ومن إضمار العود إليه؛ وهذه مقدمةٌ لها ما بعدها، وهي
وإن كانت نصرةً من الله فما نقنع بها وحدها فالهمة العالية للحرب التي تسلب الأجسام
رؤوسها، والسيوف حدها؛ فإن الجنة غالية الثمن، والخطاب بالجهاد متوجهٌ إلى الملك
العادل دون ملوك الأرض وإلا فمن؟ فهذه تشترى بالمشقات، كما أن الأخرى - أعاذنا الله
منها - رخيصة الثمن وتشترى بالشهوات؛ والحضرة السامية نعم القرين ونعم المعين، وفرض
ذي اللهجة المبين، أن يستجيش ذا القوة المتين، وكلمةٌ واحدةٌ في سبيل الله أنمى من ألوف
المقاتلة والمئين؛ والله تعالى يوسع إلى الخيرات طرقها، ويطلق بها منطلقها، ويمتع الإخوان
بخلقها الكريم فما منهم إلا من يشكر خلقها؛ ورأيها الموفق في إجرائي على العادة المشكورة
من كتبها، وإمطاري من خواطرها، لا عدمت صوب سحبها.
ومن كتاب كتبه إلى القاضي محيي الدين بن الزكي: بعد أن أصدرت هذه الخدمة إلى
المجلس - لا عدمت عواطفه وعوارفه، ولطائفه ومعارفه؛ وأمتع الله الأمة عموماً بفضائله
وفواضله، ونفعهم بحاضره كما نفعهم بسلفه الصالح وأوائله، وعادى الله عدوه ودل سهامه
على مقاتله - ورد كتابٌ منه في كذا وما بقيت أذكر الإغباب، فإن سيدنا يقابله بمثله، ولا
العتاب فإن سيدنا يساجله بأفيض من سجله؛ ولا ألقى عليه من قولي قولاً ثقيلاً، ولا أقابل
به من قوله قولاً جلياً جليلاً؛ فقد شب عمرو عن الطوق، وشرف البراق عن السوق؛ وذلك
العمرو ما برح محتنكاً والطوق للصبي، وذلك البراق حمى لا يقدم إلا للنبي، ومع هذا فلا
تقلص عني هذه الوظيفة، واعتقدها من قرب الصحيفه؛ فإنك تسكن بها قلباً أنت ساكنه

وتسر بها وجهاً أنت على النوى معاينه.
وكتب إلى العماد: كانت كتب المجلس - لا غير الله ما به من نعمه ولا قطع عنه مواد
فضله وكرمه، ولا عدمت الدنيا خط قلمه وخطو قدمه؛ وأعاذنا الله بنعمة وجوده من
شقوة عدمه - تأخرت وشق على تأخرها، وتغيرت على عوائدها والله يعيذها مما يغيرها؛
ثم جاءت ببيت ابن حجاج:
غاب ما غاب ووافا ني على ما كنت أعهد
وأجبته ببيت الرضي:
ومتى تدن النوى بهم يجدوا قلبي كما عهدوا
كتابةٌ لا ينبغي ملكها إلا لخاطرة السليماني، وفيضٌ لا يسند إلا عن نوح قلمه الطوفاني،
أوجبت على كل بليغ أن يتلو، "ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني" وبالجملة فالواجب
على كل عاقل أن لا يتعاطى ما لم يعطه، وأن يدخل باب مجلس سيدنا ويقول حطه؛ فأما ما
أفاض فيه من سكون الأحوال بتلك البلاغة فقد كدت أسكر لما استخرجته من تلك
المحاسن التي لو أن الزمان الأصم يسمع لأسمعته، ولو أن الحظ الأشم يخضع لأخضعته؛
وبالجملة فإنه لا يشنأ زمنٌ أبقى من سيدنا نعمة البقية التي مهما وجدت فالخير كله موجود،
والمجد بحفيظته مشهود؛ وكما تيسرت راحة جسمه، فينبغي أن يقتدى به قلبه في راحة
من همه؛ وأعراض الدنيا متاع المتاعب، وقد رفع الله قدره، وإلا فهذه الدنيا وهدةٌ إليها
مصاب المصائب؛ والحال التي هو الآن عليها عاكفٌ إلا من علمٍ يدرسه، وأدبٍ يقتبسه،
وحريم عقائلَ يذب عنه ويحرسه؛ هي خير الأحوال، فالواجب الشكر لواهبها، والمسرة
بالإفضاء إلى عواقبها؛ وما ينقص شيءٌ من المقسوم، وإن زاد عند المجلس فليس من حظه،
ولكن من حظ السائل والمحروم؛ فلا يسمح المجلس بكتابٍ من كتبه على يدٍ من الأيدي التي
لا تؤدى، ولا يؤمن أن تكون أناملها حروف التعدي، وهي إحدى ما تعلقت به الشهوات
من اللذات، وهو ينعم بها على عادته في كف ضراوة القلب ودفع عاديته؛ موفقاً إن شاء
الله تعالى.
وكتب إلى القاضي محيي الدين بن الزكي أيضاً: كان كتابي تقدم إلى المجلس السامي - أدام

الله نفاذ أمره، وعلو قدره، وراحة سره ونعمة يسره؛ وأجراه على أفضل ما عوده، وأسعد
جده وأصعده، وأحضر أمثال العالم المقبل وأشهده؛ ولا زال يلبس الأيام ويخلعها، ويستقبل
الأهلة ويودعها وهو محروس في دنياه ودينه، مستلئمٌ من نوب الدهر بدرع يقينه، كاشفٌ لليل
الخطب بنور جبينه، وليوم الجدب بفيض يمينه؛ وأعماله مقبوله، ودعواته على ظهر الغمام
محموله؛ والدنيا ترعاه وهي تأتي برغمها، والآخرة تدخر له وهو يسعى لها سعيها - من
أيدي عدةٍ من المسافرين، ولثقتي بهم ما قدرت أسماءهم، ولضيق صدري بتأخير كتب
المجلس ما حفظتها.
وجاء منها: وما كأنا إلا أن دعونا الله سبحانه دعوة الأولين أن يباعد بين أسفارنا، وأردنا
أن يقطع بيننا وبين أخبارنا؛ فأجيبت الدعوه، ولا أقول لسابق الشقوه، ولكن للاحق
الحظوه؛ فإن مكابدة الأشواق إلى الأبرار، تسوق إلى الجنة ولا تسوق إلى النار، وأقسم أنني
بالاجتماع به في تلك الدار، أبهج مني بالاجتماع به لو أتيح في هذه الدار؛ فعليه وعي من
العمل ما يجمع هنالك سلك الشمل ويصل جديد الحبل؛ فثم لا يلقى العصا إلا من ألقى هنا
العصيان، وهنالك لا تقر العين إلا ممن سهرت منه هاهنا العينان؛ فلا وجه لجمع اسمي مع
اسمه في هذه الوصية مع علمي بسوء تقصيري، وخوفي من سوء مصيري، ولكن ليزيد
سيدنا من وظائفه وعوارفه، - فكل فعله تفضل من فضله - ما يخلصني بإخلاصه فإنني
أستحق شفاعته لشفعة جوار قلبي لقلبه، وهذا معنى ما بعث على شغل الكتاب به، مع
علمي باستقرار نفسه النفيسة، إلا أنه - أبقاه الله - قد ابعد عهدي من كتبه بما يقع
التفاوض فيه، والمراجعة عنه؛ والخواطر في هذا الوقت منقبضه، والشواغل لها معترضه،
وأيام العمر في غير ما يفرض من الدنيا للآخرة منقرضه؛ ومتجدد نوبة بيروت قد غمت كل
قلب، وهاجت المسلمين أشواقاً إلى الملك الناصر، وذكرى بما ينفعه الله به من كل ذاكر،
وأخذ الناس في الترحم على أول هذا البيت والدعاء للحاضر والآخر - وليس إن شاء

الله بآخر؛ فما ادخر المولى لهذه الحرب مجهودا، ولا فللت عسكرا مجرورا ولا مالاً ممدودا
فإن كان ذلبى أن أحسن مطلبي إساةٌ ففي سوء القضاء لي العذر
ومنه: وسيدنا يستوصي بالدار بدمشق فقد خلت، وإنما الناس نفوس الديار؛ وأنا أعلم أن
سيدنا في هذا الوقت مشدوه الخاطر عن الوصايا، ومشغول اللسان بتنفيذ ما ينفذه مما هو
منتصب له من القضايا؛ فما في وقته فضلةٌ ولكن فضل، وسيدنا يحسن في كل قضية من
بعد كما أحسن من قبل؛ فهو الذي جعل بيني وبين الشام نسبا وأنشأني فيه إلى أن ادخرت
عقارا ونشبا فعليه أن يرعى ما أقناه، وينفي الشوك عن طريق اليد إلى جناه؛ والجار إلى
هذا التاريخ ما اندفع جوره، ولا أدرك غوره؛ يعد لسانه ما تخلف يده، ويدعى يومه ما
يكذبه فيه غده؛ وأنا على انتظار عواقب الجائرين، وقد عرف الغيظ مني ألفاظاً مجهولةً ما
كنت أسمح بأن أعرفها، وكشف مستورا من أسباب الحرج ما يسرني أن أكشفها " لا يحب
الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم: وأسوأ خلقاً من السيئ الخلق من أحوجه إلى سوء
الخلق؛ وما ذكرت هذا ليذكر، ولا طويت الكتاب عليه لينشر، والسر عند سيدنا ميتٌ
وهو يقضي حقه بأن يقبر.
وكتب: أدام الله أيام المجلس وخصه من لطفه بأوفر نصيب، ومنحه من السعادة كل
عجيب وغريب، وأراه ما يكون عنه بعيداً مما يؤمله أقرب من كل قريب - الخادم يخدم
وينهى وصول كتابٍ كريمٍ تفجرت فيه ينابيع البلاغه، وتبرعت له بالحكم أيدي البراعه؛
وجاد منه بسماءٍ مزينةٍ بزينةٍ الكواكب، وهطل منها لأوليائه كل صوبٍ ولأعدائه كل شهابٍ
واصب، وتجلى فما الغيد الكواعب؛ وما العقود في الترائب، وتفرق منه جيش الهم فانظر
ما تفعل الكتب من الكتائب؛ وما ورد إلا والقلب إلى مورده شديد الظما، وما كحل به إلا
ناظره الذي عشى عن الهدى وقرب من العمى؛ وما نار إبراهيم بأعظم من نوره، ولا
سروره - صلى الله عليه وسلم - حين نجا أعظم يوم وصوله من سروره؛ فحيا الله هذه

اليد الكريمة التي تنهل بالأنوار وتجزل سوابغ النعماء؛ وتعطي أفضل عطاءٍ يسرها في القيامه،
وتحوز به أفضل أنواع الكرامه؛ فأما شوقه لعبده فالمولى - أبقاه الله - قد أوتي فصاحة
لسان، وسحب ذيل العي على سحبان؛ ولو أن للخادم لساناً موات، وقلباً يقال له هي هات؛
لقال ما عنده، وأذكر عهده ووده؛ وباح بأشواقه، وذم الزمان على اعتياقه؛ وأما تفضله
بكذا فالخادم ما يقوم بشكره، ولا يقدره حق قدره؛ وقد أحال مكافأة المجلس على ملىءٍ
قادر، ومسرة خاطرة عليه يوم تبلى السرائر؛ والله تعالى يصله برزقٍ سني؟ يملأ إناه،
ويوضح هداه؛ ولا يخلي المجلس من جميل عوائده، ويمنحه أفضل وأجزل فوائده إن شاء الله
تعالى.
ومن مكاتباته يتشوق إلى إخوانه وأدوائه، ومحبيه وأوليائه - كتب إلى بعضهم:
أأحبابنا هل تسمعون على النوى تحية عان أو شكية عاتب
ولو حملت ريح الشمال إليكم كلاما طلبنا مثله في الجنائب
أصدر العبد هذه الخدمة وعنده شوقٌ يغور به وينجد، ويستغيث من ناره بماء الدمع
فيجيب وينجد؛ ويتعلل بالنسيم فيغري ناره بالإحراق، ويرفع النواظر إلى السلوان فيعيدها
الوجد في قبضة الإطراق؛ أسفاً على زمنٍ تصرم، ولم يبق إلا وجداً تضرم، وقلباً في يد البين
المشت يتظلم
ليالى نحن في غفلات عيش كأن الدهر عنا في وثاق
فلا تنفس خادمه نفساً إلا وصله بذكره، ولا أجرى كلاماً إلا قيده بشكره، ولا سار في
قفرٍ إلا شبهه برحيب صدره، ولا أطل على جبل إلا احتقره بعلي قدره، ولا مر بروضةٍ إلا
خالها تفتحت أزهارها عن كريم خلقه ونسيم عطره، ولا أوقد المصطلحون ناراً إلا ظنهم
اقتبسوها من جمره، ولا نزل على نهر إلا كاثر دمعه ببحره
سقى الله تلك الدار عودة أهلها فذلك أجدى من سحاب وقطره
لئن جمع الشمل المشتت شمله فما بعدها ذنبٌ يعد لدهره
فكيف ترى أشواقه بعد عامه إذا كان هذا شوقه بعد شهره
بعيدٌ قريبٌ منكم بضميره يراكم إذا ما لم تروه بفكره
ترحل عنكم جسمه دون قلبه وفارقكم في جهره دون سره
إذا ما خلت منكم مجالس وده فقد عمرت منكم مجالس شكره

فيل ليل لا تجلب عليهم بظلمة وطلعة بدر الدين طلعة بدره
ونسأل الله تعالى أن يمن بقربه ورحاب الآمال فسائح، وركاب الهموم طلائح والزمن المناظر
بالقرب مسامح؛ هنالك تطلق أعنة الآمال الحوابس، ويهتز مخضراً من السعود عودٌ يابس
وما أنا من أن يجمع الله شملنا بأحسن ما كنا عليه بآيس
وقد كان الواجب تقديم عتبه، على تأخير كتبه؛ ولكنه خاف أن يجني ذنباً عظيماً ويؤلم
قلباً كريماً
ولست براضٍ من خليل بنائلٍ قليلٍ ولا راضٍ له بقليل
وحاشى جلاله من الإخلال بعهود الوفاء، ومن انحلال عقود الصفاء، وما عهدت عزمه
القوى في حلبة الشوق إلا من الضعفاء، وحاشية خلقه إلا أرق من مدامع غرماء الجفاء
من لم يبيت والبين يصدع قلبه لم يدر كيف تقلقل الأحشاء
وكتب أيضاً في مثل ذلك: كتب مملوك المولى الأجل عن شوقٍ قدح الدمع من الجفون شرارا،
وأجرى من سيل الماء نارا، واستطال واستطار فما توارى أوارا، ووجدٍ على تذكر الأيام
التي عذبت قصارا، والليالي التي طابت فكأنما خلقت جميعها أسحارا
وبي غمرةٌ للشوق من بعد غمرةٍ أخوض بها ماء الجفون غمارا
وما هي إلا سكرةٌ بعد سكرةٍ إذا هي زالت لا تزال خمارا
رحلتم وصبري والشباب وموطني لقد رحلت أحبابنا تتبارى
ومن لم تصافح عينه نور شمسه فليس يرى حتى يراه نهارا
سقى الله أرض الغوطتين مدامعي وحسبك سحبا قد بعثت غزارا
وما خدعتني مصر عن طيب دارها ولا عوضتني بعد جاري جارا
أدار الصبا لا مثل ربعك مربعٌ أرى غيرك الربع الأنيس قفارا
فما اعتضت أهلا بعد أهلك جيرةً ولا خلت دار الملك بعدك دارا
وما ضر اليد الكريمة التي أياديها بيض في ظلمات الأيام، وأفعالها لا يقوم بمدحها إلا ألسنة
الأسنة والأقلام؛ لو قامت للمودة بشرطها، ومحت خط الأسى بخطها؛ وكتبت ولو شطر
سطرٍ ففرغت قلباً من الهم مشحونا، وأطلقت صبراً في يد الكمدً مسجونا؛ ونزهت ناظر
المملوك في رياضٍ منثورة الحلى، وحلت عهوده بمكارم مأثورة العلا

وما كنت أرضى من علاك بذا الجفا ولكنه من غاب غاب نصيبه
ولو غيركم يرمي الفؤاد بسهمه لما كان ممن قد أصاب يصيبه
وما لي فيمن فرق الدهر أسوةٌ كأن محبا ما نآه حبيبه
والمملوك مذ حطت مصر أثقاله، وجهز الشام رحاله؛ وألقت النوى عصاها وحلت الأوبة
عراها؛ يكتب فلا يجاب، ويستكشف الهم بالجواب فلا ينجاب
يا غائبا بلقائه وكتابه هل يرتجى من غيبتيك إياب
ومتى يصفى الله ورد الحياة من التكدير، ويتحقق بلقائه أحسن التقدير " وهو على جمعهم
إذا يشاء قديرٌ".
وزمان مضى فما عرف الأ ول إلا بما جناه الأخير
أين أيامنا بظلك والشم ل جميعٌ والعيش غض؟ نضير
وحوشى المولى أن يكون عوناً على قلبه، وأن يرحل إثره الري على سربه، وان ينسيه
بإغباب الكتب ساعات قربه، وأن يحوجه إلى إطلاق لسانه بما يصون السمع الكريم عنه
من عتبه؛ الأخ فلان مخصوصٌ بسلام كما تفتحت عن الورد كمائمه، وكما توضحت عن
القطر غمائمه
إذا سار في ترب تعرف تربها برياه والتفت عليها لطائمه
وقد تبع الخلق الكريم في الإغباب والجفوه، وأعدت عزائمه قلبه فاستويا في الغلظة والقسوه
إن كنت أنت مفارقي من أين لي في الناس أسوه
وهب أن المولى اشتغل - لا زال شغله بمساره، وزمنه مقصوراً على أوطاره - فما الذي
شغله عن خليله، وأغفله عن تدارك غليله؟ هذا وعلائقه قد تقطعت وعوائقه قد
ارتفعت؛ وروضة هواه قد صارت بعد الغضارة هشيما، وعهوده قد عادت بعد الغضاضة
رميما
إن عهدا لو تعلمان ذميما أن تناما عن مقلتي أو تنيما
وما أولى المولى أن يواصل بكتبه عبده، ويجعل ذكره عقده، ولا ينساه ويألف بعده،
ويستبدل غيره بعده.
وكتب أيضاً:
أكذا كل غائبٍ غاب عمن يحبه
غاب عنه بشخصه وسلا عنه قلبه
ولو أن لي يداً تكتب، أو لساناً يسهب، أو خاطراً يستهل، أو فؤاداً يستدل؛ لوصفت إليه

شوقاً إن استمسك بالجفون نثر عقدها، أو نزل بالجوانح أسعر وقدها؛ أو تنفس مشتاقٌ
أعان على نفسه، وظنه استعاره من قبسه؛ أو ذكر محب؟ حبيباً خاله خطر في خلده،
وتفادي من أن يخطر به ذكر جلده
حتى كأن حبيبا قبل فرقته لا عن أحبته ينأى ولا بلده
بالله لا ترحموا قلبي وإن بلغت به الهموم فهذا ما جنى بيده
ولولا رجاؤه أن أوقات الفراق سحابة صيف تقشعها الرياح، وزيارة طيفٍ يخلعها الصباح؛
لاستطار فؤاده كمدا، ولم يجد ليوم مسرته أمدا؛ ولكنه يتعلل بميعاد لقياه، ويدافع سما أعله
بلعله أو عساه
غنىً في يد الأحلام لا أستفيده ودينٌ على الأيام لا أتقاضاه
ومن غرائب هذه الفرقه، وعوارض هذه الشقه؛ أن مولاي قد بخل بكتابه وهو الذي يداوي
به أخوه غليل اكتئابه، ويستعديه على طارق الهم إذا لج في انتيابه
كمثل يعقوب ضل يوسفه فاعتاض عنه بشم أثوابه
وهب أن فلاناً عاقه عن الكتب عائق، واختدع ناظره كمن هو في ناضر عيشٍ رائق؛ فما
الذي عض لمولانا حتى صار جوهر وده عرضا، وجعل قلبي لسهام إعراضه غرضا؟
بي منه ما لو بدا للشمس ما طلعت من المكاره أو للبرق ما ومضا
وما عهدته - أدام الله سعادته - إلا وقد استراحت عواذله، وعرى به أفراس الصبا
ورواحله؛ إلا أن يكون قد عاد إلى تلك اللجج، ومرض قلبه فما على المريض حرج؛ وأياً ما
كان ففي فؤادي إليه سريرة شوقٍ لا أذيعها ولا أضيعها، ونفسي أسيرة غلةٍ لا أطيقها بل
أطيعها
وإني لمشتاق إليك وعاتبٌ عليك ولكن عتبة لا أذيعها
والأخ النظام - أدام الله انتظام السعد ببقائه، وأعداني على الوجد بلقائه - مخصوصٌ
بالتحية إثر التحيه، ووالهفى على تلك السجية السخيه؛ وردت منها البابلى معتقا، وظلت
من أسر الهموم بلقائها معتقا
خلائق إما ماء مزنٍ بشهدة أغادي بها أو ماء كرمٍ مصفقا
وقد اجتمعت آراء الجماعة على هجراني، ونسوا كل عهدٍ غير عهد نسياني
وما كنتم تعرفون الجفا فبالله ممن تعلمتم.

وكتب أيضاً: إن أخذ العبد - أطال الله بقاء المجلس وثبت رفعته وبسط بسطته، ومكن
قدرته، وكبت حسدته - في وصف أشواقه إلى الأيام التي كانت قصارا وأعادت الأيام
بعدها طوالا، والليالي التي جمعت من أنوار وجهه شموساً ومن رغد العيش في داره ظلالا
وجدت اصطباري بعدهن سفاهةً وأبصرت رشدي بعدهن ضلالا
وإن أخذ في ذكر ما ينطق به لسانه من ولاءٍ صريح، ويعتقده جنانه من ثناءٍ فصيح
تعاطى منالا لا ينال بعزمه وكل اعتزامٍ عن مداه طليح
ولكنه يعدل عن هذين إلى الدعاء بأن يبقيه الله للإسلام صدرا، وفي سماء الملة بدرا، وفي
ظلمات الحوادث فجرا؛ وأن يجمع الشمل بمجلسه وعراص الآمال مطلوله وسهام القرب على
نحور البعد مدلوله، وعقود النوى بيد اللقاء محلوله؛ "وما ذلك على الله بعزيز".
فقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا
وما رمت به النوى مراميها، ولا سلكت به الغربة مواميها؛ إلا استنجد شوقه من الجفون
هاميا، واستدعى من الزفرة ما يعيد مسلكه من الجوانح داميا، وصدر عن منهل الماء
العذب النمير ظاميا، وتعلل بالأماني في الاجتماع " وآخر ما يبقى الإياس الأمانيا " والسلوة
أن الطريق بحمد الله أسفرت عن فضل اجتهاده، وفضيلة جهاده؛ ونصرة الإسلام، وإعلاء
الأعلام؛ وخدمة المجلس الفلاني - أعز الله نصره، وأسعد بها جده، وبلغ بها قصده،
وأمضى في الكفر حده؛ وأورى بها للإسلام قدحا، وشرفت حديثا وشرحا، وأجهدت
الأعداء إثخانا وجرحا
وأبقى بها في جبهة الدهر أسطر إذا ما انمحى خط الكواكب لا تمحى
إذا جاء نصر الله فالفتح بعده وقد جاء نصر الله فليرقب الفتحا
فأما الخادم فيود ألا يزال لشرف محصلا، ولتلك اليد الكريمة مقبلا، وللغرة المتهللة كالصباح
مستقبلا
محيا إذا حياك منه بنظرةٍ فتحت به بابا من اللطف مقفلا
ويرى أن خير أوقاته ما كان فيه بالحاشية الفلانية مكاثرا، وتحت ظلال ألويتها سائرا

فثم ترى معنى السعادة ظاهرا وثم ترى حزب الهداية ظاهرا
والخادم يؤثر من المجلس المواصلة بالمراسم التي يعد أيامها من المواسم، ويقابل بها أوجه
المسار طلقة المباسم؛ ويرتقبها ارتقاب الصوام للأهله، والرواد لمواقع السحائب المنهله.
وكتب عن الملك الناصر صلاح الدين إلى تقي الدين بن عبد الملك:
سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلي بجنوب الغوطتين جنون
وما ذكرتها النفس إلا استفزني إلى طيب ماء النيربين حنين
وقد كان شكى في الفراق مروعى فكيف أكون اليوم وهو يقين كم جهد ما تتسلى#
القلوب، وتسرى الكروب؛ لا سيما إذا كان الذي فارقته أعلق بالأكباد من خلبها، وأقرب
إلى القلوب من حجبها؛ وهل يستروح إلا أن يفض ختام الدمع، ويخترق حجاب السمع،
ويستغيث بسماء العيون ذات الرجع، لتجود أرض الخواطر ذات الصدع؛ وهنالك أوفى ما
يكون الشوق جنداً، وأورى ما يورى الوجد زندا
إلى زفرةٍ أو عبرةٍ مستباحةٍ لهذي مراحٌ عنده ولذى مغدى
وقد علم الله أني مذ فارقته ما دعاني الذكر إلا لبيته بجوابٍ من ماء الغليل غير قليل ولا
ذكرت خلقه الجميل إلا ورأيت الصبر الجميل غير جميل
وغير كثيرٍ وجد كثيرٍ ولوعة قيس والتياح جميل
أهيم برسمٍ فيك للمجد واضحٍ وهاموا برسمٍ للغرام محيل
وقد كتبت إليه حتى كاد يشيب له المداد، لو لم يخلع عليه الناظر حلة السواد وحبة
الفؤاد، فما رد، وجار عن خلقه الكريم فإنه قط ما ود وصد؛ وأوثر منه ألا يحكم الفراق
علي فيشتط، ولا يمكن اللوعة من مهجتي فتخبط
فجد لي بدر؟ من بحارك إنني من الدمع في بحرٍ وليس له شط
بكف؟ بها للحرب والسلم آيةٌ فيحي لديها الخط أو يقتل الخط
ونسأل الله الرغبة في اجتماع لا يكدر ورده، ولا ينثر عقده، ولا يعزب عن آفاق الوفاق
سعده
وما كان حكمي أن أفارق أرضكم ولكن حكم الله لسنا نرده
وكتب عنه أيضاً إلى عز الدين فروخ شاه:
أحبابنا لو رزقت الصبر بعدكم لما رضيت به عن قربكم عوضا

إني لأعجب أني بعد فرقتكم ما صح جسمي إلا زادني مرضا
أنبيكم عن يقينٍ أن قلبي لو أضحى مكان جناحي طائرٍ نهضا
هذا ولو أنه بالعهد فيك وفى لكان حين قضى الله الفراق قضى
كتبت - أطال الله بقاء المولى الولد - عن قريحةٍ قريحه، وإنسان مقلةٍ جريحٍ في جريحه، ولوعةٍ صريحه، وذكرةٍ إذا ذكر الصبر كانت طريحه
وليلٍ بطئ طلوع الصبا ح شوقا إلى القسمات الصبيحه
أبحت فؤادي وأنت المباح وما كان من حقه أن تبيحه
وما أصبحت في قتال العذول أعنة قلبٍ عليهم جموحه
معنىً بريح شمال الشآم لقد عذب الله بالريح روحه
فلا روح الله من قربكم فؤادي بخطرة يأسٍ مريحه
ولولا التعلل بأبنية المنى الخادعه، والنزول بأفنية الاسا الواسعه؛ لتصدعت أكبادٌ وتفطرت، وتجدلت أفراس دموعٍ وتقطرت
يا صاحبي إن الدموع تنفست فدع الدموع تبيح ما قد أضمرت
قد كنت أكتم عن وشاتي سرها ولقد جرى طرف الحديث كما جرت
لله ليلاتٌ قرن بخومها بل بدرها بوجوه عيشٍ أقمرت
أغلت على السلوان شوقكم فما باعت كما أمر الغرام من اشترت
ومذ فارقت تلك الغرة البدريه، والطلعة العزيزة العزيه؛ ما ظفرت بشخصه نوما ولا بكتابه يوما
فواعجبا حتى ولا الطيف طارقا
وأعجب له في الحرب نثر كتائبٍ بكف؟ أبت في السلم نظم كتاب
يحاسبني في لفظةٍ بعد لفظةٍ ومعروفه يأتي بغير حساب
ولو رضيت - وكلا - بأن أحمل من هذا الجفاء كلا؛ لما رضي به لخلقه الرضي، ولأخذ بقول الرضي:
هبوني أرضي في الإياس بهجركم أترضى لمن يرجوك ما دون وصله
والرغبة مصروفة العنان إلى الله أن يبيح من اللقاء منيعا، وينتج من اللطف صنيعا
لو تأخذون بساعةٍ من وصلكم عمرى جميعا
لرغبت في أن تشترى إن كنت ترضى أن تبيعا
ومفارقين مع الصبا عزماً فهل أرجو الطلوعا
أقسمت لو رجعوا لأع قبني الصبا معهم رجوعا
هبكم منعتم قربكم ولبستم بعدا منوعا
أفتمنعون بكم ضلو عا قد شفين بكم ولوعا
ما غايتي إلا الدمو ع وأستقل لك الدموعا

وكتب أيضاً رحمه الله تعالى يتشوق:
فيا رب إن البين أنحت صروفه علي وما لي من معينٍ فكن معي
على قرب عدالى وبعد أحبتي وأمواه أجفاني ونيران أضلعي
هذه تحية القلب المعذب، وسريرة الصبر المذبذب، وظلامه عزم السلو المكذب؛ أصدرتها
إلى المجلس وقد وفدت في الحشى نارها، الزفير أوارها، والدموع شرارها، والشوق أثارها
وفي الفؤاد ثارها:
لو زارني منكم خيالٌ هاجرٌ لهدته في ظلماته أنوارها
أسفاً على أيام الاجتماع التي كانت مواسم لسرور الأسرار، ومباسم لثغور الأوطار؛
وتذكراً لأوقاتٍ عذب مذاقها، وعذب فراقها؛ وروحت بكرها، وروعت ذكرها
والله ما نسيت نفسي حلاوتها فكيف أذكر أني اليوم أذكرها
ومذ فارقت الجناب النوري - لا زال جنى جنابه نضيرا، وسنا سنائه مستطيرا؛ وملكه
في الخافقين خافق الأعلام، وعزه على الجديدين جديد الأيام؛ لم أقف منه على كتاب يخلف
سواد سطوره ما غسل الدمع من سواد ناظري، ويقدم ببياض منظومه ومنثوره ما وزعه
البين من سواد خاطري
ولم يبق في الأحشاء إلا صبابةٌ من الصبر تجري في الدموع البوادر
وأسأله المناب بشريف الجناب، وأداء فرض، تقبيل الأرض؛ حيث تلتقي وفود الدنيا
والآخره، وتغمر البيوت العامرة المنن الغامره؛ يظل الظل غير منسوخٍ بهجيره، وينشر المجد
بشخصٍ لا تسمح الدنيا بنظيره
تظاهر في الدنيا بأشرف ظاهرٍ فلم ير أنقى منه غير ضميره
كفاني عزاً أن أسمى بعبده وحسبي هديا أن أسير بنوره
فأي أميرٍ ليس يشرف قدره إذا ما دعاه صادقا بأميره
وإنني فيِ السؤال بكتبه أن يوصلها ليوصل بها لدى تهانئ تملأ يدي، ويودع به عندي مسرةً
تقتدح في الشكر زندي
عهدتك ذا عهدٍ هو الورد نضرةً وما هو مثل الورد في قصر العهد
وأنا أرتقب كتابه ارتقاب الهلال لتفطر عين عن الكرى صائمه، وترد نفسٌ على موارد الماء
حائمه.
وكتب أيضاً يتشوق:

لا عتب أخشاه لقطع كتابكم واسمع فعذري بعده لا يعتب
مهما وجدتك في الضمير ممثلا أبدا تناجيني إلى من أكتب
كتب عبد حضرة مولاه - حرس الله سموه، وأدام مزيد علائه ونموه، وقرن بالمسار رواحه
وغدوه، وكبت حاسده وأهلك عدوه - عن سلمة ما استثنى فيها الدهر إلا ألم فراقه،
وعافيةٍ موصولةٍ بمرض قلبٍ لا أرجو موعد إفراقه
لو لم يكن إنسان عيني سابحا لخشيت حين بكيت من إغراقه
وعندي إليه وجدٌ يكلم الضلوع، ويتكلم بألسنة الدموع؛ والنفس قريبة استعبار، لذكر
أوقات السرور القصار، وأنوارها التي يكاد سنا برقها يخطف الأبصار.
شهورٌ ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار
إذا العيش غض؟ وريق، والمهج لم يتقسمها التفريق، ولا سار منها إلى بلدٍ فريقٌ وبقي في
بلدٍ فريق، ولا سقاها كؤوس وجدٍ للجفون المترعة تريق
ثملت منها وما لي سوى الغرام رحيق
وإلى الله الشكوى من شوقٍ في الصميم، وصبرٍ راحلٍ وغرامٍ لا يريم، كأنه غريم
زعموا أن من تباعد يسلو لا ومحي العظام وهي رميم
ولقد استغرب وصول الرفاق وقد صفرت من كتابه الكريم عيابهم، ولو زاره لعده تحفة
الخصيص بالتخصيص، وأدرك به بغية الحريص، ورأى للدهر المذنب مزية التمحيص، وصال
به على نوائب الأيام المنتابة صولةً لا يجد عنها من محيص
وحسبتني لوصوله يعقوب بشر بالقميص
هنالك يرتع في تلك الرياض التي غصونها أسطارها، وشكلها أطيارها، وألفاظها نوارها،
ومعانيها ثمارها، وبلاغتها أنهارها، وجزالتها تيارها
إذا أظلمت للنفس فيها ليلةٌ قمر المعاني عندنا سمسارها
ويتلقاه قبل يده بقلبه، ويكاد يسبق ضميره إلى أكله وشربه
ويظنه والطرف معقودٌ به شخص الرقيب بدا لعين محبه
وإذا ضن مولاه بمأثوره، جاد عليه بميسوره؛ ...
فكأنني أهديت للشمس السنا وطرحت ما بين المصاحف دفترا
وعلى كل حالٍ فيسأله أن يواصله من مراسمه بما ينتظره ناظره ليجد نورا، وقلبه ليستشعر
به سرورا، وخاطره ليجعله بينه وبين الهم سورا؛ وألا يخلى رفقةً من كتابٍ ولو بالقلائد
القلائل من درر أقلامه، ودراري كلامه.
وكتب: لو استعار الخادم - أدام الله نعمة المجلس - أنفاس البشر كلاما، وأغصان الشجر

أقلاما؛ وبياض النهار أطراسا، وسواد الليل أنقاسا؛ ما عبر عن الوجد الذي عبرت عنه
عبراته، ولا عن الشوق الذي لا يستثيره مثله معبداً إذا هزجت في الثقيل الأول نبراته؛ أسفا
على ما عدمه في هذه الطريق، من ذلك المحيا الطليق، والخلق الذي هو بكل مكرمةٍ خليق،
والصفات التي يحسن بها كل حسنٍ ويليق، ويعذر كل جفنٍ يسفح ذخيرته شوقا إليها ويريق
قفا أو خذا في العذل أي طريق فما أنا من سكر الهوى بمفيق
أما والهوى إن الهوى لأليةٌ يعظمها في الحب كل مشوق
لو أن الهوى مما تصح هباته لقاسمت منه قلب كل صديق
وما زار ناظر خادمه الكرى إلا تمثل له مولاه طيفا يهم أن يتعلق بأذياله، وقبل تمويه ناظره
على قلبه في وصاله
وود أن سواد الليل مد له وزاد فيه سواد القلب والبصر
ولقد وجد طعم الحياة لبعده مرا، وقال بعده للذتي العين والقلب مرا
وها هو يرجو في غدٍ وعد يومه لعل غدا يأبى لمنتظرٍ عذرا
وإلى الله سبحانه وتعالى يرغب أن يجعله بالسلامة مكنوفا، وصرف الحدثان عن ساحته
مكفوفا، وعنان الصروف عن فنائه مصروفا، ووفود الرجاء على أرجائه عكوفا؛ وأن يمتع
الوجه بوصفه الذي هو أشرف من كل وجهٍ موصوفا
من كان يشرك في علاك فإنني وجهت وجهي نحوهن حنيفا
وقد كان ينتظر كتاباً يشرفه و يشنفه، ويستخدمه على الأوامر ويصرفه؛ ويجتني ثمر السرور
غض المكاسر ويقتطفه؛ فتأخر ولم يحدث له التأخير ظنا، ولا صرفه عن أن يعتقد أن مولاه
لا تحدث له الأيام بخلا بفضله ولا ضنا
لو تصرف السحب الغزاز عن الثرى لما انصرفت عن طبعك الشيم الحسنى
وهو ينتظر من الأمر والنهي ما يكون عمله بحسبه، ويثبت له عهد الخدام بنسبه
ومن عجبٍ أني أحن إليهم وأسأل عنهم من أرى وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي.
وكتب أيضاً: كتبت والعبرات تمحو السطور، ويوقد ماؤها نار الصدور ويهتك وجدا كان
تحت الستور، ويرسل من بين أضلعي نفس الموتور
قد ذكرنا عهودكم بعد ما طا لت ليالٍ من بعدها وشهور
عجباً للقلوب كيف أطاقت بعدكم ما القلوب إلا صخور

وما وردت الماء إلا وجدت له على كبدي وقداً لا بردا، ولا تعرضت لنفحات النسيم إلا
أهدى إلي جهدا، ولا زارني طيف الخيال إلا وجدني قد قطعت طريقه سهدا، ولا خطف
لي البارق الشامي إلا باراه قلبي خفوقا ووقدا
وأيسر ما نال مني الغلي ل ألا أحس من الماء بردا
فسقى الله داره ما شربت من الغمام، وأيامنا بها وبدور ليالي تلك الأيام تمام
ذم الليالي بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأقوام
وكان قد وصل منه كتابٌ كالطيف أو أقصر زورا، وكالحب أو أظهر جورا، والربيع أو
أبهر نورا، والنجم أو أعلى طورا، والماء الزلال أو أبعد غورا؛ فنثرت عليه قبلى، وجعلت
سطوره قبلي بل قبلي، ووردت منه موردا
أهلاً به وعلى الإظماء أنشده لو بل من غللى أبللت من عللى
إلا أنه - أبقاه الله - ما عززه بثان، ولا آنس غريبه، وإني وإياه غريبان
وكم ظل أو كم بات عندي كتابه سمير ضمير أو جنان جنان
وأرغب إليه - لا زالت الرغبات إليه - ، وأسأله - لَا خيم السؤال إلا لديه - ؛ أن
يلاطف بكتابه قلبي، ويمثل لي بمثاله أيام قربي
والله لولا أنني أرجو اللقا لقضيت نحبي
هذا وما فارقتكم لكنني فارقت قلبي.
وكتب جواب كتاب ورد عليه:
شكرت لدهري جمعه الدار مرةً وتلك يدٌ عندي له لا أضيعها
وطلعة مولانا يطالع عبده وكل ربوعٍ كان فيها ربوعها
فؤادٌ سقاه لا يعود غليله وعينٌ رأته لا تفيض دموعها
ورد على الخادم كتاب المجلس - أعلى الله سلطانه وأثبته، وأرغم أنف عدوه وكبته،
وأصماه بسهام أسقامه وأصمته؛ ولا أخلى الدنيا من وجوده، كما لم يخل أهلها من جوده،
ولا عطل سماء المجد من صعوده، كما لم يعطل أرضها من سعوده - وهو كتابٌ ثانٍ يثني إليه
عنان الثناء، ويصف ليَ حسن العهد على التناء، ويستنهض الأدعية الصالحة في الأطراف
والآناء، ويبشر الخادم بأنه وإن كان بعيد الدار فإنه بمثابة المقيم في ذلك الفناء، وأن هذه
الخدمة التي أنعم الله عليه بها وثيقة الأساس على الدهر شامخة البناء؛ فقام له قائما على
قدمه، وسجد في الطرس ممثلا سجود قلمه، واسترعى الله العهد على أنه تعالى قد رعى ما

أودعه في ذمة كرمه؛ وصارت له نجران علاقة خيرٍ صرف إليها وجهه فكأنها قبله، ودعا
بنى الآمال إلى اعتقاد فضل مالكها فكأنما يدعوهم إلى مله؛ والله يوزعه شكر هذا الافتقاد
على البعاد، ولا يخله من هذا الرأي الجميل الذي هو ملجأ الاستناد؛ وعقد الاعتقاد؛
والخادم لا ينفك متطلعا لأخبار المولى فترده مفضلةً ومجمله، ومفصلةً ومجمله؛ ويعرف منها
ما يعرف به موقع اللطف بالمولى في أحواله، ومكان النجح في آماله؛ وأنه بحمد الله في نعمةٍ
منه - لا غير الله ما به منها، ولا صرفها عنه ولا صرفها عنها - فيجدد لله الشكر
والحمد، ويبلغه ما يبلغه منها المراد والقصد؛ ونسأل الله ألا يخلى الدولة الناصرية منه
ناصرا لسلطانها، وعينا لأعيانها؛ وسيفا في يد الإسلام يناضل عن حقه، وفرعا شريفا
يشهد مرآه بشرف عرقه؛ والرأي أعلى في إجرائه على ما عود من هذا الإنعام، وزيادته
شرفا بالاستنهاض - إن صلح له - والاستخدام.
ومن جواب آخر: ورد كتاب المجلس - أدام الله واردات الإقبال على آماله، ولا سلبت
الأيام نعمتي جميله وإجماله، ولا انحط قدر بدره عن درجتي تمامه وكماله، وأحسن جزاءه
عن ميثاق الفضل الذي نهض باحتماله - ووقفت منه على ما لا يجد الشكر عنه محيدا،
وآنست به القلب الذي كان وحيدا، وعددت يوم وصوله السعيد عيدا، ووردت منه بئرا
معطلةً وحللت قصرا مشيدا؛ ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وتلك الغاية ليست في
وسعي، ولا تعلم نفسٌ إلا ما طرق سمعها، وتلك المحاسن ما طرق مثلها سمعى، ولا تتناول
يدٌ إلا ما وسعه ذرعها، وهذه الأوابد الأباعد ما طالها ذراعي ولا استقل بها ذرعي.
ومن آخر: خلد الله أيام المجلس، عضد الملة الحنيفية منه بحاميها، والأركان الإسلامية من
سيفه بشائدها وبانيها، وأمتع الدولة المحمدية بعزمته التي حسنت الكفاية بها، فلا غرو أن
تحسن الكفاية فيها؛ ولا عدمت الدنيا نضرةً بأيامه النضيره، والدين نصرةً بأعلامه النصيره؛
المملوك يقبل التراب الذي يوماً يستقر بحوافر سيله، ويوما يستقر بحوافر خيله - فلا زال في

يوم السلم جوده سحابا صائبا، ويوم الحرب شهابا ثاقبا - وينهى أنه وردت عليه المكاتبة
التي استيقظت بها آماله من وسنها، وأفادته معنىً من الجنة فإنها أذهبت ما بالنفوس من
حزنها، وتلقى المملوك قبلها بالسجود والتقبيل، وتحلى بعقود سطورها فهيهات بعد هذا
شكوى التعطيل؛ واكتحل من داء السهد بإثمدها، وأدار على الأيام كأس مرقدها، وأسمعته
نغم النعم التي هي أعجب إلى النفس من نغمات معبدها، وأطالت الوقوف عليها ركاب
طرفه فما وقوف ركابه طرفة ببرقة ثهمدها؛ وضرع إلى من يشفع وسائل المتضرعين، ويملأ
مواقع آمال المتوقعين؛ أن يغل عنه كل يدٍ للخطوب بسيطه، ويفك به كل ربقةٍ للأيام بأعناق
بنيها محيطه.
ومن آخر: رفع الله عماد الإسلام ببقاء المجلس، وبسط ظله على الخلق، وملك يده
الكريمة قصب السبق، وجمع بتدبيره بين ناصيتي الغرب والشرق؛ وألف لقدرته طاعتي الجهر
والسر، وصرف بعزمته زمامي النهي والأمر، وأحرز لجده مسرتي الأجر والنصر، وقط
بفتكته شوكتي النفاق والكفر - وردت على المملوك مكاتبةٌ كريمةٌ رفعها حيث ترفع
العمائم، ومد اليد إليها كما تمد إلى الغمائم؛ وفضها، بعد أن قضى باللثم فرضها،
واستمطرت نفسه سماءها فأرضت أرضها؛ وكاد المملوك يتأملها لولا أن دمع الناظر إلى
العين سبقه، على أنه دمعٌ قد تلون بتلون الأيام في فراقه، فلو فاض لعصفر الكتاب وخلقه؛
فلا أعدمه الله المولى حاضرا وغائبا، ومشارفها ومكاتبا، وأحله في جانب السعادة ويعز
على المملوك أن يحل من مولاه جانبا.
ومن آخر: ورد كتابه ووقفت على ما أودعه من فضل خط؟ وفصل خطاب، وعقائل
عقولٍ ما كنا لها من الأكفاء وإن كنا من الخطاب، وآثار أقلامٍ تناضل عن الملة نضال
النصال، وكأنها فضل سبقٍ لما تحوزه من حق السبق وخصل الخصال؛ فأعيذ الإسلام من
عدمه، ولا عدم بسطة قلمه، وثبوت قدمه؛ فإنه الآن عين الآثار، وأثر الأعيان، وخاطر
الحفظ إلا أن الخطوب تصحب فيه خواطر النسيان؛ ولينٌ اهتصر الدهر سطوا، واختصر

خطوا؛ وإنه سيفٌ يمانٍ إن قدم عهدا، فقد حسن فرندا، وخشن حدا؛ وأجرى نهرا،
وأورى شررا؛ واخضر خميله، وقطع الأيام جميله؛ وضارب الأيام فأجفلت عن مضاربه
ضرائبها، وشردت عن عزمه غرائبها؛ ولبسها حتى أنهجت بواليا، ثم اختار منها أياما
وأبى أن يلبسها لياليا؛ لا جرم أن صحيفته البيضاء شعار شعره، وروضة علمه الغناء قد
لت أنوار نوره، وزواهر زهره؛ فالزمان لا يعدو عليه بزمانةٍ تعدو، ولا يتجاوز أوقاته إلا
موسوعةً بمحاسنه ولا يعدو؛ حتى يمت إليه عدو؟ يلتفت أمس، ويروى اليوم أن قرابته من
فضله أمس؛ والله يعلم أنني لأرى له ولا أرى فيه، وأسد عنه كل خرقٍ تعجز عنه يد رافيه؛
ضناً بالصدور أن تخلو من صدرٍ كقلبها، ومحاماةً عن حقوق تقدمته التي أوجبها أن
تعارض بسلبها.
ومن آخر: وصل كتاب الحضرة فجعل مستقره النعمة في الصدور، وأخرجتني ظلمات
خطه إلى نور السرور؛ ووقفت وكأني واقف على طللٍ من الأحبة قد بكى عليه السحاب
بطله، وابتسم له الروض عن أخبار أهله وآثار منهله؛ فلم أزل أرشف مسك سطوره
ولماها، وأنزه العين والقلب بين حسنها وجناها؛ وأطلق عنان شوقٍ جعلت الأقلام له لجما،
وحسبت النقس ليلا، والكتاب طيفا، والوقوف عليه حلما؛ إلى أن قضت النفوس وطرا،
وحملت الخواطر خطرا، وقرنت بما ظنه سحابا ما ظنه مطرا؛ هذا على أنه قريب العهد
بيد النعماء، فإن هرب فمن ماءٍ إلى ماء.
ومن آخر: فلما وقف على الكتاب جدد العهد بلثمه ما لم يصل إلى اليد التي بعثته، وشفى
القلب بضمه عوضاً عن الجوانح التي نفثته
وأين المطامع من وصله ولكن أعلل قلبا عليلا.
ومن آخر: وصل كتابه، وكان من لقائه طيقا إلا أنه أنس بالضحى، وأنار حرب الشوق
وكان قطب الرحى
تخطى إلى الهول والقفر دونه وأخطاره لا أصغر الله ممشاه.
ومن كلامه رحمه الله يصف بلاغة كتابٍ، قال: كتابٌ إلى نحرى ضممته، وذكرت به الزمن

الذي ما ذممته، وأكبرت قدره فحين تسلمته استلمته والتقطت زهره فحين لمحته استلمحته،
وامتزج بأجزاء نفسي فحين لحظته حفظته؛ وجمعت بينه وبين مستقره من صدري،
واستطلت به مع قصره على حادثات دهري، وجعلت سحره بين سحري ونحري،
واستضأت به ورشفته فهو نهاري وهو نهري؛ فإن أردت العطر بلا أثرٍ أمسكت مسكه
بيدي، وإن أردت السكر بلا إثمٍ أدرت كأسه في خلدي؛ فلله أنامل رقمته، ما أشرف
آثارها وخواطر أملته، ما أشرف أنوارها ولم أزل متنقلا منه بين روضةٍ فيها غدير، وليلةٍ
فيها سمير؛ وإمارةٍ لها سرير، ومسرةٍ أنا لها طليقٌ أسير، ونعمةٍ أنا لها عبدٌ بل بها أمير؛
حتى أدبرت عني جيوش الأسى مفلوله، وقصرت عني يد الهم مغلوله؛ وملئت مني مسامع
المكارم حمدا، وخواطر الصنائع ودا؛ وحط الأمل بربعي رحله، وأنبت الربيع بفنائي بقله؛
ولبست من الإقبال أشرف خلعه، ووردت من القبول أغزر شرعه، وانتجعت من رياض
الرجاء أرجى نجعه.
وقال أيضاً من آخر: هذا من عفو الخواطر، فكيف إذا استدعى المجلس خطية خطه
فجاءت تعسل، وحشد حشود بلاغته فأتت من كل حدبٍ تنسل.
ومن آخر: ورتع في رياض بلاغته التي لم يقتطفهن من قبله غارس ولا جان، واجتلى الحور
المقصورات في الطروس التي لم يطمثهن إنسٌ قبله ولا جان؛ وغني بتلك المحاسن غنىً خيرا
من المال، واعتقد فيها كنوزا إذا شاء أنفق منها الجمل، وإذا شاء أمسكٍ منها الجمال.
وقال أيضاً: كتابٌ اشتمل على بديع المعاني وباهرها، وزخرت بحار الفضل إلا أنني ما
تعبت في استخراج جواهرها؛ بل سبحت حتى تناولتها، وجنحت إلي فما حاولتها؛
واقتيست من محاسن أوصافه، وبدائع أصنافه؛ نكتا استقلت أجسادها بالأرواح، وزهيت
جيادها بما فيها من الغرر والأوضاح؛ فيا لله من بدائع وروائع، ولطائف وطرائف فيها ما
تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وما يقرط الأسماع ويقرط الألسن؛ فكأنه طرف طرفٍ صوبه
مدرار، وعلم علم منصوبٌ في رأسه نار؛ صحح السحر وإن كان ظنا، وفضح الدر إذ كان

أبرع معنى، وأسنى حسنا، وأدنى مجنى، وأغنى مغنى؛ فما ضره تأخير زمانه، مع تقدم
بيانه؛ ولا من سبقه في عصره، مع أنه قد سبق في شعره.
ومن آخر: ولله هو من كتابٍ لما وقفت عليه الغلة شفاها، ورأت وردها كل ماءٍ غيره
سفاها، ووطأ مضاجع أنسها بعد أن كان الشوق يقلب الجنوب على سفاها؛ فلا عدم
ودها الذي به عن كل مودةٍ سلوة، ولا برحت كفاية الله تحلها في الذرا وتعلى قدرها في
الذروه، ولا فقد مما ينعم به أي نعمه، ولا مما ينشيه أي نشوه.
ومن آخر: كتابٌ كريمٌ تبسم إلي ضاحكا، وظن مداده أنه قد جلا سطره علي حالكا؛
فما هو إلا سواد الحدقة منه انبعثت الأنوار، وما هو إلا سويداء ليلة الوصل اشتملت على
دجىً تحته نهار، فلله هو من كتابٍ استغفر الدهر ذنب المشيب بسواده، واستدرك الزمان
غلطه بسداده.
ومن آخر: كتابٌ تقارعت الجوارح عليه فكادت تتساهم، فقالت اليد: أنا أولى به، شددت
على مولاه ومولاي عقد خنصري، ورفعت اسمه فوق منبري؛ وقبضت عليه قبضتي،
وبسطت في بسط راحته وقت الدعاء راحتي؛ وقالت العين: أنا أولى به، أنا وعاء شخصه،
وإلي يرجع القلب تمثيله ونصه؛ وأنا سهرت بعد رحيله وحشة، وأنا إذا ذكر هجير القلب
عللته رشفةً بعد رشة؛ فقال القلب: طمعتما في حقي لأني غائب، وهل أنت لي يا يد إلا
خادم؟ وهل أنت لي يا عين إلا صاحب؟ أنا مستقره ومستودعه، ومرتعه ومشرعه، وأنا
أذكره وبه أذكركما، وأحضره ولخدمته أحضركما؛ فاليد أستخدمها مرةً في الكتابة إليه،
ومرة في شد الخنصر عليه؛ ومرةً في الإشارة إلى فضله، ومرةً في الدعاء بكل صالحٍ هو من
أهله؛ والعين استخدمتها في ملاحظة وجهه آئبا، وفي توقع لقائه غائبا؛ وفي السهد شوقا إلى
قربه، والمطالعة لما يخرج أمري بكتبه من كتبه، فهنالك سلمتا واستجرتا، وألقتا واستأخرتا؛
وكدت أرشف نفسه لأنقله إلى سويداه، لولا أن سواد العين قال: أنا أحوج إلى الاستمداد من
هداه.
ومن كلامه رحمه الله تعالى ما ركب نصف قرائنه على نصف بيت نحو قوله:

وصل كتاب مولاي بعد ما أصات المنادى للصلاة فأعتما
فلما استقر لدي، "تجلى الذي من جانب البدر أظلما" فقرأته، "بعينٍ إذا استمطرتها
أمطرت دما" وسألته، "فساءلت مصروفا عن النطق أعجما " ولم يرد جوابا، "وماذا عليه لو
أجاب المتيما" ورددته قراءة، "فعوجلت دون الحلم أن أتحلما " وحفظته، "كما يحفظ الحر
الحديث المكتما" وكررته، "فمن حيثما واجهته قد تبسما "وقبلته، "فقبلت درا في العقود
منظما" وقمت له، "فكنت بمفروض المحبة قيما" وأخلصت لكاتبه، "وليس على حكم
الحوادث محكما" ولم أصدفه، " ولكنه قد خالط اللحم والدما" وأزخت وصوله، " فكان
لأيام المواسم موسما" وداويت عليل "حشا ضر ما فيه من النار ضرما " وشفيت غليل "
فؤادٍ أمنيه وقد بلغ الظما" فأما تلك الأيام التي " حماها من اللوم المقام على الحمى" والليالي
العذاب التي "ملأن نحور الليل بيضا وأنجما" فإني لأذكرها، "بصبرٍ كما قد صرمت قد
تصرماً" وأرسل الزفره "فلو صافحت رضوى لرض وهدما" وأرسل العبره، "كما أنشأ الأفق
السحاب مديما" وأخطب السلوه، "فأسأل معدوما وأقفل معدما" فأما الشكر فإنما "أفض
به مسكا عليك مختما" وأقوم منه بفرض "أراني به دون البرية أقوما" وأوفى واجب قرض،
"وكيف توفى الأرض قرضا من السما".
وقال أيضاً: وصل كتاب الحضرة بعد أن عددت الليالي لطلوع صديعه "وقد عشت دهرا لا
أعد الليالي"، وبعد أن انتظرت القيظ والشتاء لفصل ربيعه " فما للنوى ترمى بليلى
المراميا" واستروحت إلى نسيم سحره، "إذا الصيف ألقى في الديار المراسيا" ومددت يدي
لاقتطاف ثمره، "فلله ما أحلى وأحمى المجانيا" ووقفت على شكواه من زمانه، "فبت
لشكواه من الدهر شاكيا" وعجبت لعمى الحظ عن مكانه "وقد جمع الرحمن فيه المعانيا"
وتوقعت له دولةً يعلو بها الفضل "إذا هز من تلك اليراع عواليا" ورتبةً يرتقى صهوتها بحكم
العدل "فرب مراق يعتدون مهاويا" وإلى الله أرغب في إطلاع سعوده، "زواهر في أفق المعالي
زواهيا" وفي إنهاض عثرات جدوده، "فقد أعثرت بعد النهوض المعاليا".

وقال أيضاً:
وصل من الحضرة
كتابٌ به ماء الحياة ونقعة ال حيا فكأني إذ ظفرت به الخضر
وقفت عبدها منه على
عقودٍ هي الدر الذي أنت بحره وذلك ما لا يدعى مثله البحر
ورتعت منه في
رياض يدٍ تجنى وعينٍ وخاطرٍ تسابق فيها النور والزهر
والثمر
وكرعت منه في حياضٍ
تسر مجانيها إذا ما جنى الظما وتروي مجاريها إذا بخل
القطر
وما زلت منه أنشد
كأني سارٍ قي سريرة ليلةٍ فلما بدا كبرت إذ طلع الفجر
ووافى على ما كنت أعهد
فخلت بأن العين من سحب كفه فمن ذى ومن ذى فيه ينتثر
الدر
وأسترجع فائت الدنيا من مورده
وما كان عندي بعد ذنب فراقه بأني أرى يوما به يعد الدهر
ونفس عن النفس بأبيض ثماده، وعن العين بأسود إثمده
به لهما سبحٌ طويلٌ فهذه على خاطرٍ بردٌ وفي خطرٍ بدر
وجدد إليه أشواقا جديدها
يمر به ثوب الجديدين دائما فيبلى ولا تبلى وإن بلى الدهر
وذكر أياما لا يزال يستعيدها
وهيهات أن يأتي من الدهر فائتٌ فدع عنك هذا الأمر قد
قضي الأمر.
وكلام القاضي الفاضل - رحمه الله - كثيرٌ، بأيدي الناس منه عدة
مجلدات، أخبرني من
أثق بقوله من القضاة الحكام الأعيان أنه يزيد على خمسين
مجلدا قد جمعت، أما ما لم يجمعه
الناس فكثير جدا؛ وقد نقل بعض من أرخ، أنه وجد للقاضي
الفاضل مسودات كتب
صدرت عنه وأجوبةٍ تزيد إذا جمعت على مائة مجلد، ولا يحتمل
الحال أن نورد له أكثر مما
أوردناه، ورسائله المختارة كثيرةٌ قد يكون فيها أجود مما
اخترناه ونحوه، وإنما أوردنا له ما
حضر في هذا الوقت، إذ لم يمكن البحث عن كلامه والاستقصاء،
وإن كان كل رسائله
مختارةً رحمه الله.
ذكر شيء من رسائل الشيخ الإمام الفاضل ضياء الدين أبي
العباس أحمد ابن الشيخ الإمام
العابد القدوة أبي عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن عمر بن
عبد المنعم الأنصاري

القرطبي رحمه الله، - وكانت وفاته بقنا من أعمال قوص في سنة اثنتين وسبعين وستمائة -
كتب إلى شيخنا الإمام العلامة تقي الدين محمد ابن الشيخ الإمام الحبر مجد الدين أبي
الحسن علي بن وهب بن مطيع القشيري المعروف بابن دقيق العيد رحمهم الله تعالى: تخدم
المجلس العالي صفاتٌ يقف الفضل عندها، ويقفو الشرف مجدها، وتلتزم المعالي حمدها؛
وسماتٌ يبتسم ثغر الرياسة منها، وتروى أحاديث السيادة عنها؛ الصدري الرئيسي
المفيدي؛ معانٍ استحقها بالتمييز، واستوجبها بالتبريز، وسبكته الإمامة لها فألفته خالص
الإبريز؛ ومعالٍ أقرته في سويدائها، وأطلعته في سمائها، وألبسته أفضلَ صفاتها وأشرف
أسمائها؛ العلامى الفاضل التقوى؛ نسبٌ اختص به اختصاص التشريف، لا تعريفا له
فالشمس تستغنى عن التعريف؛ لا زالت إمامته كافلةً بصون الشرائع، آخذةً بآفاق سماء
الشرف فلها قمراها والنجوم الطوالع، قاطعةً أطماع الآمال عن إدراك فضله وما زالت تقطع
أعناق الرجال المطامع، صارفةً عن جلاله مكاره الأيام صرفا لا تعتوره القواطع، ولا تعترضه
الموانع؛ وينهى ورود عذرائه التي "لها الشمس خدنٌ والنجوم ولائد" وحسنائه التي "لها الدر
لفظٌ والدراري قلائد" ومشرفته التي "لها من براهين البيان شواهد" وكريمته التي "لها الفضل
وردٌ والمعالي موائد" ووديعته التي "لها بين أحشائي وقلبي معاهد"

وآيته الكبرى التي دل فضلها على أن من لم يشهد الفضل جاحد
وأنك سيفٌ سله الله للهدى وليس لسيفٍ سله الله غامد

فلمثلها يحسن صوغ السوار، ولفضلها يقال: "أناةً أيها الفلك المدار" وإنها في العلم أصل فرع
نابت، والأصل علة النشأة والقرار، وفرع أصلٍ ثابت، والفرع فيه الورق والثمار؛ هذه التي
وقفت قرائح الفضلاء على استحسانها، وأوقفتني على قدم التعبد لإحسانها، وأيقنت أن
مفترق الفضائل مجتمعٌ في إنسانها، وكنت أعلم علمها بالحكام الشرعية فإذا هي في النثر ابن
مقفعها، وفي القصائد أخو حسانها؛ هذه وأبيك أم الرسائل المبتكره، وبنت الأفكار التي

هذبتها الآداب فهي في سهل الإيجاز البرزة وفي صون الإعجاز المخدره، والمليئة ببدائع
البدائه، فمتى تقاضاها متقاضٍ لم تقل: "فنظرةٌ إلى ميسرةٍ"؛ والبديعة التي لم توجه إليها الآمال
فكرها لاستحالة غير مسبوقٍ بالشعور، ولم تسم إليها مقل الخواطر لعدم الإحاطة بغيبٍ
الصدور قبل الصدور، والبديهة التي فصل البيان كلماتها تفصيل الدرر بالشذور؛ إن كلمها
ليميس في صدورها وأعجازها، ويختال في سطورها وإعجازها، وتنثال عليها أغراض
المعاني بين إسهابها وإيجازها؛ فهي فرائد ائتلفت من أفكار الوائلى والإيادي، وقلائد انتظمت
انتظام الدراري، ولطائم فضت عن العنبر الشحري والمسك الداري؛ لا جرم أن غواصي
الفضائل ظلوا في غمراتها خائضين، وفرسان الكلام أضحوا في حلباتها راكضين، وأبناء
البيان تليت عليهم آياتها "فظلت أعناقهم لها خاضعين".

ما إن لها في الفضل مثلٌ كائنٌ وبيانها أحلى البيان وأمثل
فالعجز عنها معجزٌ متيقنٌ ونبيها بالفضل فينا مرسل
ما ذاك إلا أن ما يأتي به وحى الكلام على اليراعة ينزل

بزغت شمساً لا ترضى غير صدره فلكا، وانقادت معانيها طاعةً لا تختار سواه ملكا،
وانتبذت بالعراء فلا تخشى إدراك الإنكار ولا تخاف دركا، وندت شواردها فلا تقتنصها
الخواطر ولو نصبت هدب الجفون شركا

فللأصائل في عليائها سمرٌ إن الحديث عن العلياء أسمار
وللبصائر هادٍ من فضائلها يهدى أولي الفضل إن ضلوا وإن جاروا
بادي الإبانة لا يخفى على أحد كأنه علمٌ في رأسه نار

أعجب بها من كلمٍ جاءت كغمام الظلال على سماء الأنهار وسرت كعليل النسيم عن
أندية الأسحار، وجليت محاسنها كلؤلؤ الطل على خدود الأزهار، وتجلت كوجنة الحسناء
في فلك الأزرار، وأهدت نفحة الروض متأود الغصن بليل الإزار، فأحيتنا بذلك النفس
المعطار، وحيتنا بأحسن من كأسي لمىً وعقار، وآسى ريحانٍ وعذار؛ ولؤلؤي حبيبٍ
وثغر، وعقيقى شفةٍ وخمر، وربيعي زهرٍ ونهر، وبديعي نظمٍ ونثر؛ ولم أدر ما هي أثغور
ولائد؟ أم شذوذ قلائد؛ أم توريد خدود، أم هيف قدود؛ أم نهور صدور، أم عقود نحور؛
أم بدورٌ ائتلفت في أضوائها، أم شموسٌ أشرقت في سمائها؟

جمعن شتيت الحسن من كل وجهة فحيرن أفكاري وشيبن مفرقي
وغازلها قلبي بود؟ محقق وواصلها ذكرى بحمدٍ مصدق
وما كنت عشاقا لذات محاسنٍ ولكن من يبصر جفونك يعشق
ولم أدر والألفاظ منها شريفةٌ إلى البدر تسمو أم إلى الشمس ترتقي
إنما هي جملة إحسان يلقي الله الروح من أمره على قلبها، أو روضة بيان "تؤتي أكلها كل
حينٍ بإذن ربها"؛ أو ذات فضلٍ اشتملت على ذوات الفضائل، وجنّت ثمر العلوم فأجنتها
بالضحى والأصائل؛ أو نفسٌ زكت في صنيعها، ونفث روح القدس في روعها؛ فسلكت سبل
البيان ذللا، وعدمت مماثلا فأضحت في أبناء المعالي مثلا؛ وسرت إلى حوز الأماني والأنام
نيام، فوهب لها واهب النعم أشرف الأقسام؛ فجادت في الإنفاق، ولم تمسك خشية إملاق،
وقيدت نفسها في طلق الطاعة فجاءها توقيع التفضيل على الإطلاق
أبن لي معزاها أخا الفهم إنها إلى الفضل تعزى أم إلى المجد تنسب
هي الشمس إلا أن فكرك مشرقٌ لإبدائها عندي وصدري مغرب
وقد أبدعت في فضلها وبديعها فجاءت إلينا وهي عنقاء مغرب
فأعرب عن كل المعاني فصيحها بما عجزت عنه نزارٌ ويعرب
ومذ أشرقت قبل التناهي بأوجها عفا في سناها بدر تم ؟ كوكب
تناهت علاءً والشباب رداؤها فما ظنكم بالفضل والرأس أشيب
لئن كان ثغري بالفصاحة باسما فثغرك بسام الفصاحة أشنب
وإن ناسبتني بالمجاز بلاغةٌ فأنت إليها بالحقيقة أنسب
ومذ وردت سمعي وقلبي فإنها لتؤكل حسنا بالضمير وتشرب
وإني لأشدو في الورى بثنائها كما ناح في الغصن الحمام المطرب
وتشهد أبناء البيان إذا انتدوا بأني من قس الإيادي أخطب
وإني لتدنيني إلى المجد عصبةٌ كرامٌ حوتهم أول الدهر يثرب
وإني إذا خان الزمان وفاءه وفي؟ على الضراء حر؟ مجرب
إباء أبت نفسي سواه وشيمة قضى لي بها في المجد أصلٌ مهذب

ونفسٌ أبت إلا اهتزازا إلى العلا كما اهتز يوم الروع رمح ومقضب
ولي نسبٌ في الأكرمين تعرفت إليه المعالي فهو ريان مخصب
نمته أصول في العلاء أصيلةٌ لها المجد خدنٌ والسيادة مركب
تلاقى عليه المطعمون تكرما إذا احمر أفقٌ بالمجرة مجدب
من اليمنيين الذين سما بهم إلى العز بيت في المعالي مطنب
قروا تبعا بيض المواضى ضحاءه وكوم عشارٍ بالعشيات تضهب
فرحله الجود العميم ومنصلٌ له الغمد شرقٌ والذوائب مغرب
وهم نصروا والدين عز نصيره وآووا وقد كادت يد الدين تقضب
وخاضوا غمار الموت في حومة الوغى فعاد نهارا بالهدى وهو غيهب
أولئك قومي حسبي الله مثيا عليهم وآي الله تتلي وتكتب
هذه اليتيمة أيدك الله ملحتها الإحماض، وتحليتها الألفاظ في أبعاض الاعتراض لتسرح مقل
الخواطر في مختلفات الأنواع، ويتنوع الوارد على القلوب والأسماع، وإلا فلا تماثل في الأدوات،
وإن وقع التماثل في الذوات، كالجمع بين النورية في السراج والشمس، واشتمال الإنسانية على
القلامة والنفس، والتوارد الإدراكي بين كلى ؟ بالعقل، وجزئي ؟ بالحس؛ وكالعناصر في
افتقار الذوات إليها، وإن تميزت الحرارة عليها؛ وكالمشاركة الحيوانية في البضعة اللسانية،
واختصاص الناطقية بالذات الإنسانية؛ فسيدنا ثمر الروض ونسيمه، وسواه ثراه وهشيمه،
وزهره وأنداؤه، وغيره شوكه وغثاؤه؛ والبدر وإشراقه، وسواه هلاليته ومحاقه؛ اشتراكٌ في
الأشخاص، وامتياز في الخواص؛ ومشابهة في الأنواع والأجناس، ومغايرة في العقول والحواس؛
كالورد والشقيق، والقهرمان والعقيق؛ تماثلا في الجواهر والأعراض، وتغايرا في تمييز
الأغراض؛ فسيدنا من كل جنسٍ رئيسه، ومن كل جوهرٍ نفيسه؛ وأما حسناء المملوك على
مذهبهم في تسمية القبيح بالحسن، والحسن بالقبيح، والضرير بالبصير والأخرس بالفصيح؛
فما صدت ولا صدت يمنى كاسها. ولا شذت في مذهب ولائه عن اطراد قياسها، ولا
زوت عن وجه جلالته وجه إيناسها، ولا جهلت أنه في العلوم الشرعية ابن أنسها، وفي

المعاني الأدبية أبو نواسها؛ ولا خفي عنها أن سيدنا مجرى اليمين، وفي وجه السيادة إنسان
المقلة وغرة الجبين، والدرة في تاج الجلالة والشذرة في العقد الثمين؛ وأنه الصدر الذي يأرز
العلم إلى صدره، وتقترح عقائل المعاني من فكره، وتأتم الهداة ببدره، وتنتمي الهداية إلى
سره، وإنها في الإيمان بمحمديته أم عمارة لا أم عمره؛ وإنه غاية فخارها؛ ونهاية إيثارها، وآية
نهارها ومستوطن إفادتها بين شموس فضائله وأقمارها؛ فكيف تصد وفيه كلية أعراضها،
ومنه علية جملتها وأبعاضها، وفي محله قامت حقائق جواهرها وأعراضها؛ لكنها توارت
بالحجاب، ولاذت بالاحتجاب؛ وقربٍ بالمجلس الكمالي ليكمل ما بها من نقص كمالٍ وكمال
عيب، وتجمع بين حقيقتي إيمان الشهادة والغيب، وتعرض على الرأي التقوى سليمة الصدر
نقية الجيب، وأشهد أنها جاءت تمشي على استحياءٍ وليست كبنت شعيب؛ هذا ولم
تشاهد وجه حسنائه، ولا عاينت سكينة حسينه وهند أسمائه، ولا قابلت نير فضله
وبدر سمائه؛ أقسم لقد كان يصرفها الوجل، ويقيدها الخجل؛ عالمةً أن البحر لا يساجل،
والشمس لا تماثل؛ والسيف لا يخاشن، والبدر لا يحاسن؛ والأسد لا يكعم، والطود لا
يزحم؛ والسحاب لا يبارى، والسيل لا يجارى؛ وأني تبلغ الفلك هامة المتطاول، وأين الثريا
من يد المتناول؛ تلك عوارف استولت على المعالي استيلاءها على المعالم، وشهدت لها
الفضائل بالسيادة شهادة النبوة بسيادة قيس بن عاصم؛ ولا خفاء بواضح هذا الصواب،
عند مقابلة البداية بالجواب؛

فالشمس أوضح من ضياء الأنجم ما البين الأعلى كداجٍ مظلم
يا مثريا من كل علمٍ نافعٍ أيقاس مثرٍ في العلوم بمعدم
أو كفت فضلك في زذاذ غمائمي ما للرذاذ يدٌ بنوء المرزم
وانصب بحرك في ربيع خواطري ما الربيع وفيض بحرٍ أعظم
وسللت سيف العلم أبيض مخذما كالبرق يلمع في غمامٍ مثجم
فللت حدى معضدٍ في راحتي ما للكهام وحد أبيض مخذم
يا سابقا جهدي مصلى عفوه ما للسكيت يدٌ بعفو مطهم
بذ السوابق في العلوم وحازها بالكسب منه والتراث الأعظم

العلم علم محمد وكفى به وعلي؟ الباب المبلغ فاعلم
ما كنت أول محجمٍ عن موردٍ عذبت موارده لقرنٍ محجم
سابقت سباقا شأوت بيانهم ببديع نثرٍ أو بليغ منظم
وسقيت بالكأس الكبيرة منهما لما سقوا بالأصغر المتثلم
حتى إذا سابقته وهو ابن بح ر أو أبو بحرٍ إليه ينتمي
طارت فضائله إلى عليائها بجناح فتخاء ونسرٍ قشعم
وسما به العلم الأجل محله حتى توقل في المحل الأعظم
ومشى حضارا فانثنيت مقصرا أتجول خيلى في مقر الهيثم
لا عار إن عضلت بدائه فكرتي بابن المقفع أو بنجل الأهتم
يا أعلم الفضلاء لست مقاولا فصحى بناتك باللسان الأعجم
لو حاولت فكري مساواةً لها يوما لجاءت بالغراب الأعصم
أقتصر فللبيان سفي بحر فضائله سبحٌ طويل، وللسعي في غاياته معرسٌ ومقيل، وللمحامد
ببثينة محاسنه صبابة جميل، وإني وإن كنت كثير عزة وده، إلا أني في حلبة الفضل لست
من فرسان ذلك الرعيل؛ لا سيما وقد وردت مشرع ألفاظه التي راقت معانيها، ورقت
حواشيها، وأدنت ثمرات الفضل من يمين جانيها؛ فجاءت كالنسيم العليل، والشذا من نفحة
الأصيل، والشراب البارد والظل الظليل
طبعٌ تدفق رقةً وسلاسةً كالماء عن متن الصفاة يسيل
كالمقلة الحسناء زان جفونها كحلٌ وأخرى زانها التكحيل
والروضة الغناء يحسن عرفها وتزاد حسنا والنسيم عليل
والخاطر التقوى كمل ذاته علما وليس لكامل تكميل
والله تعالى يبقيه جامعا للعلوم جمع الراحة بنانها، رافعا له رفع القناة سنانها، حافظا له
حفظ العقائد أديانها، والقلوب إيمانها
ليضحى نديما للمعالي كأنه نديما صفاءٍ مالكٌ وعقيل
ويصبح ظل الفضل من فيء ظله على كنف الإسلام وهو ظليل
وينشأ أبناء العلوم وكلهم بحسنائه في العاشقين جميل
دلالته في الفضل من ذات نفسه وليس على شمس النهار دليل
وكتب - رحمه الله تعالى - رسالةً إلى الصاحب شرف الدين الفائزي عندما ورد عليه
كتابٌ يذكر أن رسول الخليفة وصل يلتمس إجابة لملك المعز أو لملوك الترك إلى صلح الملك
الناصر صلاح الدين يوسف - وقد كان الناس يذكرون أن الملك الناصر يريد أن يهجم
بعساكره على الديار المصرية، وأنه لا يجيب إلى الصلح، فلما جاء الرسول بذلك ظهر للناس
خلاف ما ظنوه -:

لأمرك أمر الله بالنجح عاضد فصل آمرا فالدهر سيفٌ ساعد
وقل ما اقتضت عليك فالعز قائمٌ بأمرك والمجد المؤثل قاعد
ونم وادعا فالجد يقظان حارس لمجدك والعادي لبأسك راقد
فما تبرم الأيام ما الله ناقض ولا تنقض الأيام ما الله عاقد
وقد برزت بكر المكارم والعلا وفي جيدها من راحتيك قلائد
فحفت بها الأملاك وهي مواهب وسارت بها الركبان وهي محامد
وزفت لها النعماء وهي مصادر رفعنا لها الأمداح وهي موارد
فنثرها الإحسان وهي لآلىء ونظمها الإفضال وهي فرائد
فلا زلت محروس العلا يا ابن صاعدٍ وجدك في أفق السيادة صاعد
تسر بك الدنيا ويبتهج الورى وتستوكف النعمى وتحوى المقاصد
ورد كتابٌ كريم، ونبأٌ عظيم؛ لم تجر ينبوعه جياد الأقلام، ولم تجد بنوئه عهاد الأيام، ولم
تظفر بمثله أعياد الإسلام؛ فتلي على عذبات المنابر، وجلي على آماق الأبصار وأحداق
البصائر؛ وكانت بشراه البكر العوان، لما ابتدأت به من البشارة ولما تلده من البشائر،
وطليعة المسار التي واجهت الآمال ووجه السعد سافر، ومقدمة الأمن التي لا يسر بها إلا
مؤمن ولا يساء بها إلا كافر؛ وتحية الله التي أحيت قلوب العباد، ومنة الله التي سكنت لها
السيوف في الأغماد، ونعمة الله التي عمت كل حاضر وباد؛ ورحمة الله التي رحم بها هذه
الأمة وما زال بالمؤمنين رحيما، وفضل الله على هذه الملة وكان فضل الله عليها عظيما؛
وسعادةً سارت بها الأيام إلى المقام المعزى بين الخبب والتقريب، ومركب عز ؟ قدمته
عناية الله تقدمة الجنيب، وكتاباً عنايته هذا عطاء الله، وعنوانه "نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ"،
وسلمٌ جلل وجه الإسلام برد لباسه القشيب، وسلامةٌ جنت يمين الإيمان ثمر غصنها
الرطيب، وعز؟ ألبس الملك خلع شبابه بعد ما خلع غبار الوقائع عليه رداء المشيب،
وشمس سعادةٍ منذ طلعت في أفقها لم تجنح للمغيب، ولطفٌ خفى قعد له كل حمدٍ وقام به
كل خطيب، ومملكة تسمعها الأيام: قفا نضحك بمسار الإنعام لا قفا نبك من ذكرى حبيب،
وغنيمة باردة حازتها يد الملك ولسان السنان غير ناطق وكف السيف غير خضيب

بتسديد رأيٍ لو رأته أميةٌ لما احتفلت يوما بقتل شبيب
إلى غير ذلك من فكرةٍ صاحبيةٍ شرفيةٍ سكن الملك تحت ظلالها ونام، وقعد بأمرها وقام؛
وتحركت لها العزائم، وسكنت لها الصوارم، واستنزلت العصم وذعرت العواصم، وهممٍ إذا
سمت سامت السماء وإذا همت أهمت الغمائم، وعز؟ تحت ظل ظلاله الشرف مقيم وفي
خدمته المجد قائم، وعزمٍ استيقظ له جفن النصر والسيف في جفنه نائم، وسيف حزم على
عاتق الملك منه نجادٌ وفي يد جبار السموات منه قائم؛ وآراءٍ استفتح عقائلها فأنجبت،
ورمى غرض إصابتها فأكثبت، أي أصابت وأعمل رائدها فاستيقظت له الهمم والأنام نيام،
وجلس في صدور رياستها والعالمون قيام، وتدبير أحكم بإبرام النقض ونقض الإبرام، وذعر
به رابض الأسد وأنس به نافر الآرام؛ وأجال به خيله في مساري الأرقم، ومقر الهيثم،
وأمضاه في مضايق خطبه فأغناه عن سن السنان وشفة اللهذم؛ هذا ولما صدقت عزائم
المملكة التي نظم الله قلادة ملكها فليس لها انتثار، ولمعت كواكب اسلها في ليل الرهج
وسماء الغبار، وبنت حوافر خيلها سورا من متراكم النقع المثار، وحصنتها يد الله بما
أظهرته من كامن الغيب وأخفته من طلائع الأقدار، وحضنتها رعاية الله وله من القدر
أعوانٌ ومن الملائكة أنصار
فعمت عموم الليل والليل مظلمٌ وجاءت مجيء الصبح والصبح مشرق
ومدت غماما من سنابك خيلها بسل المواضي المشرفيات يبرق
في كتائب إذا سارت سوابقها ملأت عرض الغبراء، وإذا نشرت خوافقها سترت وجه
الخضراء؛ وكادت تذعر الآساد بمواضي حتوفها، وتسكن المنايا تحت ظلال سيوفها؛ لا
سيما إذا أنجمت أنجم عواليها، ولمعت بروق مواضيها؛ وجاءت خيلها كالصخر الأصم
والطود الأشم أعجازها وهواديها؛ من كل كميتٍ حلوٍ في الإزار، بين الشقرة والاحمرار، كأنه
وردية العقار
يحس وقع الرزايا وهي نازلةٌ فينهب الجري نفس الحادث المكر

وكل أشقر كأنما قد أديمه من لهب النار، معارٍ رداء الحسن، وأحق الخيل بالركض المعار،
لا تعلق به المذاكي يوم رهان ولا تشق له الحوادث وجه غبار كأنما لبس ثوبا من خالص
النضار
عتاق لو جرت والريح شأوا لفاتته وأوثقه إسار
غدت ولها حجول من لجينٍ وراحت وهي من علقٍ نضار
وكل أدهم كريم النجار، غذي اللبان الغزار، كأنما فصلت ثيابه من سواد الليل وصيغت
حجوله من بياض النهار
بأغر يبتسم الصباح بوجهه حسنا ويسفر عن محياً مسفر
خلع الظلام عليه فضل ردائه وثنى من التحجيل ثوب مقصر
وكل أشهب أفرغ في قالب الكمال، وجيهي الأب أعوجى الخال، إن مشى ضاق بزهوه
فسيح المجال، وإن سعى رأيت البرق ملجما بالثريا مسرجا بالهلال، كأنما انتعل خد الجنوب
واشتمل بثوب الشمال
من الجياد التي لم تبد في رهج إلا أرتك بياض الصبح في غسق
ولا جرين مع النكباء في طلقٍ إلا احتقرت التماع البرق في الأفق
وكل مطهم إن ركض قلق السماط لركضه، وخلت بعضه منفصلا عن بعضه وإن مشى
رأيت الطود في سمائه والرياح في أرضه؛ وإن خطا ظننته يرتع في روض المجرة ويكرع في
حوض الغمام، وخلته الأشم من ابنى شمام، همه جهة الأمام وصوته حركة اللجام، كأنه
قطعةٌ من سماءٍ أو ظلةٌ من غمام
جرى والريح في طلقى رهانٍ فقامت دونه ومضى أماما
ومد من السنابك ثوب غيم ولم أر قبلها ثوبا غماما
عليها كل كمى ؟لابس الحرب ولابسته، ومارسها ومارسته؛ وكتبت عليه المواضي في
صدره كتابا أعجمته أطراف الأسل، وجنى ثمر الحديد أحلى عنده من العسل وسار إلى
مهج الأبطال كسيف القضاء وحث الأجل؛ له حنكة الأشيب ونجدة الغلام، وصنعة
الضرب الفذ والطعن التؤام، والفتكات التي تطلع صبح الصوارم في ليل القتام، والفعلات التي
لها فتكات الأورقفي النقد وصولات الأسد في السوام
يمشي إلى الموت عالي الكعب معتقلا أظمى الكعوب كمشي الكاعب الفضل

يحسن في بحار الدروع سبح الفوارس، بين بدور اليلب ونجوم القوانس؛ من كل سابغة لا
تصل إليها ألسنة الحداد، كأنها أثواب الأراقم خيطت بأعين الجراد؛ كفيلة بحماية الأنفس
وصيانة المهج، تنير مسالك لابسها في دياجي الرهج، إنما هي البحر ولا حرج
إذا ما مشوا في السابغات حسبتهم سيولا وقد سالت بهن الأباطح
وكل أبيض هندي ؟ألفت من الملح أبعاضه، البرد جسمه والبرق إباضه؛ المفارق مغاربه
والأجفان مطالعه، والأنفس موارده والمنايا منابعه؛ لو أثمر لأنبت رؤوسا ولو تفجر لسال
نفوسا، ولو تكشف صافى حديده لرأيت فيه عبوسا
سليل النار دق ورق حتى كأن أباه أورثه السلالا
ودبت فوقه حمر المنايا ولكن بعد ما مسخت نمالا
وكل أسمر إذا انتحى فهو صاحٍ وإذا انثنى فهو نشوان، وإذا ورد دم القلب فهو ظمآن القناة
ريان السنان؛ إذا خطب النواصي وخط، وإذا كتبت المواضي نقط؛ وإذا قصرت يد القرن
طال، وإذا صليت نار الحرب العوالي صال
توهم كل سابغةٍ غديرا فرنق يشرب الحلق الدخالا
وكل صفراء رقشاء الأديم، كأنها أرقم الصريم؛ لها فلكٌ بالرزية دائر، وسهمٌ بالمنية طائر،
إن ركب فهو مقيم وإن نزل فهو سائر؛ مع عزائم بنت على الدولة سورا، وجعلت بينها وبين
الذين لا يؤمنون بالدولة المعزية حجابا مستورا؛ على أنها غنيمةٌ لم تحتج إلى الإيحاف
والإيضاع، وطلبةٌ ألفاها على طرف الثمام وحبل الذراع؛ وعنايةٌ جاءت على اختيار المراد
ومراد الاختيار، ونعمةٌ كرت هي والتوفيق في قرنٍ وجرت والسعادة في مضمار، ومنحةٌ
ركضت بها إلى المقام المعزى سوابق الأقدار ومعنىً خفي؟ من نعم الله لم تلجه عقائل
الأفكار؛ وإذا سبقت عناية الله فليس لأمر حتمه الله رافع، وإذا لحظت السعادة امرأ
وقفت دونه آمال المطالب وتقطعت خلفه أعناق المطامع، واستولت يمينه على آفاق سماء
الشرف فلها قمرها والنجوم الطوالع، وهذه مواهب لا تدركها دقائق الأسطرلاب ولا درج
الشمس ولا رصد الطوالع
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله صانع.

وينهي أن حاملها من عقدت عليه الملوك خناصرها، واختص منها بالصحبة ناصرها؛ وله
فضلٌ لا يذاد عن منهل العلم سوامه، ولا تجهل في مسالك الشرف أعلامه؛ وله نفسٌ سمت
حتى أخذت سماء السيادة بيمينها، وهمةٌ إذا رأيت ذاتها الكريمة توسمت الرياسة في
جبينها، وأبوةٌ لا تتجر من المعالي إلا في ثمنها؛ وقد أكلته السنة بل السنوات، وترادفت عليه
الملمات بل المؤلمات؛ وقد صير الجناب الزيني لما يحاوله ذريعه، وورد المنهل الرحب وإنه
لعذب الشريعه، وقد أصاب به مولانا طريق المصنع فألبسه ثياب الصنيعه؛ ومولانا أولى من
أولاه شرف جلاله ونظر إليه بعينٍ كريمةٍ يقابل بها ما يقابله من كرم خلاله؛ فالإبريز قد يشتبه
إلا على نقاده، والغيث قد يخلف إلا على رواده، والماء قد يأجن إلا على وراده؛ وسيدنا
مصعبي الهمم وهذا ابن قيس رقياته، ومهلبي الشيم وهذا حبيب أبنائه، وواثقي الإحسان
وهذا في الجلالة ابن أبي دواده وفي الأدب ابن زياته؛ فليضعه حيث وضعته السيادة
صدرا، وليطلعه كما أطلعته الفضائل بدرا؛ وليصرف إليه عنايةً تعلق بها الحمد علاقة
غيلان بميه، والحكم بأميه؛ وهو يعلم - أدام الله أيامه - أن المناصب عرائس، والصنائع
قلائدها، والولايات مآدب، والمكارم موائدها، والليالي - كما علمت - حبالى، والسيئات
والحسنات ولائدها؛ وخير من لبس ثوب نعمة كاهل هذا الإمام، وإن الحسنة إليه لأشرف
مواهب الأيام، فاغتنمها فإنها غاية الاغتنام؛ وأعيذ مولانا بالله أن يجعل نظره إليه لمحا، أو
يضرب عنه الذكر صفحا، أو يكون مولانا روضةً ثم لا يجد هذا الصدر منها نفحا، ومطلع
آفاق الشرف ثم لا يستوضح هذا الملتمس من أفقها صبحا.
ومثل صدر هذه الرسالة لبعض الكتاب المتقدمين:
الحمد لله مقلب القلوب، وعالم الغيوب؛ الجاعل بعد عسرٍ يسرا، وبعد عداوةٍ ودا، وبعد
تحاربٍ اجتماعا، وبعد تباينٍ اقترابا؛ رأفةً منه بعباده ولطفا، وتحننا عليهم وعطفا؛ لئلا
يستتمهم التتابع، في التدابر والتقاطع؛ وليكونوا بررةً إخوانا، وعلى الحق أعوانا؛ لا يتنكبون
منهجا، ولا يركبون من الشبهة ثبجا، بغير دليلٍ يهديهم قصد المسالك، ولا مرشدٍ يذودهم

عن درك المهالك؛ أحمده على نعمه التي لا يحصى الواصفون إحصاءها، ومننه التي لا تحمل
الخلق أعباءها؛ حمدا يتجدد على ممر الأزمان والدهور، ويزيد على فناء الأحقاب
والعصور؛ وإن أحق ما استعمله العاملون ولحق به التالون، وآثره المؤمنون، وتعاطى بينهم
المسلمون؛ فيما ساء وسر، ونفع وضر؛ ما أصبح به الشمل ملتئما، والأمر منتظما؛ والفتق
مرتتقا؛ والسيف مغمودا ورواق الأمن ممدودا؛ فحقنت به الدماء، وسكنت معه الدهماء،
وانقمع به الأعداء؛واتصل به السرور، وأمنت معه الشرور؛ وليس بذلك أولى، وإلى إحراز
الثواب به أدنى من الصلح الذي أمر الله تبارك وتعالى به، وخص وعم ورغب.
ولنعد إلى كلام الشيخ ضياء الدين بن القرطبي
فم ذلك ما كتب به أيضاً إلى الصاحب شرف الدين الفائزي جواباً عن كتاب شفاعة
يوصى على أخيه نجم الدين، فأجابه الشيخ: يخدم الجناب الشرفي - رفع الله قدره بين
أوليائه، وأطاب ذكره في مقام عليائه؛ وأطال عمره مقترنا بعزه، وأره في كنف سلامته وكهف
حرزه - وردت الأوامر المطاعة، المقابلة بالسمع والطاعه؛ في حق أخي المملوك مولانا نجم
الدين، فتلقى راية طاعتها بيمينه، وأقرها من تعظيمه في أسرة جبينه، وأحلها من شرف
الامتثال في مستودع دينه؛ وقابل حاملها بأوفر ترحيبه، وأقرب تقريبه؛ وواجهه بإجلال
الأخوة، وخلال البنوه؛ وأحله كنف قلبه، وأودعه بين شغاف القلب وخلبه، وأعاده إلى
معهود ولائه وحسبه؛ وقرر له في كل شهر عشرة دنانير وهي نهاية قدرته، وأعلمه أنها أعود
نفعا من ولايته وأقرب عوناً من إمرته؛ وعاهد الله ألا يتعرض لجنديةٍ أبدا، ولا يمد لطلب
ولايةٍ يدا؛ ولا يقف بين يدي الأمراء بعدها، ولا يتجاوز بجلالة أبويه حدها، ولا يهمل شرف
نسبته التي لم تصاعر لها الأيام خدها؛ وأخذ عليه عهود الله والمملوك في الوفاء مهما
عهدها؛ وقد توجه إلى المشارع الصاحبية التي استعذب وردها والمكارم الشرفية التي ألف
حمدها، والصنائع الإحسانية التي وجد في مرارة الفقر حلوها وفي حرارة الغربة بردها؛

وعاود عش الفضل الذي منه درج، وبيت الكرم الذي إليه دخل ومنه خرج، وسماء
الإحسان التي أطلعت نجم إمامته فعرج عليها وإليها عرج، وبحر المعروف الذي إذا أطنب
لسان ثنائه قالت شواهد بيانه: حدث عن البحر ولا حرج؛ ومولانا يضعه تحت كنفه،
ويرفعه الله ولسلفه، ويقابله الجناب الشرفي بما عرفه من شرفه؛ ويعينه على جاريه الذي هو
مادة رفقه، وأول ما أجراه الله على يد مولانا من رزقه؛ بكتاب يجزل له العزمات وينميها،
ويسكن روح الحياة في جسد فاقته ويبقيها؛ فهو ذو ضراء لا تسدها إلا القناعه، وذو فاقةٍ
لا ترفعها إلا السعة التي تمد باعه؛ والله يجعل مولانا وقايةً لمن لجأ إليه، وإعانةً لمن اعتمد
عليه؛ إن شاء الله تعالى.
وكتب إليه أيضاً شفاعةً في بعض الأعيان فقال:
وينهي أن الله تعالى متولى سرائر عباده، ومجازيهم على مخالفة أمره وإن كان على وفق
مراده؛ أعد داري ثوابه وعقابه، وحذر أولى العقوبة من أليم عذابه؛ ثم عمت رحمته فشفع
في العصاه، وعفا عن الجناه؛ فقال: "وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات" ثم
بذلت عوارف الإحسان، وعواطف الحنان؛ حتى شفع إلى خلقه، في العفو عن حقهم
وحقه؛ صفة كرمٍ رحمانيه، وصلة عفوٍ إحسانيه، وصنائع ألطافٍ ربانيه، فشفع إلى الصديق
في مسطح، فقال: "ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين
والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا" فقدم موجبات العطف بما قدم من القرابة
والمسكنة والمهاجرة، ثم تلقاها من أجر الآخرة بكرم المجازاة وريح المعاملة، وحسن جزاء
المنعم، تعريفا بمواقع الإحسان، وتكريما لنوع الإنسان؛
ومملوك مولانا فلان الذي أنزل حاجته
بعبدك، وقصده قبل قصدك؛ وأسكن حريمه مجاورا لحريمه وتشفع به إلى صدر الزمن
وكريمه، واستوهبه الذنب وإن كان معترفا بعظيمه؛ والصنع الجميل ثمرة الأيام، والفضل أثبتته
ألسن الأقلام؛ ولله لحظاتٌ تلحظ عباده ويرحم الراحمين، ويجزى المتصدقين، ولا يضيع أجر
المحسنين؛ وإن مولانا عقال الشرف وذو الفضل الأنف، والعارف في صنائع الإحسان كيف

تؤكل الكتف؛ وقد أحلته على ملاءة أياديك، وألبسته ملاءة معاليك، وأحللته بضمان الله
كنف ناديك؛ وأنت الكريم أخلاقا ونسبا، والطيب أعراقا وأبا، والصدر الذي إذا سامته
الأيام خطة ضيم أبى، وإذا أوطأته مهانةً وخسفا نبا؛ وأحق من قبل هذه الشفاعة كرمك
وأولى من رعاها شيمك، والمعالي جنود الشرف وأحق علمٍ رفع عليها علمك؛ والله تعالى
يبقيه للأنام ملاذا، وللأمل معاذا، ويهب عزمه مضاء وقلمه نفاذا؛ إن شاء الله تعالى.
وكتب إلى قاضي القضاة تاج الدين بن خلف:
يخدم الجناب التاجي - أدام الله شرف الملة ببقائه، وأعلى كلمة الأمة بعلائه وأجرى ألسنة
الأقلام بثنائه، ورفع ألوية أوليائه بولائه - وينهي ورود مشرفته التي تجلت في سماء السيادة
حسنا، وسهلت لفظا وجزلت معنى، وغدا لسان الإحسان عليها يثنى، وعنان الفضائل
إليها يثنى؛ وقد أخذت برقاب المعاني، وأطربت إطراب المثاني، وبعثت روح الحياة إلى
روح الأماني، وثنت إلى فضلها الأول عنان الثاني
فحى هلا بالمكرمات وبالعلا وحى هلا بالفضل والسؤدد المحض
لا جرم أن المملوك سجد لله ثم لجلالة ذلك الاستغفار، وقبول كلمات الاعتذار؛ وعلم أن
مولانا لبس حلة التواضع لتمام شرف الاصطناع، وليجوز أقسام السيادة بالصدر الرحب
والخلق الوساع
سجية نفسٍ شرف الله مجدها بما شاء من فضل لديها ومن حلم
وسؤدد آباء وكسب سيادة تضم إلى عز العلا شرف العلم
هذا مع إساءتنا التي تسود وجوه الأمل، ويقضي كفرها - لولا إيمان مولانا بإحباط العمل،
على أنها ملازمة المعلولات للعلل
وما كنت جاني فتنةٍ غير أنها إذا وقعت أردت مسيئاً ومحسنا
ولو رشقتني مصميات سهامها لألفت لها حكما من الله بينا
وإن جلال الله يشهد أنني بذلت من الوسع الذي كان ممكنا
وحذرت حتى لم أجد متحرزا وأسمعت لكن لم أجد ثم أذنا
وكانت صعابٌ تقتضيها مشيئةٌ وهل لقضاء الله رد؟ إذا دنا
وأما إشارة مولانا إلى الحاجب الذي هو لمولانا أشرف من حاجب بن زراره بما أودعه
أثناء تلك الكلم من لطيف الإشارة وشريف العباره؛ فجزاء مولانا على الله في جبره لقلب

المملوك المنصدع، وصلة أمله المنقطع.
وكتب إلى الصاحب قاضي القضاة بدر الدين السنجاري - وهو يوم ذلك متولى الحكم
والوزارة بالديار المصرية:
لا زال الإسلام يستضيء ببدره، والإيمان يأرز إلى صدره، والشرف يتضاءل عند قدر
جلالته وجلالة قدره، والآمال والآجال مصرفةً بين بسطة نعمته وسطوة قهره، هذه على ذكره
وهذه على شكره، والمكارم والمحامد تتعلق وتتألق هذه بنشره وهذه ببشره، والعزم والرأي
إذا فل أو فال استغاث واستضاء هذا بنصره وهذا بفكره
ولا غرو أن تثني الوزارة جيدها إلى ناظمٍ في جيدها عقد فخره
إلى أحوذي الرأي إن ناب معضلٌ أراك جلى الأمر إيحاء سره
إذا استغزر الذهن الذكي تضاءلت له فكرتا قيس الذكاء وعمره
فيطلع رأيا واضحا من سداده كما انشق برد الليل عن ضوء فجره
إلى سؤدد أجرت معاليه خيله سوابق غراً في بهيمات دهره
وكم سابقٍ أجرى إلى غاية العلا ولكن طوى سبقا ملاءة حضره
بحلم تجلي في أسرة وجهه وجودٍ تجلى من طلاقة بشره
يمينا لقد أضحت جلالة قدرها على شرف المقدار من دون قدره
سطرها المملوك بعد ما لبست الوزارة حلة فخرها، وسحبت ذيل افتخارها، وبدا معصم
شرفها في حلية سوارها، وتجلت معانيها بين شموس فضلها وأقمارها، وجنينا الغض من
زهرها، والطيب من ثمرها، وحمدنا جميل تأثيرها وحميد آثارها
وحيت على بعد المدى نفثاتها بأطيب من رند الربا وعرارها
واجتلى المملوك حسناء إحسانها فما ضارعتها البدور مذ فارقت سرارها، ولا الأنجم
ولو نظم الفلك أنوارها، ولا الروضة وقد عقدت الغمائم إزراها، ولا أطلال مية وقد دبجت
يد الأنواء أزهارها، ولا أردان عزة وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها؛ صلة جاءت كبرد
الشباب، وبرد الشراب؛ اقتضابا قبل السؤال، وابتداء الآمال؛ والمملوك يحضر عقيبها
ليجتلى وجه المنعم قريبا، ويجتنى غصن النعم رطيبا
ومتى لم أقم بشكرك للنا س خطيبا فلا وقيت الخطوبا
وكتب إلى الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد المعروف بابن

حناء:
رفع الله قدر الجناب الصاحبي التاجي في شرف الأقدار، وأجرى بإرادته وسعادته سوابق
الأقدار، وألبسه حلية الشرف التي هي على رأس رياسته تاجٌ وفي معصم سيادته سوار،
وأمضى عزائم آرائه التي إذا سطت يوم البأس نفذت نفوذ السهم ومضت مضاء الغرار، وإذا
سرت في ليل الخطب هدت هداية النجم ووضحت وضوح النهار، وأرضى همته التي إذا
همت أغنت عن الأبيض المرهف والأسمر الخطار، وإذا أمت شأت ناصية الحنفاء وبذت
قاصية الخطار؛ وأرهف أقلامه التي إذا أجراها أثبتت خال النقس، في وجنة الطرس،
وطرزت بالظلماء أردية الشمس؛ وإذا هزها أنست هز العوامل، وأصابت من الأمر الكلى
والمفاصل، وإذا أمضاها لنعمة أو لنقمة فللجاني لعاب الأفاعي القواتل، وللعافي أرى الجنى
اشتارته أيدٍ عواسل؛ ولا زال ربعه مربعا للجلال ومصيفا، ومرتعا لسوام الآمال وخريفا،
ومشرعا وارد الظلال وريفا؛ وحرما آمنا تجبى إليه ثمرات الحمد وتجنى منه ثمرات الرفد،
وتقف المعالي عليه وقوف مطايا الشوق بالعلم الفرد؛ فإنه الربع الذي وقفت به الآمال وقوف
غيلان بدارميه، وعكفت عليه المحامد عكوف توبة على حب الأخيلية؛ والجناب الذي
فاءت ظلاله وفاضت مواهبه وجاءت مذانبه، وجادت سحائبه، وجلت شيمه وتجلت
غياهبه؛ في روض المعالي الذي فاحت نسائمه، وناحت حمائمه، ومنشإ المجد حيث شاب
فأرخيت ذوائبه وشب فقطعت تمائمه، وبيت الرياسة الذي إذا دنوت حباك بإكرامه وإذا
نأيت حيتك مكارمه، وصدر السيادة الذي خضعت له الأعناق هيبة لأبلج لا تيجان إلا
عمائمه

ولا زال بدرا في سماء سيادة يشار إليه في الورى بالأنامل
بسيط مساعي المجد يركب نجده من الشرف الأعلى وبذل الفواضل
إذا سيل أغنى السامعين جوابه وإن قال لم يترك مقالا لقائل
محدد أيام الحياة فكلها لطالب علم أو لقاصد نائل

وينهى ولاء مخبوءا بسويداء قلبه، موضوعا بين شغافه وخلبه؛ وثناءً مسموعا في محافل

الأنام، معلنا في صحائف الحمد بألسنة الأقلام، جديدا على ذهاب الليالي واختلاف الأيام؛
ودعاءً سابق أراعيل الرياح، ووضحت أنوار إجابته وضوح الصباح، وطار إلى ملإ القبول
بقادمة كقادمة الجناح؛ وتحية إذا واجهت وجه الجهام أمطر، وإذا هزت أعطاف الكهام أثر؛
أرق من النسيم السحري، وأعطر من العنبر الشحري؛ وأصفى من ماء المناقع، وأحلى من
جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع يرى ذلك في شرع المروءة واضحا واجبا ...؛ تحية من
أولى النعمة فشكرها وعرف العارفة وما أنكرها، وآمن بيده البيضاء من غير سوء ومذ
آمن بها ما كفرها؛ كيف لا وقد امتزج بحبها لحمه ودمه، وسبح بحمدها قلمه وفمه،
وجرت شيم حمده على أعرق جيادها والخير من سبقت به إلى شكر المنعم شيمه؛ لا
سيما وقد جنى الطيب من ثمارها، وورد العذب من أنهارها؛ فلا أعدم الله مولانا صنائع
الإحسان الذي انعقدت عليه كلمة الإجماع، وأنشده لسان المحامد عن شرف الاصطناع
فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع
ولا زال اللطف صدى صوته إذا دعا، والنجح قرين مساعيه أنى سعى، وحاكم الفضل
يصدق دعواه حوز كل فضيلة كيف ادعى؛ حضر المملوك مهنئا نفسه بهنائه، وساعيا في
خدمته سعي الأجدل في هوائه، والنجم في سمائه؛ من ملازمة وجهه الذي ألقى الله عليه
محبةً منه فاستنار، واكتسى حلة الحياء فألبسته حلة الوقار؛ واجتلته المقل فرأت رونق
الخفر عليه باديا، وائتمت به الهداة فألفته نجما في سماء السيادة هاديا؛ وقالت الأماني في
ظله فأنشأ جوده قائلا:
نزلت على آل المهلب شاتيا
ورأيته والناس مومئون من ليث عليه مهابة فكانوا الكروان
أبصرن بازيا؛ أبهة الجلاله،
وجلالة الأصاله؛ وأصالة الشرف، وشرف الفضل الأنف، ورياسةٌ ورثها خير سلفٍ لخير
خلف، وشيمٌ علمته في المعالي كيف تؤكل الكتف؛ فصادف ركابه العالي قد استقل، وحل
من دارة العز حيث حل؛ فأقام رجاء أن يعاين أسرة جبينه، ويقبله كتقبيل الندى في يمينه؛

وحين جنحت الشمس إلى مستقر الأنوار وطوى الفلك بيد القدرة رداء النهار؛ وأشرف
اليوم من خشية طيه على شفا جرف هار؛ وثوب داعى العصر وحيعل، وعاين نير الفلك
في وجه السماء كعين الأقبل؛ ثنى عنانه إلى مثوى قراره، وانثنى يسابق أدهم ليله بأشهب
نهاره؛ على الرغم أخفق مسعاه، ولم يقل قلبه الشوق الذي دعاه؛ لكن سار وأقام خالص
ولائه وعاد بعد ما أودع الحفظة مرفوع دعائه؛ لكن سار وأقام خالص ولائه وعاد بعد ما
أودع الحفظة مرفوع دعائه؛ فعرف الله مولانا بركات هذا الشهر الذي سارت به إلى إحسانه
مطايا أيامه، وجعله مثبتا لحسناته ممحيا لآثامه، وحلاه بالمقبول من صيامه والمشهور من
قيامه؛ وأراه صدر بره أثلج، ووجه بدره أبلج، وثغر ابتسامه عن رضوان القبول أفلج؛ ورقاه
درج تضاعف حسناته، ولقاه من كرم الله مذخور إحسانه وموعود هباته؛ وأراه الأمل في
بنيه؛ وأرانا فيهم ما رأينا فيه؛ فهو غاب العلم وهم أغصانه وشجره، ومطهم السابقين وهم
حجوله وغرره؛ وإني لألمح من مخايل شرفهم وشرف مخايلهم، وشمائل شيمهم وشيم
شمائلهم؛ نجابةً تضعهم من الرياسة في أنفها، ومن السيادة بمكان شنفها؛ فهم جذوة فضلٍ
مبرقه، ودوحة علمٍ مورقه ونبعة سيادةٍ معرقه، وشموس معالٍ في أفق كل شرف مشرقه؛
سمت بهم أصالة النسب، وفضيلة الأدب المكتسب، وجمعوا بين شرف العمومة والخؤولة
في كرم المنتسب؛ فللعلا ألسنٌ تثنى محامدها على الحميد من فعلهم وشيمهم، وللندى
مواهب عزيت مذاهبها إلى العليين من كرمهم وهممهم؛ لا زالت محاسنهم قلائد الأجياد
وأيامهم مواسم الأعياد، وحرمهم المخصب بالمكارم سواء العاكف فيه والباد؛ إن شاء الله
تعالى.
وكتب إلى القاضي شمس الدين الأصبهاني الحاكم - وكان بالأعمال القوصية - رحمهما
الله تعالى -:
أوضح الله صنائع المجلس في بهيم الآمال غررا، ونظم أياديه في أجياد الأيام دررا، وصفى
مشارع أمانيه إن كان مشرع الأماني كدرا، ولا زال الإسلام يشدو بحمده مفتخرا، والأيام

تتلو مجده سورا، والشرع المحمدي يكون بمضائه في ذات الله منتصرا
فقد نشرت يمناك أردية العلا تحلى بلاد الله بالدين والعلم
وأمضيت أمر الله في شرع أحمد وقيدت شكر الله في مطلق الحكم
وترضى كلا الخصمين في السخط والرضا كأنك تعطي الخصم ما كان للخصم
إلى غير ذلك من محاسن وضحت وضوح النجم في الليل البهيم، وسرت إلى الحمد سرى
المجد إلى الشرف الصميم، وحدثت عن مساعيه فجاءت بالنثر البديع والدر النظيم،
وأثنت عليه ثناء وارف الروض على واكف الوبل بألسنة النسيم
وهزت جناحي فضله وجلاله إلى درك العلياء من غاية المجد
وقالت معاليه لي المجد كله فما ابنة ذي البردين والفرس والورد
فلا عدمه الإسلام إماما فاضلا، وحكما فاصلا، وساعيا إلى غايات الفضائل واصلا،
وفاعل حسناتٍ صير الحاصل من ثنائه باقيا والباقي من عمله الصالح حاصلا؛ المجلس -
أدام الله أيامه - يعلم أن الأيام مستنى بحد شباتها، ورمتني عن قوس أذاتها، وجنتني
الحنظل من شجراتها، والمر من ثمراتها، وأضرمت من نار ألمى ما لم تطفئه مقلتي بفيض
عبراتها
كأني لم اطلع بأفق سمائها ولم أتقلب في ثياب سماتها
ولم أك منها في سويداء قلبها مخايل من هذى العلا وهداتها
- أستغفر الله - فإنها استرجعت ما لم يكن مستحقا، وأبقت إن شاء الله لمجلسه السامي
ما كان حقا، وأسكنته - أدام الله نعمته - وفلك السعادة شرقا ومطلع الشمس أفقا،
وأحلته من كنف السيادة قلبا ومن رأس الرياسة فرقا
وتطلعه الآمال خير غمامة فتلمعه برقا وتوكفه ودقا
وتبقيه للدين الحنيفي عصمةً وللهدي والإضلال إن أبهما فرقا
وتبرزه في صدر كل فضيلة كما بذ شأو الفاضلين بها سبقا
حضر مملوك مولانا الولد وقد رفع من المحامد الشمسية لواء، والتزم العبودية والإخلاص
ولاء، وعمر الأفنية ودادا والأندية ثناء؛ وقال: أحسن مولانا حين أساءت الأيام، وأولى نعمةً
حاتميةً وإنها أشرف الإنعام
وما لي لا أثني عليه بصالح وأشكره والشكر بعض حقوقه
وأملأ من حسن الثنا كل مسمع وإني لأخشى بعد إثم عقوقه

ثم سار وقلبي يتبعه، ودمعه يشيعه، ولساني يستحفظه الله ويستودعه؛ وعليه من الديون ما
أحاط به إحاطة الجفون بمقلها، والأغماد بمنصلها؛ لتوالي هذه المغارم التي طم جداها،
والمظالم التي عم رداها، والمحنة التي ملكتني يداها؛ من خراج طمى بحر ظلمه، وزاد على
حد الجور رسمه وخصصت من بين هذا العالم بوسمه؛ للزومٍ قام بوصفي فتبعه لازمه ومعنىً
وجب لذاتي فاستحال عدمه؛ وقد كان المملوك وولده فيما سلف يجودان بما يجدان لقانع
ومعتر، وغني؟ ومضطر؛ صيانةً للأعراض من أعراض اللوم، ورغبةً في صلة حمد الأمس
بفائد اليوم؛ وسجية نفس تأنف من علاقة الذم؛ وإن كان هذا فيما لا يجب فالقياس فيما
يجب انبعاث النفس إليه من حتم المروءة أمضى، والدين بأداء الواجب أقضى؛ لأنه مؤيد
بإبرام الشرع، وقد صح هذا القياس بجامعية الأصل والفرع؛ لكن ضاقت يد القدرة عن
نفاذها، واعتاضت من وابل الثروة برذاذها؛ وإذا توافرت القرائن أفادت فوق ما تفيد
غلبات الظنون من مدار الشرعيات عليها، وانتهاء غالب الأحكام إليها؛ وقد كان المملوك
حرك عزائم سيدنا قاضي القضاة - شرف الله قدره، وأدام على الإسلام أمره - إلى تحريها
العلوم الكريمة بما هي عالمه، وحكمها بما هي حاكمه؛ ليكون له مستند يدفع أقوال
المتعرضين، ويصرف اعتراض المعترضين؛ ولئلا يقف له واقف فيجري قلمه الشريف بأمرٍ
جازمٍ يجب الوقوف على مثاله، والمسارعة إلى امتثاله؛ فيعز استدراك الأمر بعد إحكامه،
ويكون السعي في معارضته كالنقض لأحكامه؛ فكتب بما يقف عنده، ولا يتجاوز حده؛
غير ذاكرٍ عن مولانا منعا ينفر عنه الرواه، ولا مشنع بكتاب سيدنا قاضي القضاه؛ بل يكون
كالشافع، إذا صمم الخصم اعتذر بما هو لهذه المصالح كالجامع؛ ليكون المملك في إرضائه
بحسب الإمكان ويرى الخصم ما أخذه بعد اليأس نوعا من الإحسان؛ فالنفوس إذا منعت
كل المنع طلبت كل المطلب، وتعلقت في درك أغراضها بكل سبب؛ وإذا أخذت بالكلام
البين، وعوملت بالسهل اللين؛ بعد درء سورتها بالمنع، ودفع شهوتها بالدفع؛ اتسق حكم

الأشياء وانتظم، وانشعب صدع هذا الجرح والتأم؛ وجرى الأمر على سداد بحفظ النظام
وحفظ الحرمة والحفظ للشارع، ولذلك قال: "أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم" لا سيما مع
شهادات ضروراتهم؛ بسط الله يمين سيدنا في المعالي كما بسط لسانه في المعالم، وقيد عليه
لسان المحامد كما أطلق يده بالمكارم؛ وعليه تحية الله التي توالي عليه نفحاتها، وتهدي إلى
آماله العالي من مقترحاتها.
وكتب إلى شهاب الدين محمود متولى سمهود من علم قوص - وكان بينهما مودة، فاستدعاه
للسلام عليه - فكتب:
إلينا فإنا قد حللنا بأرضكم على فرط شوقٍ لابن عثمان دائم
وزرناك محمودا كما زار أحنفٌ لنيل الأمانيِّ ربع قيس بن عاصم
ولسنا بغاةً للندى والتماسه وإن كنت معروف الندى والمكارم
ولكن وفاءً بالإخاء لمن وفى وقد خان حتى حد سيفي وقائمي
وجدتك ذخري والزمان محاربي كما كنت عوني والزمان مسالمي
فلا غرو أن أثني إليك أعنتي كما قد ثنت يمناي خنصر خاتمي
يهدى إلى المجلس السامي الشرفي تحية الله التي تحملها أنفاس النسيم معطرةً بعرف الرياض،
مكللةً بأندية الكرم الفياض؛ تغاديه في السحر والمقيل، وتراوحه في الطفل والأصيل، وتشاهد
محاسنه المقل أحسن من محاسن بثينة في وجه جميل؛ وأثنيته التي تنتظم في الأجياد انتظام
القلائد، وترد على الأسماع ورود الهيم على عذاب الموارد؛ ويوليه من حبه مزية
الاختصاص، ومن موالاته السوانح التي لا تمتد إليها يد الاقتناص؛ فهو نسيم الأنس، ومسرة
النفس، وذخر اليوم والأمس؛ مصعبي الهمم، مهلبي الشيم، حاتمي الكرم؛ فاق أخلاقا،
وراق أعراقا؛ وسما نفسا، وطلع في سماء الشرف شمسا
وألفيته في نفسه وولائه وحسن معانيه كما انتظم الدر
وضاع شذا أنفاسه فانتشقته على النأى منه مثلما ابتسم الزهر
ولاحت معاليه بآفاق مجده كما لاح في ليل التمام لنا بدر
لا رحم إتياني إليه، وإيثار تسليمي عليه؛ مع أني كنت أعهد له خلوةً حلوةً مع اله ووقفةً

على بابه، والتجاءه في جنح الليل إلى جنابه، ودمعةً يرسلها إذا استرسل في محرابه؛
وضراعةً يتابعها خشوعه، وزفرةً يشتمل عليها قلبه وتفرق عنها ضلوعه
فيا ليت شعري هل أقامت بثينة على عهدها أم قد ثنتها الشواغل
وهل ذلك الود الذي كان بيننا بوادي الخزامى مثل ما كان أول
وكتب إليه - رحمه الله - يستدعى منه ثلاثة أسهم ومليات - وقد أوردنا بعض هذه
الرسالة في الفن الأول في السواقي، ونوردها في هذا الموضع بجملتها لتكون متتابعة يتلو
بعضها بعضا - :
والسيف يندب في الوغى فيهزه ندب الكمى إلى مضاء غراره
والحر أولى بانتداب خلاله لمؤمل فيه قضا أوطاره
فلذلك حركت العزائم العالية المولوية الشرفية - أدام الله علاها، ورفع لواها وأودع أسماع
الأنام ثناها؛ ولا زالت مرفهة السرائر، منورة الضمائر، سائرةً في قطب المعالي سير الفلك
الدائر، آخذةً بحظها من شرف المفاخر، جامعةً بين درك إحسان الله في اليوم الأول واليوم
الآخر - تحريك الطسمية عزائم الأسود بن عفار وبعثتها إلى إنالة الأمل انبعاث الهمم
العربية يوم ذي قار، واستجشت عزائمها استجاشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عزائم
الأنصار، واستنجدتها العثمانية بالهاشمية يوم الدار، واستحثثتها سرعة الإجابة استحثاث
أدهم الليل أشهب النهار؛ فإنها للتي ثنيت عليها خنصر الاعتماد، وصرفت إليها عقيدة
الاعتداد، وجعلتها من القلب في سويدائه ومن المقلة في السواد، واعتمدت عليها اعتماد
بكر على الحارث بن عباد؛ لا جرم أنها والحمد لله تعالى ساعيةٌ لآمالي متى استسعيتها،
وصدى صوتي متى دعوتها وفاتحة كتاب المحامد متى تلوتها؛ وأعيذها بالله أن تنكب عن
قضائها، أو تقف دون غاية انقضائها؛ وإنها لأورق فرعا من أفنان السلمه، وأعرق أصلا في
الوفاء من أصل السلمه، وأرشق سهما في كنانة سلمه، وأوثق في حفاظ المودة من ابن
شبرمه؛ يقينً أحطت بأنبائه، إحاطة رسول ابن داود يوم إنبائه؛ فلا شك في شرف نفسها

وسمو نجمها ووضوح شمسها، وزيادة يومها في الوفاء على أمسها، كما لا تشك الإيادية في
فصاحة قسها، ولا العامرية في علاقة قيسها؛ وقد توجه إليه حاملها لحمل السهام التي
أسهمت له من الموالاة أوفر أقسامها، ونشرت رداء ذكره على أفئدة قلوبها وألسنة أقلامها؛
عند اشتداد الحاجة إليها، وجر ثقل السواقي عليها؛ وحركة الحر التي حلت شمسه برج
حملها، وتوالت جيوش جنوده بين صدور ظباها وأطراف أسلها؛ تجفف أنداء الثرى،
وتعيد عنبر الأرض عثيرا، وتشيب مفارق نباتها، وتذيق الممات أكباد حباتها؛ فاستنصر
العزائم العالية المولوية الشرفية في إطفاء لهبه، واقتضينا إعانته قبل انتضاء قضبه، وبعثنا
لمحل الهمة الشرفية قبل سطوته على قضبه وقصبه؛ لتجري على صفحة الثرى مستفيضه،
وتجنى ثمرات رياضها من أنداء همته أريضه؛ وتغازل مقل النفوس لحظات أزهارها، وتفتن
أفنان فنونها بنوح بلبلها هزارها، ويبوح شذا الروض عن سرها وآثارها؛ هذا مع أنها
خطبت حسن إحسانه، وتقلدت جميل بره وجزيل امتنانه؛ والربيع منمنم العذار، موشى
الإزار؛ قد لبس رداء شبابه، وماس في خضر ترابه وخضل ربابه؛ يهز أعطاف سنائه،
ويخطر في برد هوائه وبرد مائه، فكلل وجنات نوره ببرد أندائه؛ والثرى عنبري الأديم،
سحري النسيم، رندي الشميم؛ موشحٌ بقلائد غدرانه، مغازلٌ بعيون نرجسه بسام بثغر
أقحونه؛ لا يغرد ذبابه ولا يطرب، ولا يصر بسحراته الجندب؛ تطلع شمسه محتجبةً في
ضبابها، مقنعةً من سحابها؛ جاريةً في أثناء حبكها، جائلةً في أدنى فلكها؛ تسعى فتسرع،
وتكاد أن تغرب حين تطلع؛ والجو معقود الأزرار، فاختي الإزار؛ غيمه منسكب، ونوره
منسحب؛ وليله يضم أطراف نهاره، ويلف وجهه في حاشية إزاره؛ ينفي القذاة عن مائه،
ويجمع الحواس على جلوائه، ويعشى المقل من ضوء سنائه

فلو أن ليلى زارني طيف أنسها وماء شبابي قاطرٌ في ذوائبي
ضممت عليها البرد ضمة آلفٍ وألصقت أحشائي بها وترائبي
ولكن أتتني بعد ما شاب مفرقي وودعت أحبابي له وحبائبي

والحاجة داعيةٌ إلى ثلاثة أسهم، كأنها هقعة الأنجم؛ ممتدة امتداد الرمح، مقومة تقويم
القدح؛ غير مشعثة الأطراف، ولا معقدة الأعطاف، ولا مسوسة الأجواف؛ تحاسن
الغصون بقوامها، والقدود بتمامها؛ وتخالف هيفها بامتلاء خصورها، وتساوى بين هواديها
وصدورها؛ معتدلة القدود، ناعمة الخدود؛ مع مليات أخذت النار فيها مأخذها فاسودت،
وتطاولت عليها مدة الجفاف فاشتدت؛ وترامت بها مدة القدم، كأنها في حيز العدم؛ صلاب
المكاسر، غلاظ المآزر؛ تشبه أخلاقه في هيجاء السلم، وتحكي صلابة آرائه في نفاذ الرأي
ومضاء العزم؛ تكظم على الماء بقبضها، فتجود على الأرض بفيضها؛ تمد يد أيدها في
اقتضاء إرادتها، وتطلع طلوع الأنجم في فلك إرادتها؛ وتعانق أخواتها معانقة التشييع؛ فآخر
التسليم أول التوديع؛ على أنها تؤذن بحقائق الاعتبار، وتجري جري الفلك المدار في فناء
الأعمار

تمر كأنفاس الفتى في حياته وتسعى كسعي المرء أثناء عمره
يفارق خل؟ خله وهو سائرٌ على مثل حال الخل في إثر سيره
ويعلمه التداور لو يعقل الفتى بأن مرور العمر فيه كمره
فمن أدركت أفكاره سر أمرها فقد أدركت أفكاره سر أمره
ومن فاته الإدراك أدركه الردى إذا جرعت أنفاسه كأس مره

هذه آخر خطوات القلم، ومنتهى خطرات الكلم؛ فقم في سرعة وصولها وتعجيل رسولها

بعزم غدا ينسى لمروان عزمه براهط إذ جاشت عليه القبائل

غير معتمد عليه، ولا مفوضٍ أمراً إليه؛ فلم أعتمد عليه اعتماد الصوفه، وإنما هو العماد
عند أهل الكوفة؛ وإنما هو حمار سير، وذنب طير؛ يحمل ورقة مطويةً عن علمه، مزويةً عن
فهمه؛ كما يحمل الزند الشرار إلى العظم والله تعالى يحله من السعادة أشرف آفاقها،
ويحرسه في طفل الشمس وإشراقها

ويجريه من ألطافه نحو غاية تبلغه الألطاف حلو مذاقها
ويلبسه فخر السيادة والعلا كما لبست أسماء فخر نطاقها

إن شاء الله تعالى.

عبد الله بن عبد الظاهر

المولى القاضي الفاضل البارع الأصيل الأجل رحمه الله تعالى

كان رحمه الله من أجل كتاب العصر، وفضلاء المصر؛ وأكابر أعيان الدول والذي افتخر
بوجوده أبناء عصره على الأول؛ له من النظم الفائق ما راق صناعةً وحسنا، ومن النثر
الرائق ما فاق بلاغةً ومعنى؛ فقصائده مدونةٌ مشهوره، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم
مسطوره؛ وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجه، وطريقه في البلاغة أسهل
طريق وفي الفصاحة أوضح محجه؛ وهو رحمه الله ممن عاصرته ولسوء الحظ لم أشاهد
محياه الوسيم، ولم أفز بالنظر إلى طلاقة وجهه الكريم؛ والذي أورده من كلامه هو مما نقلته
من خطه، وتلقيته ممن سمعه من لفظه؛ فمن كلامه - رحمة الله عليه - ما كتبه عن
السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي - رحمه الله - إلى ملك الغرب، كتب:
تحيات الله التي تتابع وفودها وتتوالى، وتشرف نجومها وتتلالا، وتنفق إسرافا ولا تخاف من
ذي العرش إقلالا؛ تخص الحضرة السنية السريه، العالمية العادلية المستنصريه؛ ذخيرة أمير
المؤمنين، وعصمة الدنيا والدين، وعدة الموحدين؛ لا زالت سماؤها بالعدل مغدقة الأنواء
مشرقة الأنوار، ورياضها بالفضل مورقة الأغصان مونقة الثمار؛ ولا برحت ضوال الأماني في
أبوابها تنشد، وقصائد القصود في اتصافها تنشد؛ وسرى الآمال عند صباح أمرها يحمد،
وأحاديث الكرم عن جودها ترسل وإلى وجودها تسند؛ وسلامه الذي يكاثر نسيم الروض
الأنيق، ويفاخر جديده عتيق المسك وأين الجديد من العتيق؛ يغاديان تلك الأنداء المباركة
مغاداة الغوادي من وابل المطر، ويراوحانها مراوحة الرقة للأصل والبكر؛ حيث العزة
القعساء يمتد رواقها، والنعمة الغراء تخصف أوراقها، والديمة الوطفاء يتوالى إغداقها،
ويتتالى إغراقها؛ وحيث العدل منشور الجناح، والحق مشهور السلاح، والإنصاف مبرور
الأقسام لطالبه باقٍ لا يزاح؛ سجية تتوارث توارث الفخار، ومزية تستأثر بالهداية استئثار
النجوم بالأنوار، وشيم تستصحب استصحاب الأهلة للإبدار؛ فلذلك يتلفت الأمل إليها
تلفت الساري إلى تبلج الصباح، ويرتاح إلى تلقي إحسانها ارتياح الظامئ إلى ارتشاف الماء

القراح؛ ويحتمى بها في المطالب احتماء الليث بالغابه، ويستمد إسعافها استمداد الحديقة
من السحابه؛ ويهز عدلها كما هز الكمى المرهف، وينبه فضلها تنبيه النسيم جفن الزهر
الأوطف؛ فيناجي بالجؤور، ويلتمس لها حسن الصنع الذي لا يزال مبتسم الثغور؛ فمما
قص عليه من مناجاته، وطوى عليه طوية مفاوضاته؛ أن القاضي زين الدين بن حباسة من
بيتٍ أسلف سلفه جميلا، وغدا هو على مكارمه دليلا؛ وكان له غلامٍ قد سير معه
جملةً... والاحتفال الحفي مسئولٌ في تقدمٍ يجيب النجاح داعيه، ويغدو الفلاح مراوحه
ومغاديه؛ واعتناءٍ يستخلص حقه ممن عليه اعتدى، ويرى من قبسه نورا يجد به هدى؛
فببارقةٍ يضيء لديه الحالك، وبلمحةٍ يهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك؛ وما هو إلا
رسمٌ يرسم به وقد قرب البعيد، وآب الشريد؛ وخاف الخائف، وكف الجانف؛ وجمعت
الضوال، وضاق على المختزل واسع المجال؛ سمهابة قد سكنت القلوب، وسياسة قوي
الطالب بها وضعف المطلوب، وعزة لا يزال الرجاء ينيب إليها فيما ينوب؛ وأي مطلب
تناجى فيه الآلاء المباركة فلا يصحب قياده، ويستسقى له مزنٌ ولا تعاهد عهاده؛ وأي
ذاهبٍ لا يسترجع به ولو أنه عشيات الحمى، وأي فائتٍ لا يرد ولو نه زمن الشبيبة المعسول
اللمى؛ وحسب العاني أن يحط برحابها رحاله، أو أن يوفد إلى أبوابها آماله؛ وقد تبادرت
إليه المناحج متسابقه، وانتظمت لديه المصالح متناسقه؛ فحينئذ يفعم إناء تأميله، ويستوعب
الإحسان لجملة قصده وتفصيله؛ وينابيه السعد من تلك البقعة المباركه، فيوافيه التوفيق
بصحائف القبول تحملها الملائكه؛ أمتع الله ببركاتها التي امتد رواقها، وأنار الحالك إشراقها؛
ولا زالت يراوحها تسليمٌ عطر النفحه، وتصافحها تحياتٌ جميلة الصفحه؛ بمنه وكرمه.
وكتب رسالة صيدية عن السلطان الملك الظاهر إلى الأمير عز الدين الحلى نائب السلطنة
بالقلعة:
هذه المكاتبة إلى المجلس لا توارت شموس أنسه، ولا أذبلت ثمار غرسه ولا برح غده في

السعد مربيا على يومه ويومه على أمسه؛ تتضمن إعلامه بأنا خرجنا إلى الصيد المبارك
بجنود تملا السهل والجبل، وتستحي الشمس منها فتستتر في سحابها من كثرة الخجل؛ تسير
على الأرض منها جبال، وتأوي الرمال منها إلى أورف ظلال؛ وتوجهنا إلى جهة الطرانة
وإذا بحشود الوحوش قد توافدت، وعلى مناهل المناهج قد تواردت؛ والأجل يسوقهم،
والبيد تعقهم، والمنايا تعوقهم؛ ولم تزل أيدي الخيل تجمعهم في صعيد، وتطوى بهم سطورا في
طروس البيد؛ حتى أحاطت بهم إحاطة الفلك بالنجوم الزواهر، والأجفان بالعيون
النواظر؛ وجردت السيوف فظنتها غدرا، ورميت النبال فحسبتها شررا؛ وعزلت الرماح
بالسهام وحيتها السلام بالسلام، وسكنت نهارا من العجاج في ظلام؛ وضاقت عليها الأرض
بما رحبت، وأدركت المنية منها ما طلبت؛ وراسلتها المنايا، وأهدت إليها رياحين تحايا،
فمن صريعٍ وصديعٍ وطريحٍ وطريد، وجريحٍ ومقبلٍ وشريد، وقائمٍ وحصيد؛ ولم تسلم في هذا
اليوم غير غزالة السماء فإنها استترت بالغيوم، وخافت أن يكون الهلال قد نصب فخا
لصيدها وصيد غيرها من النجوم؛ والموت أسر كل مهاةٍ مهابه، ونال الحتف من كل طلا
طلابه؛ وفتكت الظبا بالظبى، وقالت السهام لأجيادها: مرحبا؛ وثنينا الأعنة والشفار قد
أنهلت، والظهور قد أثقلت؛ والكنس خاوية على عروشها، والبيد قد أوحشت من
وحوشها؛ وما نشتمل عليه من محبة المجلس وإيثاره، ونجده من الوحشة له مع دنو داره؛
وسروره بما عساه لنا يتجدد، وحبوره بما يرد من جهتنا وهذا لا نشك فيه ولا نتردد؛
أوجب أن نخصه به ونتحفه، ونصفه له على جليته إذ كنا بالتخصيص به لن ننصفه؛ وقد
بعثنا إليه منه قسما، ولم ننس عند ذكرنا أنفسنا له اسما.
وكتب عن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون إلى صاحب اليمن جواب كتابٍ
عزى فيه السلطان عن ولده الملك الصالح علاء الدين علي - وكان الكتاب الذي ورد في
ورق أزرق، وسيره في كيس أطلس أزرق، والعادة أن يكون في كيس أطلس أصفر - :

أعز الله نصرته وأحسن بتسليته الصبر على كل فادح، والأجر على كل مصاب قرح
القرائح، وجرح الجوارح، وأوفد من تعازيه كل مسكنٍ طاحت به من تلقاء صنعاء اليمن
الطوائح، وكتب له جزاء المصير عن جارٍ من دمعٍ طافح، على جارٍ لسويداء القلب صالح؛
المملوك يخدم خدمة لا يذود المواصلة بها حادث، ولا يؤخرها عن وقتها أمرٌ كارث، ولا
تنقصها عن تحسينها وترتيبها بواعث الاختلاف ولا اختلاف البواعث؛ ويطلع العلم الكريم
على ورود مثالٍ كريم لولا زرقة طرسه؛ وزرقة لبسه، لقال: "وابيضت عيناه من الحزن فهو
كظيمٌ"؛ يتضمن ما كان حدث من رزءٍ تلافاه الله بناسيه، وتوافى هو والصبر فتولى التسليم
تبيين عاسيه وتمرين قاسيه؛ فشكرنا الله على ما أعطى وحمدناه على ما أخذ، وما قلنا:
هذا جزعٌ قد انتبه إلا وقلنا: هذا تثبتٌ قد انتبذ، ولا توهمنا أن فلذة كبدٍ قد اختطفت إلا
وشاهدناً حولنا من ذريتنا - والحمد لله - فلذ؛ وأحسنا الاحتساب، ودخلت الملائكة
علينا من كل باب، ووفانا الله أجر الصابرين بغير حساب؛ ولنا - والشكر لله - صبرٌ
جميلٌ لا ناسف معه على فائت ولا نأسى على مفقود، وإذا علم الله حسن الاستنامة إلى
قضائه والاستكانة إلى عطائه عوض كل يوم ما يقول المبشر به: هذا مولىً مولود؛ وليست
الإبل بأغلظ أكبادا ممن له قلبٌ لا يبالي بالصدمات كثرت أو قلت، ولا بالتباريح حقرت أو
جلت، ولا بالأزمات إن هي توالت أو تولت، ولا بالجفون إن ألقت ما فيها من الدموع
والهجوع وتخلت؛ ويخاف من الدهر من لم يحلب أشطره، ويأسف على الفائت من لا تنتابه
الخطوب الخطره؛ على أن الفادح بموت الولد الملك الصالح - رضي الله عنه - وإن كان
منكيا والنائح بشجوه وإن كان مبكيا، والنائج بذلك الأسف وإن كان لنار الأسى مذكيا؛
فإن وراء ذلك من تثبيت الله ما ينسفه نسفا، ومن إلهامه الصبر ما يجدد لتمزيق القلوب
أحسن ما به يرفا؛ وبكتاب الله وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عندنا حسن اقتداء
نضرب به عن كل رثاءٍ صفحا، وما كنا مع الله - والمنة لله - نعطي لمن يؤنب ويؤبن أذنا ولا

نعيرها لمن يلحى؛ إذ الولد الذاهب مر في رضوان الله تعالى سالكا طريقا لا عوج فيها ولا
أمتا، وانتقل سارا بارا صالحا وما هكذا كل الموتى نعيا ولا نعتا؛ وإن كان نفعنا في الدنيا
فها نحن بالصدقات والترحم عليه ننفعه، وإن كان الولد عمل أبيه - وقد رفع الله روح ولدنا
في أعلى عليين تحقق أنه العمل الصالح "والعمل الصالح يرفعه"؛ وفيما نحن بصدده من
اشتغال بالحروب، ما يهون ما يهول من الكروب؛ وفيما نحن عاكفون عليه من مكافحات
الأعداء ما بين المرء وبين قلبه يحول، وملهٍ عن تخيل أسف في الخاطر يجول
إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحول
ولنا بحمد الله ذريةٌ دريه، وعقودٌ والشكر لله كلها دريه
إذا سيدٌ منهم خلا قام سيدٌ قؤولٌ لما قال الكرام فعول
ما منهم إلا من نظر سعده ومن سعده ينتظر، ومن يحسن أن يكون المبتدا وأن تسد حاله
بكفالته وكفايته مسد الخبر والشمس طالعةٌ إن غيب القمر لا سيما من الدين به إذ هو
صلاحه أعرف، ومن إذا قيل لبناء ملكٍ هذا عليه قد وهى قيل: هذا خيرٌ منه من أعلى
بناء سعدٍ أشرف؛ وعلى كل حال لا عدم إحسان المولى الذي يتنوع في بره، ويعاجل قضاء
الحقوق فتساعف مرسومه في توصيله طاعة بحره وبره؛ وله الشكر على مساهمة المولى في
الفرح والترح، ومشاركته في الهناء إذا سنح، وفي الدمع إذا سفح؛ وما مثل مكارم المولى من
يعزب مثل ذلك عن علمها، ولا يعزى إلى غير حكمها وحلمها؛ وهو - أعزه الله – ذو
التجارب التي مخضت له من هذه وهذه الزبده، وعرضت عليه منهما الهضبة والوهده؛
والرغبة إلى الله تعالى في أن يجعل تلك المصيبة للرزايا خاتمه وكما لم يجعلها للظهور قاصمة
فلا يجعلها لعرا الشكر فاصمه، وإن يجعلها بعد حمل هذا الهم وفصاله على عليه فاطمه؛
وأن يحبب إلينا كل ما يلهي عن الأموال والأولاد من غزوٍ وجهاد، وأن يجعلنا ليس يحد
لدينا على مفقود تأدبا مع الله غير السيوف فإنها تعرف بالحداد، وألا تقصف رماحنا إلا
في فودٍ أو في فؤاد، ولا تحول سروج خيلنا من ظهر جوادٍ في السرايا إلا إلى ظهر جواد، وألا

تشق لدينا إلا أكباد أكناد، ولا تجز غير شعور ملوك التتار تتوج بها رؤوس الرماح ويصعد
بها على قمم الصعاد؛ والله يشكر للمولى سعي مراثيه التي لولا لطف الله بما صبرنا به
لأقامت الجنائز، واستخفت النحائز، ولهوت بالنفوس في استعمال الجائز من الأسف وغير
الجائز، ولا شغل الله لب المولى بفادحه، ولا خاطره بسانحة من الحزن ولا بارحه ولا أسمعه
بغير المسرات من هواتف الإبهاج صادحه؛ بمنه وكرمه.
ومن إنشائه رحمه الله تقليد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بولاية عهد
السلطنة من أبيه السلطان الملك المنصور - سقى الله عهدهما صوب الرحمة - وهو:
الحمد لله الذي لم يزل له السمع والطاعة فيما أمر، والرضا والشكر فيما هدم من الأعمار
وما عمر، والتفويض إن غابت الشمس وبقى القمر نحمده على أن جعل سلطاننا ثابت
الأركان، نابت الأغصان، كل رياضة من رياضه ذات أفنان؛ لا تزعزعه ريحٌ عقيم، ولا
يخرجه رزءٌ عظيم عن الرضا والتسليم، ولا يعتبط من جملته كريم إلا ويغتبط من أسرته
بكريم؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تزيد قائلها لله تفويضا، وتجزل له
تعويضا وتحسن له على الصبر الجميل في كل خطبٍ جليلٍ تحريضا؛ ونشهد أن محمدا عبده
الذي أنزل في التسلية به: "وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل" والنبي الذي
أوضح الله به المناهج وبين السبل؛ صلى الله عليه وعلى آله ما تجاوبت المحابر والمنابر في
البكر والأصل؛ وما بددت عقود ونظمت، ونسخت آياتٌ وأحكمت ونقضت أمور
وأبرمت، وما عزمت آراءٌ فتوكلت وتوكلت فعزمت؛ ورضي الله عن أصحابه الذين منهم
من كان للخليقة نعم الخليفة، ومنهم من لم يدرك أحدٌ في تسويد النفس الحصيفة ولا في
تبييض الصحيفة سمده ولا نصيفه، ومنهم من يسره الله لتجهيز جيش العسرة فعرف الله
ورسوله معروفه، ومنهم من عمل صالحا أرضى ربه فأصلح في ذريته الشريفه؛ وبعد، فإن
من ألطاف الله بعباده، واكتناف عواطفه ببلاده؛ أن جعلنا كلما وهي للملك ركنٌ شديدٌ

شيدنا ركنا عوضه، وكلما اعترضت للمقادير جملةٌ بدلنا آيةً مكان آيةٍ وتناسيا تجلدا تلك
الجملة المعترضه؛ فلم نحوج اليوم لأمسه وإن كان حميدا، ولا الغارس لغرسه وإن كان ثمره
يانعا وظله مديدا؛ فأطلعنا في أفق السلطنة كوكب سعدٍ كان لحسن الاستخلاف معدا،
ومن لقبيل المسلمين خيرٌ ثواب وخيرٌ مردا، ومن يبشر الله به الأولياء المتقين وينذر به من
الأعداء قوما لدا، ومن لم يبق إلا به أنسنا بعد ذهاب الذين نحبهم وبقي كالسيف فردا،
والذي ما أمضى حده في ضريبة إلا قد البيض والأبدان قدا، ولا جهز راية كتيبةٍ إلا
أغنى غناء الذاهبين وعد للأعداء عدا
ولا بعثه جزعٌ فقال: كم من أخٍ لي صالحٍ إلا لقيه ورعٌ فقال: وخلقت يوم خلقت جلدا؛
وهو الذي بقواعد السلطنة الأدري وقوانينها الأعرف، وعلى الأولياء الأعطف وبالرعايا
الأرأف، والذي ما قيل لبناء ملكٍ: هذا عليه قد وهى إلا وقيل: هذا بناءٌ مثله منه أسمى
ملكاً وأشرف، والذي ما برح النصر يتنسم من مهاب تأميله والفلاح، ويتبسم ثغره فتتوسم
الثغور من تبسمه النجاح، وينقسم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو
يشرئب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح ويتفق اشتقاق النعوت فيقول التسلي للتملي سواءٌ
الصالح والصلاح؛ والذي ما برح لشعار السلطنة إلى توقله وتنقله أتم حنين، وكأنما كوشفت
الإمامة العباسية بشرف مسماه فيما تقدم من زمن من سلف من حين، فسمت ووسمت
باسمه أكابر الملوك وأخاير السلاطين فخوطب كل؟ منهم مجازا لا كهذه الحقيقة بخليل أمير
المؤمنين؛ والذي كم جلا بهاء جبينه من بهيم، وكم غدا الملك بحسن رأيه ويمن آرائه يهيم
وكم أبرأ مورده العذب هيم عطاشٍ ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه: إنه إبراهيم؛ ومن
تشخص الأبصار لكماله يوم ركوبه حسيره، وتلقي البنان سلاحها ذهلا وهي لا تدري
لكثرة الإيماء إلى جلاله إذا يبدو مسيره؛ والذي ألهم الله الأمة بجوده ووجوده صبرا جميلا،
وآتاهم من نفاسة كرمه وحراسة سيفه وقلمه تأمينا وتأميلا، وعظم في القلوب والعيون، بما

من بره سيكون، فسمته الأبوة الشريفة ولدا وسماه الله: خليلا؛ ولما تحتم من تفويض أمر
الملك إليه ما كان إلى وقته المعلوم قد تأخر، وتحين حينه فكمل بزيادة كزيادة الهلال حين
بادر تمامه فأبدر؛ اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور، والمراقبة لمصالح الأمور،
والمصاقبة لمناجح البلاد والثغور، والمقاربة سمن فواتح كل أمرٍ ميسور؛ أن نفوض إليه ولاية
العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظمه، المكرمة المفخمة المنظمه؛ وأن تبسط يده المنيفة
لمصافحتها بالعهود، وتحكيمها في العساكر والجنود، وفي البحور والثغور وفي التهائم والنجود؛
وأن يعقد بسيفها وقلمها كل قطع ووصل، وكل فرعٍ وأصل وكل نصر ونصل؛ وكل ما يحمى
سرحا، ويهمى منحا، وفي المثيرات في الإعداء على الأعداء نقعا وفي المغيرات صبحا؛ وفي
المنع والإطلاق، وفي الإرفاد والإرفاق وفي الخميس إذا ساق، وفي الخمس إذا انساق، وفي
السيوف "إذا بلغت التراقي وقيل: من راق"، وفي الرماح إذا التفت الساق منها بالساق؛ وفي
المعاهدات والهدن وفي الفداء بما عرض من عرضٍ وبالبدن للبدن، وفيما ظهر من أمور
الملك وما بطن، وفي جميع ما تستدعيه بواعثه في السر والعلن، وتسترعيه نوافثه من كبتٍ
وكتبٍ متفرقين أو في قرن؛ عهداً مباركةً عوذه وتمائمه، وفواتحه وخواتمه، ومناسمه ومواسمه،
وشروطه ولوازمه
على عاتق الملك الأغر نجاده وفي يد جبار السموات قائمه
لا راد لحكمه، ولا ناقض لبرمه، ولا داحض لما أثبتته الأقلام من مكنون علمه.
ويزيده مر الليالي جدةً وتقادم الأيام حسن شباب
وتلزم السنون والأحقاب، استيداعه حتى الذراري والأعقاب؛ فلا سلطان ذا قدرٍ وقدره،
وذا أمرٍ وإمره؛ ولا نائب في مملكة قربت أو بعدت، ولا مقدم جيوشٍ أتهمت أو أنجدت؛ ولا
راعي ولا رعيه، ولا ذا حكمٍ في الأمور الشرعيه؛ ولا قلم إنشاءٍ ولا قلم حساب، ولا ذوي
أنسابٍ ولا ذوي أسباب؛ إلا وكل؟ داخلٌ في قبول عقد هذا العهد الميمون، ومتمسك
بمحكم آيات كتابه المكنون والتسليم لنصه الذي شهدته من الملائكة الكرام الكاتبون؛

وأمست بيعته بالرضوان محفوفه، والأعداء يدعونها تضرعا وخيفه، فليشكروا الصنع الذي
بعد أن كانت الخلفاء تسلطن الملوك قد صار سلطانهم يقيم لهم من ولاة العهد خليفةً بعد
خليفه؛ وأما الوصايا فأنت يا ولدنا الملك الأشرف - أعزك الله - بها الدرب ولسماع
شدوها وحدوها الطرب، الذي للغو لا يضطرب؛ فعليك بتقوى الله فإنها ملاك سدادك،
وهلاك أضدادك؛ وبها يراش جناح نجاحك، ويحسن اقتداء اقتداحك؛ فاجعلها دفين
جوانح تأملك ووعيك، ونصب عيني أمرك ونهيك، والشرع الشريف فهو قانون الحق المتبع،
وناموس الأمر المستمع؛ وعليه مدار إيعاء كل إيعاز، وبه يتمسك من أشار وامتاز، وهو جنة
والباطل نار "فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز"؛ فلا تخرج في كل حال عن لوازمه
وشروطه ولا تنكب عن معلقه ومنوطه؛ والعدل، فهو مثمر غروس الأموال، ومعمر بيوت
الرجاء والرجال، وبه تزكو الأعمار والأعمال؛ فاجعله جامع أطراف مراسمك، وأفضل أيام
مواسمك؛ وسم به فعلك، وسم به فرضك ونفلك؛ ولا تفرد به فلانا دون فلان ولا مكانا
دون مكان، واقرنه بالفضل، "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"؛ وأحسن التخويل، وأجمل
التنويل، وكثر لمن حولك التموين والتمويل؛ وضاعف الخير في كل مضافٍ لمقامك،
ومستضيفٍ بإنعامك، حتى لا يعدم في كل مكان وكل زمان من النعماء ضيافة الخليل؛
والثغور، فهي للممالك مباسمها فاجعل نواجذها تفتر عن أحسن ثنايا الصون، ومراشفها
شنبة الشفاه بحسن العون؛ ومنها بما يحى السرح منها، وأعنها بما يدفع المكاره عنها؛ فإنها
للنصر مقاعد، وبها حفظ البلاد من كل مار؟من الأعداء مارد؛ وأمراء الجيوش، فهم
السور الواقي بين يدي كل سور، وما منهم إلا بطلٌ بالنصر مشهورٌ كما سيفه مشهور؛ وهم
ذخائر الملوك وجواهر السلوك، وأخاير الأكابر الذين خلصوا من الشكوك؛ وما منهم إلا من
له حرمات سلفت، وحقوقٌ عرفت، ومواثٌ على استلزام الرعاية للعهود وقفت؛ فكن
لجنودهم متحببا، ولمرابعهم مخصبا، ولمصالحهم مرتبا، ولآرائهم مستصوبا وللاعتضاد بهم

مستصبحا، وفي حمدهم مطنبا، وفي شكرهم مسهبا؛ والأولياء المنصوريين الذين هم
كالأولاد، ولهم سوابق أمت من سوابق الإيجاد؛ وهم من علمت استكانةً من قربنا، ومكانةً
من قلبنا، وهم المساهمون فيما ناب، وما برحوا للدولة الظفر والناب؛ فأسهم لكل؟ منهم
من احترامك نصيبا، وأدم لهم ارتياحك، وألن جماحك وقو بهم سلاحك، تجد منهم
ضروبا، وتر لكلا؟ منهم في أعدائك ضروبا؛ وكما أنا نوصيك بجيوش الإسلام، كذلك
نوصيك بالجيش الذي له المنشآت في البحر كالأعلام؛ فهو جيش الأمواه والأمواج، المضاف
إلى الأفواج من جيش الفجاج؛ وهو الجيش السليماني في إسراع السير، وما سميت شوانيه
غربانا إلا ليجمع بها لنا ما اجتمع لسليمان صلى الله عليه وسلم من تسخير الريح والطير؛
وهي من الديار المصرية على ثبج البحر الأسوار، فإن قذفت قذفت الرعب في قلوب
الأعداء وإن أقلعت قلعت منهم الآثار؛ فلا تخله من تجهيز جيشه، وسكن طيش البحر
بطيشه؛ فيصبح لك جيشان كل؟ منهما ذو كر؟ وفر، هذا في بر؟ بحرٌ وهذا ببحرٍ بر؛
وبيوت العباداتً فهي التي إلى مصلى سميك خليل الله تنتهي محاريبها، وبها لنا ولك
وللمسلمين سرى الدعوات وتأويبها؛ فوفها نصيبها المفروض غير منقوص، ومر برفعها وذكر
اسم الله فيها حسب الأمر المنصوص؛ وأخواتها من بيوت الأموال الواجدات الواجبات من
حيث أنها كلها بيوتٌ لله هذه للصلاة وهذه للصلات، وهذه كهذه في رفع المنار، وجمع
المبار، وإذا كانت تلك مما أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فهذه ترفع ويذكر فيها اسمه
حتى على الدرهم والدينار؛ فاصرف إليها اجتهادك فيما يعود عليها بالتثمير، كما يعود
على تلك بالتنوير؛ وعلى هذه بإشحانها بأنواع الصروف، كإشحان تلك باستواء الصفوف؛
فإنها إذا أصبحت مصونه، احتملت بحمد الله المعونه وكفلت بالمؤونة وبالزيادة على المؤونه،
فتكمل هذه لكل ولي؟ دنياه كما كملت تلك لكل ولي؟ دينه؛ وحدود الله، فلا يتعداها
أحد، ولا يرأف فيها ولدٌ بوالد ولا والدٌ بولد؛ فأقمها وقم في أمرها حتى تنضبط أتم

الضبط، ولا تجعل يد القتل مغلولةً إلى عنقها ولا تبسطها كل البسط، فلكل؟ من الجنايات
والقصاص شرطٌ شرطه الله وحد؟ حده فلا يتجاوز أحدٌ ذلك الحد ولا يخرج عن ذلك
الشرط؛ والجهاد فهو الديدن المألوف من حين نشأتنا ونشأتك في بطون الأرض وعلى ظهور
الخيل فمل على الأعداء كل الميل، وصبحهم من فتكاتك بالويل بعد الويل، وارمهم بكل
شمري؟ قد شمر من يده عن الساعد ومن رمحه عن الساق ومن جواده الذيل؛ واذهب بهم
في ذلك كل مذهب، وأبن بنجوم الخرصان كل غي؟ وغيهب وتكثر في غزوهم من الليل
بكل أدهم ومن الشفق بكل أحمر وأشقر ومن الأصيل بكل أصفر ومن الصبح بكل
أشهب، وانتهب أعمارهم واجعلها آخر ما يسلب وأول ما ينهب؛ ونرجوا أن يكون الله قد
خبأ لك من الفتوحات ما يستنجزها لك صادق وعده، وأن ينصر بك جيوش الإسلام في
كل إنجاد وإتهام وما النصر إلا من عنده؛ وبيت الله المحجوج من كل فج، المقصود من كل
نهج؛ يسر سبيله، ووسع الخير وأحسن تسبيله، وأوصل من برك لكل؟ من الحرمين ما هو
له، لتصبح ربوعه بذلك مأهوله؛ واحمه ممن يرد فيه بإلحادٍ بظلم، وطهره من كل مكسٍ وغرم؛
ليعود نفعك على البادي والعاكف، ويصبح واديه وناديه مستغنين بذلك عن السحاب
الواكف؛ والرعايا، فهم للعدل زروع، وللاستثمار فروع، ولاسلتزام العمارة شروع؛ فمتى
جادهم غيثٌ أعجب الزراع نباتهم، ونمت بالصلاح أقواتهم، وصلحت بالنماء أوقاتهم،
وكثرت للجنود مستغلاتهم، وتوافرت زكواتهم، وتنورت مشكاتهم "والله يضاعف لمن
يشاء"؛ هذا عهدنا للسيد الأجل الولد الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين، فخر الملوك
والسلاطين، خليل أمير المؤمنين - أعزنا الله ببقائه - فليكن بعروته متمسكا، وبنفحته
متمسكا؛ وليتقلد سيف هذا التقليد، ويفتح مغلق كل فتحٍ منه بخير إقليد، وها نحن قد
كثرنا لديه جواهره فدونه ما يشاء تحليته: من تتويج مفرقٍ وتخنيم أنامل وتسوير زندٍ وتطويق
جيد، ففي كل ذلك تبجيلٌ وتمجيد؛ والله تعالى يجعل استخلافه للمتقين إمام، وللدين قواما،

وللمجاهدين اعتصاما، وللمعتدين انفصاما، ويطفئ بمياه سيوفه نار كل خطب حتى تصبح
كما أصبحت نار سميه صلى الله عليه وسلم بردا وسلاما؛ إن شاء الله تعالى.
وكلامه رحمه الله كثير ورسائله مشهورة، وبيد الناس من إنشائه ما لو استقصيناه لطال
وانبسط، وقد قدمنا في كتابنا هذا من كلامه في باب التهاني بالفتوح ما تجده في موضعه
ونختم كلامه بشيء من أدعية الملوك، وهي:
ومكن الله له في الأرض، وجعل طاعته واجبةً وجوب الفرض، وأيد آراءه بالملائكة في الحل
والعقد والإبرام والنقض.
آخر: وأنجز له من النصر صادق وعده، وجعل الملوك من عبيده والملائكة من جنده،
ومتعه بما وهبه من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده.
آخر: وحفظه بمعقبات من أمره، وحمى حمى الدين بقصار بيضه وطوال سمره، وجعل قدر
مملكته في الدهر كليالي قدره، وألبس أولياءه من طاعته ما يجرون أذيال فخره.
آخر: ولا زالت الدنيا بعدله مخضرة الوهاد والربا، والامال بفضله قائلا لها النجح: مرحبا،
والأقدار لنصره مسددة السهام مرهفة الظبا، والأيام لا تعدم من جميل أثره وجليل تأثيره فعلا
مطربا، ووصفا مطيبا. وجعلت ملكه موصولا بحبل لا يحل عقده، وحرمه محروسا بسيف
التوفيق لا يفل حده. ولا زالت راياته ألسنةً تنذر أعداءه بالفرار، وتبشر أولياءه بالقرار،
وآراؤه أعلاما عالية المنار واضحة الأنوار. وأنجز له عداته في عداته، وجعل النصر
والتوفيق مصاحبين لآرائه ورایاته. وأناله النصر الذي يغنيه عن الحيلة والحول، وعقد
السعد بعرا ما يمضيه من الفعل والقول، وبوأ النصر أولياءه جنةً من النصر ما فيها غائلة
وجنةً من العز ما فيها غول. وقصم بمهابته كل جبار عنيد، وعصم كل من يأوي من رجائه
إلى ركن شديد. وآتاه من التأييد سلطانا نصيرا، وجعل جيشه أكثر قويً وأقوى نفيرا. ولا
زالت الآمال بسحابه مخضرة الربا والوهاد، والتأييد بتمكينه مناديا في كل ناد، والدنيا بملكه
مسرورة الأسرار حالية الأجياد، والأقدار لأمره متكلفةً بالنفاد. وطرز بأيامه ملابس

السير، وأحل أمره أعلى هضبات النصر والظفر، وحلى أجياد الممالك من عدله وبذله
بأشرف الدرر، ولا برح القدر يوافق قصوده فيقول للقدر: "لقد جئت على قدر". وأتم نعمته
عليه كما أتمها، وعمر بعدله الآفاق وعمها، وأوضح مناهج كرمه لمن قصدها وأمها، وأنجز
عداته في عداته فأصماها وأصمها. وأتم نعمته عليه كما أتمها على أبويه من قبله، وحمى
حمى الدين بنصره وفضله، وكسا الدنيا بملكه حلة فخار معلمةً بإحسانه وعدله، وجعل
أقاليم الأرض معمورةً بسلطانه مغمورةً بعطائه وبذله.
ذكر شيء من إنشاء المولى الماجد السالك من طريقي الفضل والفضائل أوضح الطرق
وأنهج المسالك، المفصح بلسان براعته والموضح بأنوار بلاغته ما أبهم واستبهم من ليل العي
الحالك، المتصرف بقلمه وكلمه لوثوق ملوك الإسلام بديانته وأمانته وأصالته ونزاهته في
الأقاليم والثغور والحصون والممالك، العامر بفضله وفضائله والغامر بجوده ونائله باطن
وظاهر من أمله وأم له من زائرٍ وقاطنٍ ومار؟ وسالك؛ فينفصل هذا بابه وهو بجوده
مغمور، وهذا عن مجلسه وقلبه بولائه لما أولاه من إحسانه معمور؛ وهذا وهو ينفق الجمل
من ماله، وذاك وهو يجود على المعدم من فضل نواله؛ والآخر وقد امتلأ صدره سرورا،
وأشرق وجهه بهجةً ونورا؛ وانطلق لسانه من عقاله بعد تقييده، وانبسط أمله لطلب
الفضائل لما ظفر بمعدنها بعد تعقيده؛ فتجده وقد اعتلق منه جملا واعتنق جمالا، وأنفق
الدرر بعد ضنه بالأصداف فهو لا يخشى عدما ولا يخاف إقلالا؛ والمولى المعنى بهذه
المعالي التي ابتسمت ثغورها، وتحلت نحورها؛ والمكارم التي جادت سحائبها وامتدت
مذانبها، وترادفت مواهبها، واتسعت مذاهبها؛ والفضائل التي لجنابه الكريم تعزى ولفضله
العميم تنتسب، والسيادة التي شادها لنفسه لاستغنائه عما مهدته له آباؤه النجب، والمراد
بهذه الأوصاف التي
خليت والحسن تأخذه تنتقي منه وتنتخب
هو لسان الدولة ويمينها، وسفير المملكة وأمينها؛ وجامع أشتات الفضائل، وناظم أخبار

الأواخر وسير الأوائل؛ وسيد الرؤساء وجليس الملوك، ومؤلف كتاب نظم السلوك؛ المولى
المالك علاء الدين علي ابن المولى المرحوم فتح الدين محمد ابن المولى المرحوم محيي الدين
عبد الله بن عبد الظاهر، ذو الفضائل والمآثر، والنسب العريق والأصل الطاهر، والسبب
الوثيق والفضل الباهر؛ فهذه نبذة من أوصافه أثبتناها، ولمعة من محاسنه أوردناها، أسام لم
تزده معرفةً وإنما لذةً ذكرناها؛ وله - أعزه الله وأوفر نعمه لديه، وأتم نعمته عليه كما أتمها
على أبويه؛ وأرانا في نجله الكريم ما رأيناه في سلفه وفيه، وأنطق الواصف لمحاسنهم بملء
فيه - من الرسائل البليغه، والتقاليد البديعه؛ والعهود التي عاهدتها البلاغة ألا تتعداها
فوفت بعهدها، وأقسمت معانيها أنها لم تقصد سواه من قبل لعلمها أن غيره لا يوفيها حق
قصدها؛ وسنورد إن شاء الله من كلامه ما هو بالنسبة إلى مجموعة نبذةٌ يسيره، ونرصع في
كتابنا هذا من فضائله لمعةً خطيره؛ ونرفع بما نضعه فيه من كلامه قدر هذا التصنيف،
ونطرز به أردان هذا التأليف، ولا نحتاج إلى التعريف بماكنه وتمكنه من هذه الصناعة
فالشمس تستغني عن التعريف؛ ونح الآن نعتذر من التقصير في الانتهاء إلى وصف محاسنه،
ونعترف بالعجز عن إدراك كنه مناقبه الشريفة وميامنه؛ ونأخذ في ذكر كلامه لنمحو ذنب
التقصير بحسن الإخبار، ونسأل الصفح عن اختصارنا واجب حقه ونرجوا قبول كلمات
الاعتذار
فم إنشائه ما كتبه عن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان - جمل الله به الدين،
وأيد ببقائه الإسلام والمسلمين - للسلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصوري في
شوال سنة ثمان وسبعمائة، ابتدأه بأن قال:
هذا عقودٌ شريف انتظمت به عقود مصالح الممالك، وابتسمت ثغور الثغور ببيعته التي
شهدت بصحتها الكرام الملائك؛ وتمسكت النفوس بمحكم عقده النضيد ومبرم عهده
النظيم، ووثقت الآمال ببركة ميثاقه فتقرأه الألسنة مستفتحةً فيه بقول الله الكريم: "إنه من
سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم" الحمد لله الذي جعل الملة الإسلامية تأوي من

سلطانها إلى ركنٍ شديد، وتحوي من مبايعة مظفرها كل ما كانت ترومه من تأبيد التأييد،
وتروي أحاديث النصر عن ملكٍ لا يمل من نصرة الدين الحنيفي وإن مل الحديد من الحديد؛
مؤتى ملكه من يشاء من عباده وملقي مقاليده للمولى الملي بقمع أهل عناده؛ ومانحه من لم
يزل بعزائمه ومكارمه مرهوبا مرغوبا، ومواليه من غدا محبوا من الأنام بواجب الطاعة محبوبا
وباسط أيدي الرغبات لمن حكم له كمال وصفه ووصف كماله بأن يكون مسئولا مخطوبا
ومفوض أمره ونهيه إلى من طالما صرف خطيه عن حمى الدين أخطارا وخطوبا؛ والحمد
لله مجري الأقدار برفع الأقدار، ومظهر سر الملك فيمن أضحى عند الإمامة العباسية
بحسن الاختيار من المصطفين الأخيار، جامع أشتات الفخار، ورافع لواء الاستظهار، ودافع
لاواء الأضرار، بجميل الالتجاء إلى ركنٍ أمسى بقوة الله تعالى عالي المنار وافي المبار، بادي
الآثار الجميلة في الإيثار؛ والحمد لله على أن قلد أمور السلطنة الشريفة لكافلها وكافيها،
وأسند عقدها وحلها لمن يدرك بكريم فطنته وسليم فطرته عواقب الأمور من مباديها،
وأيد الكتائب الإيمانية بمن لم تزل عواليه تبلغها من ذرا الأماني معاليها؛ يحمده أمير المؤمنين
على إعلاء كلمة الإيمان بأعيان أعوانها، وإعزاز نصرها بأركان تشييدها وتشييد أركانها؛
ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تبرح الألسن ترويها، والقلوب تنويها،
والمواهب تجزل لقائلها تنويلا وتنويها؛ يشهد أن محمدا عبده ورسوله أكمل نبي؟ وأفضل
مبعوث، وأشرف مورثٍ لأجل موروث؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تنمو
بركاتها وتنم، وتخص حسناتها وتعم؛ ورضي الله عن عمه العباس بن عبد المطلب جد
أمير المؤمنين، وعن أبنائه الأئمة المهديين؛ الذين ورثوا الخلافة كابرا عن كابر، وسمت
ووسمت بأسمائهم ونعوتهم ذرا المنابر؛ أما بعد، فإن الله تعالى لما عدق لمولانا أمير المؤمنين
مصالح الجمهور وعقد له البيعة في أعناق أهل الإيمان فزادتهم نورا على نور؛ وأورثه عن
أسلافه الطاهرين إمامة خير أمه، وكشف بمصابرته من بأس العدا غمام كل غمه؛ وأنزل

عليه السكينة في مواطن النصر والفتح المبين، وثبته عند تزلزل الأقدام وثبت به قلوب
المؤمنين؛ وأفاض عليه من مهابة الخلافة ومواهبها ما هو من أهله، وأتم نعمته عليه كما أتمها
على أبويه من قبله؛ بايع الله تعالى على أن يختار للتمليك على البرايا، والتحكيم في الممالك
والرعايا؛ من أسس بنيانه على التقوى، وتمسك من خشية الله سبحانه بالسبب الأقوى؛
ووقف عند أوامر الشرع الشريف في قضائه وحكمه، ونهض لأداء فرض الجهاد بمعالي
عزمه وحزمه؛ وكان المقام الأشرف العالي المولوي السلطاني الملكي المظفري الركني، سلطان
الإسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين؛ ناصر الملة المحمدية، محيي الدولة العباسية أبو
الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين - أعز الله تعالى ببقائه حمى الخلافة وقد فعل، وبلغ دوام
دولته الأمل - هو الملك الذي انعقد الإجماع على تفضيله، وشهدت مناقبه الطاهرة
باستحقاقه لتحويل الملك إليه وتخويله؛ وحكم التوفيق والاتفاق بترقيه إلى كرسي السلطنة
وصعوده، وقضت الأقدار بأن يلقي إليه أمير المؤمنين أزمة عهوده؛ والذي كم خفقت قلوب
الأعادي عند رؤية رايات نصره، ونطقت ألسنة الأقدار بأن سيكون مليك عصره وعزيز
مصره؛ واهتزت أعطاف المنابر شوقا للافتخار باسمه، واعتزت الممالك بمن زاده الله بسطةً
في علمه وجسمه؛ وهو الذي ما برح مذ نشأ يجاهد في الله حق جهاده، ويساعد في كل
معركة بمرهفات سيوفه ومتلفات صعاده، ويبدي في الهيجاء صفحته للصفاح فيقيه الله
ويبقيه ليجعله ظله في الأرض على عباده وبلاده، فيردى الأعداء في مواقف تأييده فكم عفر
من خد؟ لملوك الكفر تحت سنابك جياده؛ ويشفي بصدور سيوفه صدور قوم مؤمنين،
ويسقي ظماء أسنته فيرويها من مورد ورود المشركين؛ ويطلع في سماء الملك في غرر رأيه
نيراتٍ لا تأفل ولا تغور، ويظهر من مواهبه ومهابته ما تحسن به الممالك وتحصن به الثغور؛
فما من حصنٍ أغلقه الكفر إلا وسيفه مفتاحه، ولا ليل خطبٍ دجا إلا وغرته الميمونة
صباحه، ولا عز أملٌ لأهل الإسلام إلا وكان في رأيه المسدد نجاحه، ولا حصل خللٌ في قطرٍ

من الممالك إلا وكان بمشيئة الله وبسداد تدبيره صلاحه؛ ولا اتفق مشهد غزوٍ إلا والملائكة
بمضافرته فيه أعدل شهود، ولا تجدد فتوحٌ للإسلام إلا جاد فيه بنفسه وأجاده، والجود
بالنفس أقصى غاية الجود كم أسلف في غزو الأعداء من يومٍ أغر محجل، وأنفق ماله ابتغاء
مرضات الله فحاز النصر المعجل والأجر المؤجل؛ وأحيا من معالم العلوم ودوارس المدارس
كل داثر، وحثه إيمانه على عمارة بيوت الله تعالى الجامعة لكل تالٍ وذاكر، "إنما يعمر
مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر"؛ وهو الذي ما زالت الأولياء تتخيل مخايل السلطنة
في أعطافه معنىً وصوره، والأعداء يرومون إطفاء ما أفاضه الله عليه من أشعة أنواره
"ويأبى الله إلا أن يتم نوره"؛ طالما تطاولت إليه أعناق الممالك فأعرض عنها جانبا، وتطفلت
عليه فغدا لها رعايةً لذمة الوفاء مجانيا؛ حتى أذن الله سبحانه لكلمة سلطانه أن ترفع
وحكم له بالصعود في درج الملك إلى المحل الأعلى والمكان الأرفع، وأدى له من المواهب ما
هو على اسمه في ذخائر الغيوب مستودع؛ فعند ذلك استخار الله تعالى سيدنا ومولانا أمير
المؤمنين المستكفي بالله - جعل الله الخلافة كلمة باقيةً في عقبه، وأمتع الإسلام والمسلمين
بشريفي حسبه ونسبه - وعهد إلى المقام العالي السلطاني بكل ما وراء سرير خلافته،
وقلده جميع ما هو متقلده من أحكام إمامته؛ وبسط يده في السلطنة المعظمه، وجعل أوامره
هي النافذة وأحكامه هي المحكمه؛ وذلك بالديار المصرية والممالك الشامية، والفراتية
والحلبية والساحليه، والقلاع والثغور المحروسة والبلاد الحجازية واليمانيه؛ وكل ما هو من
الممالك الإسلامية إلى خلافة أمير المؤمنين منسوب، وفي أقطار إمامته محسوب؛ وألقى إلى
أوامره أزمة البسط والقبض والإبرام والنقض، والرفع والخفض، وما جعله الله في يده من
حكم الأرض، ومن إقامة سنةٍ وفرض؛ وفي كل هبةٍ وتمليك، وتصرفٍ في ولاية أمير المؤمنين
من غير شريك؛ وفي تولية القضاة والحكام، وفصل القضايا والأحكام؛ وفي القضايا
والأحكام؛ وفي سائر التحكم في الوجود، وعقد الألوية والبنود، وتجنيد الكتائب والجنود،

وتجهيز الجيوش الإسلامية في التأييد لكل مقامٍ محمود؛ وفي قهر الأعداء الذين نرجوا بقوة الله
تعالى أن يمكنه من نواصيهم، ويحكم قواضبه في استنزالهم من صياصيهم، واستئصال
شأفة عاصيهم؛ حتى يمحو الله بمصابيح سيوفه سواد خطوب الشرك المدلهمه، وتغدو
سراياه في اقتلاع قلاع الكفر مستهمه؛ وترهبهم خيل بعوثه وخيالها في اليقظة والمنام،
ويدخل في أيامه أهل الإسلام مدينة السلام بسلام؛ تفويضا تاما عاما منضدا منظما، محكما
محكما؛ أقامه مولانا أمير المؤمنين في ذلك مقام نفسه الشريفه، واستشهد الكرام الكاتبين في
ثبوت هذه البيعة المنيفه؛ فليتقلد المقام الأشرف السلطاني - أعز الله نصره - عقد هذا
العهد الذي لا تطمح لثله الآمال، وليستمسك منه بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ولا
انفصام؛ فقد عول أمير المؤمنين على يمن أرائك التي ما برحت الأمة بها في المعضلات
تستشفي، واستكفى بكفايتك وكفالتك في حياطة الملك فأضحى وهو بذلك المستكفي؛
وهو يقص عليك من أنباء الوصايا أحسن القصص، وينص لديك ما أنت آخذٌ منه بالعزائم
إذا أخذ غيرك فيه بالرخص؛ فإن نبهت على التقوى فطالما تمسكت منها بأوثق عروه، وإن
هديت إلى سبيل الرشاد فما زلت ترقى منه أشرف ذروه؛ وإن استرهفنا عزمك الماضي
الغرار، واستدعينا حزمك الذي أضاء به دهرك وأنار واستنار؛ في إقامة منار الشرع
الشريف، والوقوف عند أمره ونهيه في كل حكمٍ وتصريف؛ فما زلت - خلد الله سلطانك
- قائما بسننه وفرضه، دائبا في رضى الله تعالى بإصلاح عقائد عباده في أرضه؛ وما برح
سيفك المظفر للأحكام الشرعية خادما، ولمواد الباطل حاسما،ولأنوف ذوى الزيغ والبدع
مرغما؛ وكل ما نوصيك به من الخير فقد جبلت عليه طباعك، ولم يزل مشتدا فيه
ساعدك ممتدا إليه باعك؛ غير أننا نورد لمعةً اقتضاها أمر الله تعالى في الافتداء بالتذكرة في
كتابه المبين، وأوجبها نص قوله تعالى: "وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين"، ويندرج تحت
أصولها فروعٌ يستغني بدقيق ذهنه الشريف عن نصها، وبفكره الثاقب عن قصها؛ فأعظمها

للملة نفعا، وأكثرها للباطل دفعا؛ الشرع الشريف، فليكن - أعز الله نصره - عاملا على
تشييد قواعد أحكامه، وتنفيذ أوامر حكامه؛ فالسعيد من قرن أمره بأمره، ورضى فيه
بحلو الحق ومره؛ والعدل، فلينشر لواءه حتى يأوي إليه الخائف وينكف بردعه حيف كل
حائف؛ ويتساوى في ظله الغني والفقير، والمأمور والأمير؛ ويمسي الظلم في أيامك وقد
خمدت ناره، وعفت آثاره؛ وأهم ما احتفلت به العزائم، واشتملت عليه همم الملوك
العظائم، وأشرعت له الأسنة وأرهفت من أجله الصوارم؛ أمر الجهاد الذي جعله الله
سبحانه حصنا للإسلام وجنه، واشترى فيه من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؛
فجند له الجنود وجمع له الكتائب واقض في مواقفه على الأعداء من باسك بالقواضي
القواضب؛ واغزهم في عقر الدار، وأرهف سيفك البتار، لتأخذ منهم للمسلمين بالثار؛
والثغور والحصون، فهي سر الملك المصون، وهي معاقل النفوس إذا دارت رحى الحرب
الزبون؛ فلتقلد أمرها لكفاتها، وتحصن حماها بحماتها، وتضاعف لمن بها أسباب قوتها
ومادة أقواتها؛ وأمراء الإسلام، وجنود الإيمان، فهم أولياء نصرك، وحفظة شامك ومصرك؛
وحزبك الغالب، وفريقك الذي تفرق منه قلوب العدو في المشارق والمغارب؛ فليكن المقام
العالي السلطاني - نصره الله تعالى - لأحوالهم متفقدا ويبسط وجهه لهمم متوددا؛ حتى
تتأكد لمقامه العالي طاعتهم، وتتجدد لسلطانه العزيز ضراعتهم؛ وأما غير ذلك من المصالح
فما برح تدبيره الجميل لها ينفذ ورأيه الأصيل بها يشير، ولا يحتاج مع علمه بغوامضها إلى
إيضاحها "ولا ينبئك مثل خبير" والله تعالى يخص دولته من العدل والإحسان بأوفر نصيب،
ويمنح سلطانه ما يرجوه من النصر المعجل والفتح القريب؛ بمنه وكرمه.
وكتب تقليدا مظفريا للأمير سيف الدين سلار المنصوري بنيابة السلطنة الشريفة في سنة
ثمان وسبعمائة، وهو:
الحمد لله الذي شيد ركن الإسلام بسيفه المنتضى، وجدد للملك مزيد التأييد بكافله الذي

ما برح وفاؤه للملوك الأواخر والأوائل مرتضى، وأنجز من وعوده الاتفاق والتوفيق ما كان من
ذمة الدهر مقتضى، جامع شمل الأوامر والنواهي بتفويضها إلى من تبيت العدا من مهابته
على جمر الغضى، ومنيل المنى بمواهبه التي تحوز مواد الاختيار وتجوز أمد الرضا، وملقي
مقاليد التدبير إلى من أضحى جميل التأثير إذا تصرف في الرفع والخفض حكم القضا،
ومصرف أزمة الأمور في يد من غدا ثابت العزمات في الأزمات، فما أظلم خطبٌ إلا انجلى
بمصابيح آرائه وأضا؛ نحمده على أن عضد دولتنا بالكافل الكافي الذي اختاره الله لنا على
علم، ومنح أيامنا مولاة الولي الذي جمعت فيه خلتان يحبهما الله ورسوله: وهما الأناة
والحلم، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مشرقة الأنوار، مغدقةً سحبها
بأنواء المنن الغزار؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي بعثه الله لإقامة شعائر الإيمان،
وخص ملته في الدنيا والآخرة باليمن والأمان؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم
من أضحى بفضل السبق للإيمان به صديقه وصديقه، وأمسى لفرط الألفة أنيسه في الغار
ورفيقه؛ ومنهم من ضافره في إظهار النبوة ووازره، وظاهره على إقامة منارها بإطفاء كل
ثائرة وإخماد كل نائره؛ ومنهم من ساعد وساعف في تجهيز جيش العسره، وأحسن وحسن
مع إخوانه المؤمنين الصحبة والعشره؛ ومنهم من كان سيفه الماضي الحد، ومهنده الذي كم
فل بين يديه الجموع فما اعترض إلا قط ولا اعتلى إلا قد؛ وسلم تسليما كثيرا؛ أما بعد، فإن
الله تعالى لما هنأ لنا مواهب الظفر، وهيأ لنا من الملك مواد إدراك المنى وبلوغ الوطر،
وأيدنا من أنصارنا بكل ذي فعلٍ أبر ووجهٍ أغر؛ وشد أزرنا بمضافرة سيف يزهى الملك
بتقليده، وأمدنا بمؤازرٍ تتصرف المنى والمنون بين وعده ووعيده؛ وجب علينا أن نحوط
دولتنا بمن لم تزل حقوق مودته بحسن الثناء حقيقه، وعهود محبته في ذمام الوفاء متمكنةً
وثيقه، وطريقته المثلى في المحاسن والإحسان مشهورةً ولا نرى مثلا لتلك الطريقه؛ ونقلد
كفالة ممالكنا للولي الذي ما برح يتلقى أمورنا بفسيح صدره، ويتوقى حدوث كل ما نكرهه

فينهض في دفعه بصائب رأيه وثاقب فكره؛ وكان الجناب الكريم العالي الأميري الكبيري
العالمي العادلي الكافلي المؤيدي الزعيمي الغياثي المسندي الممهدي المثاغري المظفري
المنصوري السيفي، معز الإسلام والمسلمين، سيد أمراء العالمين؛ سند الممالك، مدبر الدول،
مقدم العساكر، أمير الجيوش، كهف الله، حصن الأمة، نصرة الملوك والسلاطين، سلار
المنصوري نائب السلطنة المعظمة، وكافل الممالك الإسلامية، - أعز الله نصره - هو
واسطة عقد الأولياء، وسيف الدولة الفاتك بالأعداء، والذي أسلف في نصرة الإسلام
حقوقا غدت مرقومةً في صحف الفخار، واستأنف في مصالح الأمة المحمدية تدبيراتٍ أظهر
بها أسباب التأييد على الأعداء والاستظهار؛ كم أصلح بيمن سياسته ذات البين، وكم
أبهج ببركة تأتيه وتأنيه كل قلب وأقر كل عين؛ وكم ساس من ملك فأضحى ثابت الأساس،
وجعل شعاره دفعا للباس ونفعا للناس؛ ما عوهد إلا وأوفى، ولا عوند إلا وعف وعفا، ولا
استشفى في طب معضلة إلا وشفى، ولا استدرك تدبيره فارط أمرٍ كان على شفا؛ فما
يومه في الفضل بواحد، ولا أحد لمثل محاسنه الجميلة بواجد؛ لعزماته في مواقف الجهاد
السوابق الغر المحجله، ولتدبيراته في مصالح العباد والبلاد المنافع المعجلة والمؤجله؛ وهو
الذي خافت مهابته الكتائب، وأملت مواهبه الرغائب، ولعبت سطواته للعدا خيالا في
المراقد وخيلا في المراقب، وامتطى من الشهامة كاهلها فأحجم عنه لما أقدم كل محارب،
وصدق من نعته بالسيف، فلو لم ينعت به لقيل: هذا سيف يفتك بالضريبة ولا تفل له
مضارب؛ وكم لقي بصدره الألوف من التتار - خذلهم الله - والمنايا قد بلغت من النفوس
المنى، وأمضى سيفه سفي الحروب وما شكا الضنى؛ وحمل حملة فرق بها كل شملٍ للكفار
اجتمع، وقطع أعناق العدافى رضى الله تعالى ولا ينكر السيف إذا قطع؛ ووصل من
العلياء إلى غايةٍ تزاحم الكواكب بالمناكب، وتفرد بأمر الجيوش فأضحى بدر الكتائب
وصدر المواكب؛ إذا جاش الجيش ثبت عند مشتجر الرماح، وإذا أظلم ليل النقع وضحت

أسارير جبينه وضوح الصباح، وإذا قدم في كتيبة رأيت البر بحرا من سلاح وإذا رفعت
راياته يوم الوغى كبرت بالظفر على ألسنة الرماح، وإذا كان في جحفلٍ كانت عزائمه للقلب
قلبا وصوارمه جناحا للجناح، وغذا قدر في السلم عفا لكنه في الحرب قليل الصفح بين
الصفاح؛ وهو الذي ما برحت أيدي انتقامه تهدم من أهل الشرك العمائر والأعمار، وبروق
سيوفه تذهب بالنفوس لا بالأبصار، ويمن يمينه وصبح جبينه هذا يستهل بالأنواء وذا
بالأنوار؛ اقتضى حسن الرأي الشريف أن نوفي حقوق مودته التي أسلفها لنا في كل نعمى
وبوسى، وأن نضاعف علو مكانه من أخوتنا ليكون منا كهارون من موسى؛ فلذلك رسم
بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المظفري الركني - لا برح يوفي بعهود الأولياء
ويفي، ويمنح من أخلص النية في ولائه البر الخفي والفضل الحفي - أن تكون كلمة الجناب
الكريم العالي الأميري السيفي المشار إليه - أعز الله نصره - نافذةً في كفالة الممالك
الإسلامية، متحكمةً في نيابة السلطنة المعظمة، وأوامره المطاعة في إمرة الجيوش وحياطة
الثغور التي غدت بدوام كفالته متبسمة؛ على أجمل عوائده، وأكمل قواعده؛ نيابةً ثابتة
الأساس، نامية الغراس؛ لا يضاهى فيها ولا يشارك، ولا يخرج شيءٌ من أحوالها عن رأيه
المبارك؛ فليبسط نهيه وأمره في التدبير والإحكام، وليضبط الممالك حتى لا تسامى ولا
تسام؛ وليطلع من آرائه في سماء الملك نجوما بها في المصالح يهتدى، وليرفع من قواعده ما
يخفض به قدر العدا؛ وليضاعف ما ألفته الأمة من عدله، وليجر على أكرم عاداته من نشر
إنصافه وشمول فضله، وليعضد جانب الشرع المطهر في عقده وحله، وتحريمه وحله؛ ولينفذ
كلمته على ما هو من ديانته مألوف، وليستكثر من الاقتداء بأحكامه في النهي عن المنكر
والأمر بالمعروف؛ وأمراء الإسلام وجنوده، فهم ودائع سره، وصنائع شكره، وطلائع نصره،
وما منهم إلا من غذي بلبان دره، وغدا من ثناء عصره متقلدا لعقود دره؛ فليستدم حنوه
عليهم وإشفاقه، وليوال إليهم بره وإرفاده وإرفاقه؛ والوصايا كثيرةٌ لكنها منه تستملى،

والتنبيهات على المصالح منه تستفاد نقلا وعقلا، وما زلنا نستضيء في المهمات بيمن آرائه
التي جمعت للمصالح شملا؛ فمثله لا يدل على صواب وهو المتفرد بالسداد، والخبير بتفريج
كرب الخطوب والسيوف غامضة الجفون في الأغماد؛ والله تعالى يمتعنا من بركة كفالته بالخل
الموافي والأخ المواسي، ويشد أزر سلطاننا من مضافرته بمن أمسى جبل الحلوم الرواسي؛ إن
شاء الله تعالى.
ومن إنشائه أيضاً اعزه الله تعالى مقامة عملها في سنة اثنتين وسبعمائة، على لسان من
التمسها منه، فقال:
حكى أليف الغرام، وحليف السقام؛ وقتيل العيون، وصريع الجفون؛ وفريسة الأسود،
والمصاب بنبال الحدق السود؛ عن قصته في هواه، وقضيته التي كان في أولها غناه، وفي
آخرها عناه؛ قال: لم أزل في مدة العمر أترقب حبيبا أتلذذ بحبه، وأتنعم بقربه؛ وأحيا
بانعطافه، وأسكر من ريقه بسلافه؛ وأستعذب العذاب فيه، وارشف خمر الرضاب من فيه،
وأقتطف ورد السرور من وجنتيه وأجتنبه؛ وأكتسي به لطفا، وأكتسب بمصاحبته ظرفا؛
حتى ظفرت يداي بمن رق وراق، ولطفت حدائق معانيه حتى كادت تخفى عن الأحداق
لطفت معانيه فهب مع الصبا ورقيبه بهبوبه لا يعرف
قد جمع أوصاف المحاسن والمعاني، وفاق كل مليح فليس له في الحسن ثاني؛ أما قوامه،
فقد ملك الفؤاد فأضحى ملكا عادلا، واستباح النفوس من اعتداله فلا غرو إن أضحى لها
قاتلا
عجبا لقدك ما ترنح مائلا إلا وقد سلب الغصون شمائلا
وأما لحاظه فقد غنيت عن الكحل بالكحل، وأذابت حبات القلوب في حب تلك المقل
وإذا رأيت الطرف يعمل في الحشا عمل الأسنة فالقوام مثقف
إلى غير ذلك من وجه كالبدر في تمامه، يعلوه من شعره ما يصبر به كالبدر تحت غمامه
قمر تبلج وجهه في حندسٍ من شعره فأضاء منه الحندس
ومقبلٍ أشهى من الراح، وأعطر من زهر الربا تفتحت أكمامه عند الصباح
ومقبل عذب كأ ن رضابه بردٌ وراح

وخد؟ أمسى شقيق الشقيق، ومبسمٍ يرشف من شفاهه العقيق الرحيق
شفة كمحمر العقي ومبسم مثل الأقاح
وصدغٍ سال على خده القاني، وامتد كدمع محبه الأسير العاني
صب له دمعٌ كصدغك سائلٌ فعساك يا مثري الجمال تواسي
وخصرٍ لطف ودق، وعلاه كثيب ردفٍ فأثقله حتى ضني ورق
يا ردفه رفقا علي خصره بينكما حرمة جيران
إلى غير ذلك من أنواع حسنٍ قصر عن وصفها قلمي، وعجز عن حصرها كلمي؛
وأشفقت من شرحها خوفا أن أنم عليه، أو أذكر ما تفرد به من الحسن فأكون قد أشرت
إليه؛ وأنا قد تدرعت ثوب الكتمان، وتسترت حتى غاض منى الدمع وأغضى الطرف
وسكت اللسان
يقولون من هذا الذي مت في الهوى به كلفا يا رب لا علموا الذي
غير أني قد متعت بذكر ملاحته فؤادي، ولا بد أن أوردها مجملةً لأكمد بلفظها المعادي
حكاه من الغصن الرطيب وريقه وما الخمر إلا وجنتاه وريقه
هلالٌ ولكن أفق قلبي محله غزالٌ ولكن سفح عيني عقيقه
بديع التثني راح قلبي أسيره على أن دمعي في الغرام طليقه
أقر له من كل حسنٍ جليله ووافقه من كل معنىً دقيقه
من الترك لا يصيبه وجدٌ إلى الحمى ولا ذكر بانات الغوير يشوقه
ولا حل في حي؟ تلوح قبابه ولا ساق في ركبٍ يساق وسيقه
ولا بات صبا للفريق وأهله ولكن إلى خاقان يعزى فريقه
يهدد منه الطرف من ليس خصمه ويسكر منه الريق من لا يذوقه
على خده جمر من الحسن مضرمٌ يشب ولكن في فؤادي حريقه
له مبسمٌ ينسى المدام بريقه ويخجل نوار الأقاحي بريقه
قال الراوي: فأعلمته ما خامر قلبي من هواه، وبذلت نفسي ابتغاءً لرضاه
بثثت له سرى ونحن بروضةً فمالت لتصغي للحديث غصون
فتلقى ضراعتي بالرحب والإقبال، وسفر عن وجه الرضا فبشرت نفسي ببلوغ الآمال؛
وقلت:
تذللت في الشكوى إليه فرق لي حنوا لدمعي في الهوى وتذللي
غزالٌ لبست السقم خلعة جفنه على أنني فيه خلعت تجملي

تعلل بالأعذار حتى خدعته بسحر الرقى أفديه من متعلل
فراقب إغفاء الرقيب وهجعة الس مير وراعى حين غفلة عذلى
ووافى أخا الأشواق حلف صبابةٍ أسير هوىً من وجده في تململ
فلم أر روضا كان أحسن بهجةً - لعمر الهوى - من وجهه المتهلل
فأعظمت مسراه وقبلت خاضعا ثرى خطوه شكرا لفضل التطول
وانعطف على انعطاف الغصن الرطيب، وتمازجت قلوبنا حتى أشكل علي أينا الحبيب؛
وفزت منه ببديع جمال تلذ به النفوس، ورشفت من رضابه أحلى ما ترشفه الأفواه من شفاه
الكؤوس
تعلقته صائدا للقلوب بألحاظه سالبا للنهى
بديع الجمال إذا ما بدا ترى فيه للعين مستنزها
فكم فيه للعين من روضةٍ وكم فيه للنفس من مشتهى
يا حسنه لما أتى بوعده وعلى غير وعد، ويا لذاذة قربه ويا حرارة ما ذقناه بعدها من
هجرٍ وصد؛ فلم نزل على ذلك مدةً أغفى الدهر عنا فيها، أقضى حياةً طابت تلذذا
وترفيها
رعى الله محبوبا نعمت بوصله وقد بعدت عنا الغداة عيون
حتى شعر بنا الدهر الخؤون، ورماني بسهم فرقةٍ أبعدت المنى وجلبت المنون؛ وعلم بما
كتمناه الرقيب، وعجز عن داء قلبي الطبيب
لو كان للعشاق حظ؟ في الهوى ما كان يخلق في الزمان فراق
فتجرعت بعد الشهد علقما، ولم استطع أفتح من الحزن فما؛ وهمت في ساحة الشوق
والالتياح، وفضحتني الأدمع التي طال بها على المحبين الافتضاح
لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خيرٍ لساني
نم دمعي فليس يكتم شيئا ووجدت السان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي؟ فاستدلوا عليه بالعنوان
فإذا هو مر المذاق، وأمنع الدمع فيقول: وهل خبأتني لأعظم من يوم الفراق
أبى الوجد أن يخفيه قلبٌ متيمٌ يكابده والدمع يبديه والضنى
وكم ذاب القلب حسره، وتفتت الكبد في تلك الفتره؛ على خلوة أبث فيها حزني، وأفسح
فيها المجال الذي ضاق به عطنى؛ فلم أظفر بخلوة في لمحة بصر، ولا فزت بذكر كلمة أفرج

بها ما عرض من حصر
تعرضت من شوق إليه فأعرضا ولولا الهوى لم أمنح الحب مبغضا
وبحت إليه أن عندي رياضةً عليه وما تلك الرياضة عن رضا
قضى حبه أني إذا عز في الهوى أذل وإني قد رضيت بما قضى
لقلبي من عينيه سقمٌ وصحةٌ فكم مرة في الحب داوى وأمرضا
مضى لي به عيشٌ بكيت لفقده وهيهات أن يرتد عيشٌ إذا مضى
وبليت برقيب قد سلب الله من قلبه الإيمان، وسلطه علي بغلظ الطباع وفظاظة اللسان؛
كأنه شيطان لا بل هو بعينه، لكنه أربى عليه بهتانه ومينه؛ يحاق على الكلمة الواحده، ولا
يسمح بأن طرفي يمتد إلى تلك المحاسن التي غدت القلوب بها واجده؛ يود لو غطى على
بصري، ويبدلني مغيبي من محضري؛ لا يفتر عن اللوم والعذل، ولا يرى أن يقضي ساعاته إلا
في بذل الحيل؛ يرغب في شتات شملي، وانقطاع وصلي؛ وليس لي في دفعه حيله، ولا في
الانتقام منه وسيله؛ وما زال حتى أحال الحبيب عن وداده، وكدر ما صفا من حسن ظنه
واعتقاده؛ وأنا أروض نفسا كادت تذوب، وأتسلى بأيام وصاله وأقول: لعلها ترجع وتؤوب
لئن ذقت مر الصبر أو ملح أدمعي لقد أعذبت تلك المذاقات منهلي
فلم يقنع الدهر لي بذلك، ولا رضي بالصد والعذل والهجر الذي هو أعظم المهالك؛ حتى
قضى بالفرقة والبعاد، ورمتني النوى بسهم لم يخطئ الفؤاد؛ وكنت أتعلل بالنظر، وأقول:
مشاهدة هذا الوجه القمري عندي أكبر وطر؛ حتى منعت الوصال والمشاهده، وندبت
قلبي القريح بأدمع عيني الجامده
أحباب قلبي لقد قاسيت بعدكم نوائبا صيرتني في الهوى مثلا
وقد تعجبت أني بعد فرقتكم أحيا وأيسر ما لاقيت ما قتلا
وانقطعت عني الرسائل، وذهبت لذاذة ما اعتدته من تلك الوسائل
هل مخبرٌ عنكم يعيش بقربه ميت الرجا والصبر بعد إياس